٥

جورج هارون

اعلام القومية اللبنانية
-١-
يوسف السودا

م. ب الكسليك ١٩٧٩

منشورات م. ب. الكسليك

١ — على دروب لبنان ، ادوار حنين ، ١٩٧٩ . ٢٣٤ صفحة .

٢ — الراديكالية في السياسة اللبنانية ، خيرالله غانم ، ١٩٧٩ ، ٢١٠ صفحات .

٣ — التعدّدية في لبنان ، وليد فارس ، ١٩٧٩ ، ٣٦٥ صفحة .

٤ — Le Golfe en Ebullition, Raymond SAYEGH; 1979, 116 pages.

٥ — أعلام القومية اللبنانية — يوسف السودا ، جورج هارون ، ١٩٧٩ ، ٢٠٢ صفحة .

تصميم الغلاف : نعيم ضومط

A
323.15 6929
H 292y

جورج هارون

أعلام القوميّة اللبنانية

-١-

يوسف السّودا

B. U. C. LIBRARY
08 OCT 1980

م.ب الكسليك ١٩٧٩

جميع الحقوق محفوظة
١٩٧٩

توطئة

يمكن القول أن يوسف السودا[١] هو ، الى حد كبير ، أبو فكرة القومية اللبنانية في عصرنا ، أبو فكرة «لبنان الكبير» . فالتيار القومي اللبناني الذي انطلق ، منذ اوائل هذا القرن ، ينبع من آرائه في جمعية «الاتحاد اللبناني» بوادي النيل ، ويستلهم المباديء التي وضعها هو على رأس هذا «الاتحاد» ، حول الوطن اللبناني ، تاريخا ومستقبلا ، هذه المباديء التي كانت ، قبل عام ١٩٢٠ ، عهد انشاء «دولة لبنان الكبير» ، أقرب الى الحلم منها الى الواقع والمعقول .

سنحاول في هذه الدراسة أولا ، التحدث عن بعض العوامل التي أدت بالسودا الى إعتناق عقيدته ، ثم تبيان المقومات لهذه العقيدة ، منذ بدأ الرجل في الكتابة في مطلع هذا القرن وحتى آخر عهده بها في الأعوام الستينات من القرن نفسه ، متناولين جميع مؤلفاته،خاصة المهمة منها ، التي تعكس جملة آرائه القومية ، معتبرين أن كل كتاباته ومواقفه ، سواء التي ظهر منها قبل بداية الحرب العالمية الاولى أو خلالها ، أو قبل نشوء «لبنان الكبير» وبعده ، حتى العهود الاستقلالية والحالية ، تؤلف «كلا» و«وحدة»،وهو أمر واقع وراهن . ومن خلال هذه الكتابات المختلفة الحجم والاغراض — على أنها جميعا تتناول لبنان ، كيانا وهوية — سنستعرض الخطوط الكبرى لعقيدة الرجل

اللبنانية ، اذ أنّ مجموع الخواطر التي أثارها ، والمسائل التي طرحها ، والمباديء التي تبنّاها ، تشكل نظاماً فكرياً عقائدياً سار عليه رفاقه في «الاتحاد اللبناني» ، في مصر وأميركا وباريس ، واقتفى أثره سائر الجمعيات اللبنانية العاملة للبنان في بلاد الاغتراب ، كما في الوطن الام ، والتزم بخطوطه الكبرى مجلس الادارة في متصرفية الجبل ، كما الوفود اللبنانية المرسلة الى مؤتمر الصلح لعام ١٩١٩ ، وحتى القوميون اللبنانيون أنفسهم داخل لبنان الكبير.

هذا النظام الفكري السياسي اللبناني الذي أنشأه السودا والقائم في جوهره على التاريخ ، هو ما يمكن أن نسميّه بايديولوجية القومية اللبنانية التي يعتنقها اليوم ويجاهد فداءً عنها ملايين اللبنانيين في العالم ، بحيث اصبحت مقومات هذه القومية احدى قضايا الساعة في الشرق الاوسط ، وبالأخص ، في الفترة الراهنة التي تمرّ بها المنطقة.

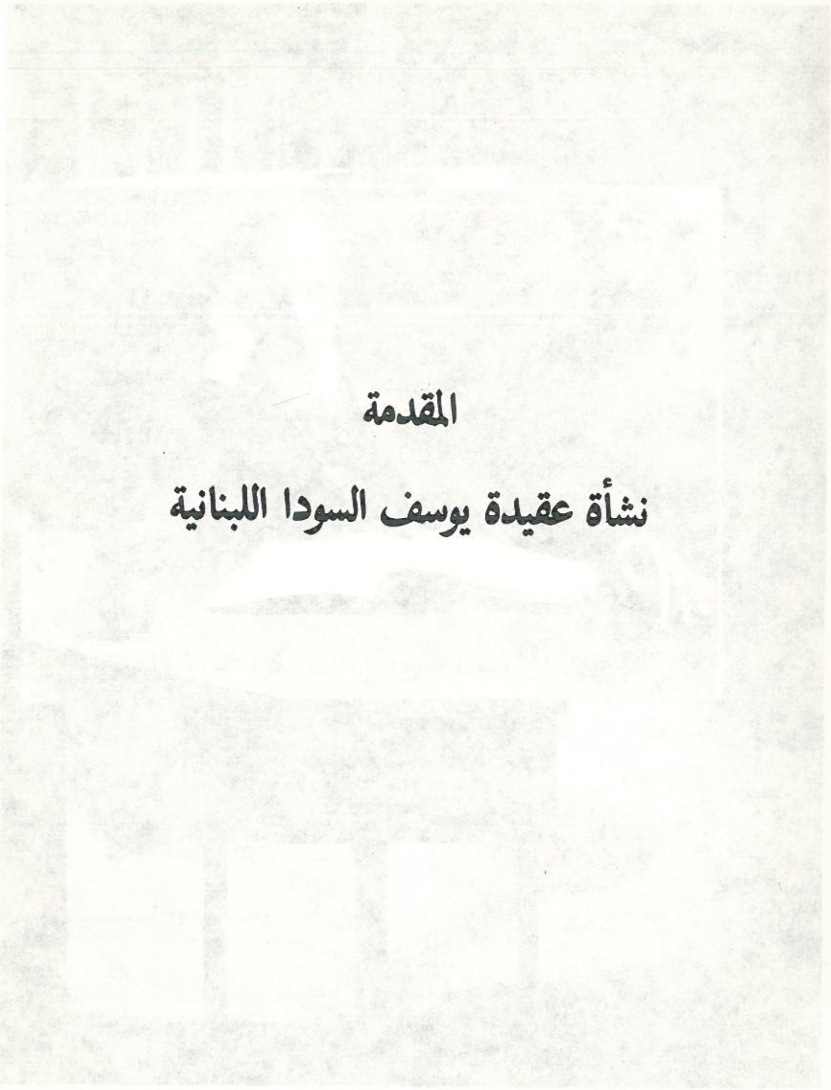

المقدمة

نشأة عقيدة يوسف السودا اللبنانية

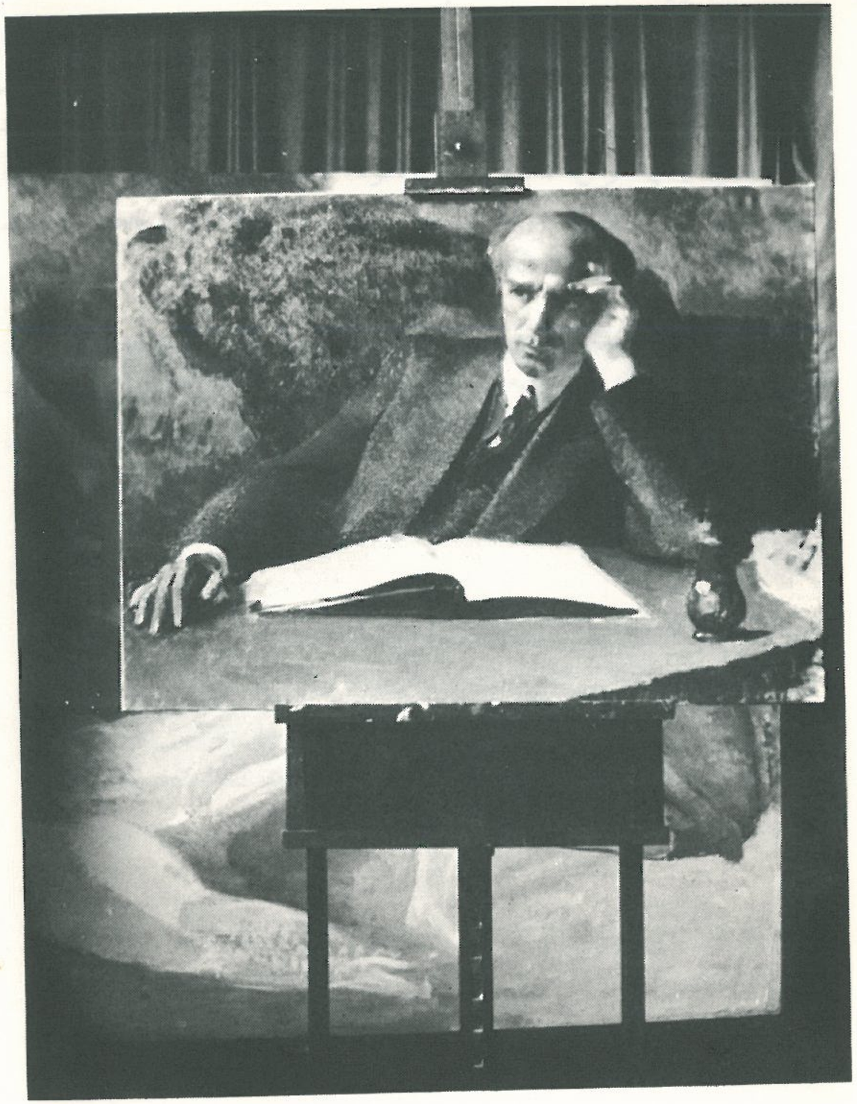

رسم السودا للمصور بوكي
مدير مدرسة الفنون الجميلة في روما

ما هي العوامل التي مهدّت ليوسف السودا إعتناق فكرة القومية اللبنانية ؟

الرجل نفسه طرح على نفسه السؤال : «كيف نشأت فكرتي الوطنية ؟» ، وذلك في عهد دراسته الثانوية ، في الجامعة اليسوعية في بيروت .

وها هو نفسه يجيب :

«كنا في كلية القديس يوسف اساتذة وتلاميذ من مختلف البلدان والجنسيات ، لكل منهم وطن ودولة وراية .

* يعلّمنا الاساتذة تواريخ الامم .

* ويحدّثنا التلاميذ الأجانب عن أوطانهم ومفاخرها .

* فرنسيون ، اميركان . انكليز . المان . سويسريون . تليان . يونان ....

* لكل فريق عيده الوطني ، ورايته الوطنية . وكنّا نعيّد معهم ، نشاطرهم افراحهم ، وتستهوينا بطولات عظائهم .

* اما في بلادنا ، فكان الناس يحتفلون بعيد «الجلوس المأنوس» ، ويدعون لجلالة السلطان ابن السلطان ، ويرفعون على الدور والقصور راية تركيا .

*ونحن من نحن !

* لسنا فرنسيين ولا أميركان ولا انكليز ... ولا أتراك .

* فمن نحن ؟

* قالوا . من جبل لبنان .
وما هو لبنان ؟
لا ذكر للبنان فيما علّمونا ورووا لنا من تواريخ واحداث ..
أردت أن أعرف ما هو لبنان » .

بعد أن يطرح السودا السؤال عن هويته وهوية بلاده يعرض لنا الطرق التي أتبعها ليعرف شيئاً عنه وعن بني قومه :

«منذ أيام المدرسة أخذت أطالع وأدرس وأنسخ : من المكتبة الشرقية في بيروت ، الى المكتبة الخديوية في القاهرة ، الى المكتبة الوطنية في باريس ، الى الكتب التي اقتنيت وما ازال » .

ماذا أفاد السودا من الأبحاث التي قام بها حول حسَبِه ونسَبِهِ ؟ يجيب :

«فعرفت أن للبنان تاريخاً يملأ خمسة آلاف سنة. وان لبنان كان في الشرق ، منذ القدم ، منار حضارة . معقل استقلال . حمى للحريّة . اخترع اهلوه ما أخترعوا ، واكتشفوا ما اكتشفوا . حملوا الحضارة الى الشعوب ، وسيطروا على البحر المتوسط طوال أجيال . وعرفت أن اللبنانيين دافعوا في أرضهم وفي جالياتهم عن الحرية والاستقلال حتى الموت ، لا يذلّون لفاتح : من الاسكندر ، الى الرومان ، الى العرب ، الى العثمانيين ، الى المصريين .

الى أن ضمنت الدول الكبرى استقلال لبنان الداخلي سنة ١٨٦١ .

ويعود السودا الى تاريخ لبنان في العهود الرومانية ليجد «من مفاخر لبنان أنّهُ أجلس

أباطرة لبنانيين على عرش رومه . وأن علماءه في القانون سنّوا في بيروت الشرائع التي لا يزال العالم يَستمدّ منها ويَستنير بها حتى اليوم » .

ويعرّج على الدور الحر الذي مثّله لبنان خلال العصور ليلقى «أن في أفيائه اِستظلّت الشعوب ، على اختلاف الطوائف والمذاهب ، في طلب الحرية والأمان والاطمئنان » .

ويصل الى حركات التحرّر التي شهدها التاريخ الحديث : «وعرفت ، في سياق التاريخ العام ، كيف تحرّرت دول اميركا واستقلّت ، وبينها دويلات دون لبنان سكاناً ، كجمهوريات سلفادور وبناما والباراجواي .

وعرفت كيف تحررت ، في الامبراطورية العثمانية ، دول البلقان ، وفيها دول أصغر من لبنان ، كالجبل الأسود » .

ويختم السودا جوابه على السؤال الذي طرحه عن هويّة لبنان بالقول :

«هكذا عرفت من نحن .

وعرفت اننا لبنانيون ، واننا بإنتسابنا الى لبنان ، ننتسب الى ماضٍ رصّعته المآثر ، والى حاضر تحدو به الآمال .

وعرفت أن للشعوب الصغيرة — إسوة لها بالكبيرة — حقها في الحياة والاستقلال .

ونحن — وذلك تاريخنا — لماذا لا يكون لنا في لبناننا وطن . ودولة . وراية ؟

هاجس أرق ليالي صباي ، لا استغفاء على غار بل إحياء لتراث .

عقيدة حملتها رسالة نذرت لنشرها الحياة ....» (٢) .

تأثير انتفاضة مصطفى كامل في نفسه

يتمثّل العامل الثاني في نشأة عقيدة السودا اللبنانية في شخصية وحركة مصطفى

يصف السودا حالة الخمول والتواكل والتخاذل عند المصريين عندما هبّ مصطفى كامل يوقظ شعباً من غفوته :

«كان الشكون يخيّم على وادي النيل ، كأنها في سبات عميق ، والناس راضون بما قسم الله لهم في الاحتلال الانكليزي وفي حكم الخديوية ، الى أن ظهر في مصر فتى رفع راية الحرية ، وانشأ «الحزب الوطني» ، ونشر جريدة «اللواء» ، وبثّ في الشعب روحاً جديدة ، فالتفّ الشباب بلوائه ، وعلى صوته أفاقت مصر من رقادها العميق .

ذلك هو مصطفى كامل ، وقد كان ، سنة ١٩٠٦ ، في ذروة الجهاد وزهوه » .

ويذكر السودا أي أثر كان لموقظ مصر في نفسه :

«فراعني قيام ذلك الفتى في وجه الاحتلال يطالب بالجلاء والاستقلال ، وانكلترا في ذلك الزمن ، سيدة البحار ، لا تغيب الشمس عن امبراطوريتها العظيمة » .

وممّا أثار إعجاب السودا أنه «لم يكن لمصطفى كامل قوة يَستند اليها . لا سلاح في مصر ، لا بندقية ولا سيف ولا خنجر في حوزة المصري . إنما في نفس مصطفى كامل قوة العقيدة . قوة الحق . روح الاستقلال » .

وينتقل السودا الى التنويه بالأثر الذي احدثهُ رائد التحرر المصري في نفوس شعبه :

«بتلك العقيدة الوطنية الثائرة ، أيقظ مصطفى كامل شعب مصر ، ينشر مقالاته الرائعة ، ويلهب المنابر بخطبه النارية ، فتهتز الجماهير لصوته المدّوي على الضفتين ، فجمع المصريين على اختلاف المذاهب والنزعات في وحدة وطنية وثيقة الروابط ، ومشى الطلاب في مقدمة الشعب ينادون بالاستقلال وسقوط الاحتلال » .

الى أن يستعيد السودا صورة تأثراته في تلك المرحلة ، وقد كان في حدود الثامنة عشرة من سنّه :

«شهدت تلك الثورة سنتين ، فرأيت فيها مرأى العين ما كان يروى عن بطولات

الثوار في أميركا والبلقان ، حيث كان الفرد منهم يقود أمّة على طريق التحرّر والاستقلال » .

ويختم السودا بوصف شعوره عندما خر مصطفى كامل صريعاً ، وما كتبه بهذه المناسبة :

«هصَرت المنية غصن مصطفى كامل صريعاً في حلبة النضال ، قبل أن يرى علم الاستقلال يخفق في سماء بلاده .

اهتزّ الشرق لوفاة مصطفى كامل ، ومشى عشرات الالوف في مصر يشيّعون فتاها في غمرة الحسَرات والدموع ، ووقف حافظ ابراهيم على قبره ينشد ... وودّعه شوقي ... فدفعتني حميّة الشباب وتعشّق الاستقلال الى التعبير عن شعوري في مقالين نشرتهما جريدة «البصير» في ١٢ و١٥ شباط سنة ١٩٠٨ ، وقد جاء في المقال الأول :

«... نم قرير العين يا مصطفى . انت لم تمت ، بل أنت حيّ في قلب الشعب المصري الى الأبد ، يصون ذكرك فيه الحب والاعجاب . بل تحيا في قلب التاريخ حيث يقرن اسمك باسماء رسل الحرية ودعاة الوطنية . وإن لم يخلفك في مصر من يذود عن حياضها بإقدامك وذكائك ، فسيقوم فيها من يسيرون على الطريق التي اختطتها انت والفضل مرجعهُ اليك .. واذا قدّر لك يا مصر ان تري شمس الحرية تطل يوماً على أرضك ، فارجعي ببنيك الى ما وراء هذه الحياة ... وأريهم رسم مصطفى كامل أول شهيد قضى على مذبح الوطنية »[3] .

ولم يكن السودا ليدري يومئذٍ انه سينظر اليه يوماً كما نظر هو الى مصطفى كامل في ذلك الحين ، وهو يافع ، وانه سيمثّل الدور نفسه بالنسبة الى وطنه ، لكن بثقافة لم تتوفر للأوّل ، وبعمق فكري لم يكن لسلفِهِ .

أثر التسلّط العثماني

الى جانب الشوق الى معرفة « من نحن » وأثر حركة مصطفى كامل في مصر ، كان

عامل ثالث يفعل فعلهُ في نشأة فكرة السودا الوطنية ، ألا وهو التسلّط التركي وموقف الاتراك من بلاده .

انفجرت ثورة السودا ، للمرة الاولى ، في وجه السلطنة التركية بعسفها وجورها ، وهو بعد في العشرين من العمر ، أي عام ١٩٠٨ ، وذلك على أثر نيله شهادة الليسانس في الحقوق من جامعة باريس . وها هو يروي لنا في مذكراته «في سبيل الاستقلال » ، كيف جرى ذلك :

«سنه ١٨٧٦ جلس على سرير السلطنة عبد الحميد الثاني ، وقد عُرف بالسلطان الأحمر ، فرزحت في عهده الامبراطورية تحت أهوال الاستبداد وسفك الدماء ، حتى قامت ثورة الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ ، وارغمت السلطان على نشر الدستور ، فتنفست شعوب السلطنة الصعداء ، وتفجرّت في الامبراطورية براكين الانعتاق ، وعمّت البلاد التظاهرات اللاهبة تهليلاً للدستور وحماته .

وشارك المصريون شعوب الامبراطورية في افراحهم ، فاقاموا الحفلات والمهرجانات ، وتبارى الخطباء والشعراء في تنظيم الثورة وتمجيد قادتها الظافرين ، نيازي وأنور وشوكت . وردّد المتظاهرون مع حافظ قوله :

اذا لم يكن إلاّ نيازي وأنور ... فقد ملأ الدنيا نيازي وأنور

كما أنشدوا مع شوقي في القائد شوكت باشا الفاروقي :

«يا شوكة الاسلام بل ... يا فاتح البلد العَسير...»

ويتابع السودا كلامه ، الى أن يصل الى ذكر مناسبة الابتهاج لنشر الدستور في الاسكندرية ، حيث نفث عن كربته في الحملة التي شنّها على السلطان عبد الحميد ، فيحدثنا عن حفلة عارمة في هذه المدينة دعي اليها كبار الخطباء والشعراء ، ولم يكن له ذكر في لائحة المتكلّمين . لكن حماسةُ للثورة على عبد الحميد وأبطالها حملهُ ، وهو في زهوة الشباب ، على نظم قصيدة أزمع على إلقائها بأي ثمنٍ كان . «وافتتح الحفلة الدكتور نقولا فياض فهزّ القاعة والمنبر بالقائه قصيدته الرائعة التي مطلعها :

يا بني عثمان انتم أمة ... أصبحت موضوع إعجاب الامم ..

وعقب الدكتور فياض خطيب آخر تكلّم نثراً . وما أن نزل هذا الأخير عن المنبر حتى برز عليه السودا «دون استئذان» ، والقى قصيدة تطاول فيها على عبد الحميد ، قوطعت مراراً بالتصفيق والهتاف ، وكان ما يزال السلطان المذكور على عرش السلطنة ، مما جعل منظمو الحفلة يصفحون عن تجاوز السودا الشاب للبرنامج ..

وقد جاء في مطلع القصيدة :

«عبد الحميد ولم أقل خاقانا ... عبد الحميد ولا أريد مزيدا
دع عنك القاب الجلالة انها ... ابهى وانت مجرّد تجريدا
فلانت أقرب للقلوب مجردا ... من ان تكون مؤلّهاً معبودا
قل للجنود حيال قصرك يغمدوا ... أسيافهم فالشعب صار جنودا[٤] » .

هناك ايضاً الحرب اللاهبة التي شنّها السودا ، وهو فتىً ، على الدعوة في جريدة «المقطّم» ، سنة ١٩٠٨ ، الى التنازل عن امتيازات لبنان والانضمام الى الدولة التركية ، «بحجة أن المجال أوسع وأرحب لنشاط اللبناني في تلك الامبراطورية المترامية الأطراف » ،

وهناك موقف السودا من حركة مماثلة ترمي الى ضم لبنان الى الدولة العثمانية ، كان يمدّها الوالي التركي في بيروت بالمساعدات ويشجّعها المتصرّف يوسف باشا ، «عملاً بالتعليمات الواردة اليه من الاستانة » . فما كان من السودا الا أن جاء لبنان عام ١٩٠٩ ، وذهب الى بيت المتصرّف ، وطلب مقابلته . وما ان نقل إليه خبر قلق اللبنانيين في مصر من فكرة ضم لبنان الى الامبراطورية العثمانية وأملهم من دولته ، وهو الأمين على امتيازات لبنان ، وضع حدّ لهذه الدعاية ، حتى تجهّم وجه المتصرّف وصرخ بنبرة : «يجب أن تعلم إننا هنا ولاية عثمانية ، وأن على اللبنانيين واجبات في مثل هذا الوضع » . وقد استفزّ السودا هذا الجواب ، فردّ على المتصرّف بجفاء أيضاً : «انتّ هنا لست والياً تركياً . أنت مفوّض الدول الست لتحافظ على إمتيازات لبنان ، لا لتعمل على إلغائها »[٥] .

وهناك موقف السودا الثائر من خبر احتلال الجيش التركي للبنان في صيف ١٩١٠ ، فكتب في ذلك الحين الى الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، صاحبي «المقتطف»، بتاريخ ٢٩ — ٨ — ١٩١٠ .

«لبنان وطني ، وبلادي ، ومسقط رأسي ، فلا يمكنني أن أرى ما يُدبَّر لهُ من المكائد والدسائس لالحاقه بولاية بيروت ، أو ولاية سوريا ، ولا أرفع الصوت صارخاً ببني وطني وبالدول الضامنة ، ان انظروا الهاوية ....» . وقد أنكر الدكتوران على الرسالة عنفها وامتنعا عن نشرها ، وكان صروف في الثامنة والخمسين من عمره ، ونمر في الرابعة والخمسين ، والسودا في الثانية والعشرين (٦) .

هناك كل مواقف السودا الثائرة ضد النير التركي ومواجهتهُ لهُ ونضاله من أجل رفعه عن كاهل لبنان ، وهو بعد يافع ، مما سنعرضهُ في سياق دراستنا للرجل .

جميع هذه الأوضاع كان لها الأثر البليغ في نشأة السودا الوطنية .

الحواشي

(١) (١٨٩١ — ١٩٦٩) هو يوسف خليل السودا ، الأديب ، والقانوني ، والسياسي ، والصحفي ، والخطيب ، واللغوي ، والمؤرخ ، والمناضل . ولد في بكفيا ونهل الدروس الأولية في مدارسها والثانوية في جامعة القديس يوسف ، لينتقل ، من ثم ، الى وادي النيل يدرس الحقوق ويمارس المحاماة . انتخب نائبا عن المتن خلفا لنعوم اللبكي سنة ١٩٢٦ ، واصدر جريدة «الراية» ، بين عام ١٩٢٦ و١٩٤٨ . وبين ١٩٤٦ و١٩٥٢ قام باعباء سفارة لبنان في البرازيل ، ثم في الفاتيكان بين عام ١٩٥٣ و١٩٥٥ ، كما أسهم في وزارة رشيد كرامي الاولى عقب ثورة ١٩٥٨ .

أهم مؤلفاته :

— «نظام لبنان الأساسي وقرارات الدول» ، مصر ، ١٩١٠ .
— «في سبيل لبنان» ، الاسكندرية ، ١٩١١ ، مطبعة الأرز ، بيروت ، ١٩٢٤ .
— «المسألة اللبنانية والاتحاد اللبناني في القطر المصري » ، دار المعارف ، مصر ، ١٩١٠ ، طبعة ثانية ١٩١١ .
— «استقلال لبنان والاتحاد اللبناني في الاسكندرية» ، الاسكندرية ، ١٩٢٢ .
— «بين القديم والحديث» ، الاسكندرية ، ١٩٢٢ .
— منشورات «الراية» ، ١ ، افتتاحيات عام ١٩٣٧ ، و٢ ، افتتاحيات عام ١٩٣٨ ، طبعة سنة ١٩٣٨ .
— «رسالة الشباب» ، لجنة مؤلفات السودا ، ١ ، طبعة ١٩٥٦ .
— «في سبيل الاستقلال » ، ١٩٠٦ — ١٩٢٢ ، دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٧ .
— «تاريخ لبنان الحضاري » ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٢ ، طبعة ثانية ، دار النهار ، بيروت ، ١٩٧٩ .

Publication du «Front National», appel aux Libanais. le 15 décembre 1936.

Confessionnalisme et Patriotisme, conférence donnée en date du 25 juin 1956 par Mr. Joseph Saouda, ancien ambassadeur du Liban près le Saint-Siège; trad. de Mr. Hector Klat, consul général du Liban, Maison Rihani pour l'Impression et l'Edition, Beyrouth.

(٢) انظر كتابه «في سبيل الاستقلال ، المقدمة ، ص ١١ — ١٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦ — ١٩ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٩ — ٢١ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٥ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٤٣ — ٤٤ .

أركان العقيدة اللبنانية
عند السودا

إنّ عقيدة يوسف السودا القومية هي العقيدة اللبنانية التي يعتنقها اليوم مجموع القوميين اللبنانيين، من مفكرين ومثقفين، ساسة واحزابٍ وجماعات، مقيمين ومغتربين، وتشمل مراحل ثلاثة من حياته: مرحلة ما قبل إنشاء «لبنان الكبير» (١٩٠٩ — ١٩٢٠)، ومرحلة الوجود الفرنسي في لبنان (١٩٢٠ — ١٩٤٣)، واخيراً، مرحلة ما بعد الاستقلال (من عام ١٩٤٣ الى اواخر الاعوام الستينات)، وتؤلف كلها وحدة متكاملة، تطورت مع أوضاع لبنان الكيانية والسياسية، ولكنها، من حيث الجوهر، هي إياها: شخصية تاريخية وحضارية فذة للبنان، وكيان سياسي وجغرافي خاص قائم بذاته، ونشدان مستمر لمزيد من السيادة والاستقلال الفعلي الكامل، مع جهاد متواصل ضدّ مشاريع الوحدات المؤدّية الى اذابة لبنان في احضانها..

من مجموع ما كتبهُ السودا وما قام به من نشاط سياسي في الفترات الثلاث المذكورة يمكن استخلاص نظام فكري عقائدي لبناني كان وما يزال الأساس في ايديولوجية القومية اللبنانية، في عصرنا.

أبرز ما في هذا النظام سبعة عشر مرتكزاً تشمل حياة السودا السياسية ، وهي مرتكزات آمن بها الرجل ، ونذر نفسهُ لها وحياتهُ ، وسنحاول اكتشافها ، وتنسيقها ، والقيام بعمل تحليلي وتقييمي لها ، من خلال هذه الدراسة ، بالاستناد الى مؤلفاته وكتاباته .

المرتكز الأوّل :
الأساس الفينيقي للكيان اللبناني

للقومية اللبنانية ، في نظر السودا ، أساس تاريخي سحيق يعودُ الى الفينيقيين ، بل يتجاوزهم الى الانسان اللبناني الأول .

فلبنان لم يبصر النور بقرار من مؤتمر الصلح المنعقد في باريس عام ١٩١٩ ، ولا بقرار الجنرال غورو ، عام ١٩٢٠ ، ولا بارادة الدول المنتصرة في الحرب العالمية الاولى ، وفي طليعتها الدولة الفرنسية . وهو لم يولد بظهور الامير فخر الدين المعني الثاني ، ولا ببزوغ نجم الامير بشير الثاني الشهابي الكبير ، ولا بنشوء نظام المتصرفية لعام ١٨٦١ الذي ضمنته دول سبع . بل لا يمكن أن نؤرخه ببدء الفتح العربي فيه .

كان لبنان بظهور أول انسان بربوعه ، وأول أدوات استخدمها في معيشته ، كما سنرى ذلك بالتفصيل في عرضنا الأساسي الحضاري للعقيدة اللبنانية .

لكن «لبنان» الكيان السياسي الأول في التاريخ يعود الى ما قبل خمسة آلاف سنة .

وهنا المرتكز الأول لعقيدة السَودا : المزج بين اللبنانيين الأولين والفينيقيين . فتاريخ لبنان القومي القديم هو تاريخ فينيقيا بالذات .

ذلك أن فينيقيا القديمة هذه كانت «حيث يمتد اليوم لبنان بحدوده الطبيعية ، على وجه التقريب ، من عكا جنوبا الى ارواد شمالا»[١] .

نسبة اللبنانيين الى الفنيقيين

كيف يثبت السودا أن اللبنانيين الحاضرين هم أحفاد الفينيقيين ، مع ما يفصل بين العهدين من تاريخ مديد ، ومع ما يعتور بعض المدن الفينيقية ، كرأس شمرا عند اللاذقية وجزيرة ارواد من اشتراك بين التابعية السورية اليوم ، والتابعية اللبنانية في الامس ، ونظراً لكون عقيدة «سوريا الجغرافية» أو نظرية «القومية السورية» تعتبر الفينيقيين شعباً سورياً في جملة الشعوب السورية القديمة في المنطقة ؟

للبرهنة على أن الفينيقيين هم اللبنانيون القدماء دون سواهم ، يقدّم السودا الحجج الآتية[٢] :

١ — كانت السفن اللبنانية القديمة اذا ما أطلّت على الشواطىء الاغريقية ، وشراعها من اللون الذي أضفته الأسطورة على الطائر الاله «فينيق» ، المتجسد في قلب طائر يشبه النسر شكلا وحجماً ، يكسو عنقه وصدره ورأسه ريش أحمر ، وله عبادة خاصة عند الاغريق ، اذا ما أطلّت هذه السفن تراكض الناس هاتفين «فينيكس» «فينيكس» ، أي أحمر ! أحمر !

... وشاعت الكلمة في تلك المنطقة ، حتى عادت لا تعرف السفن اللبنانية ومن فيها الا بكلمة «فينيقيا» .

٢ — هوميروس في القرن التاسع يكرّس الكلمة في ملحمتيه الشهيرتين «الإلياذة» و«الاوديسية» حول حرب طرواده .

٣ — لم يكن هوميروس ليجهل أن كلمة «فينيق» هي لقب أطلق على أهل المدن اللبنانية ، فكان يستعمل على حد سواء الاسم أو اللقب ، فيقول : «فينيقيون» أو «صيدونيون» ، و«فينيقيا» أو «صيدا» .

٤ — أصبح كل من جاء بعد «الأوديسية» و«الالياذة» من كتاب وشعراء في الغرب لا يستعملون الا كلمة «فينيق وفينيقيا» في تعريف لبنان وبنيه ، أمثال سوفوكل[٣] في مسرحية «أوديب الملك» و«أوريبيد»[٤] في مسرحية «الفينيقيات» .

٥ — .... وحذا حذوهم الشعراء الرومان ، كهوراس[٥] في قصائده ، وفرجيل[٦] في «الالياذة» .

٦ — اطلقت الكلمة ، من ثم ، في الغرب ، على كل ما له علاقة بلبنان ومدنه ومهجره . فقيل «الحروف الفينيقية» ، أي أحرف الهجاء التي وضعتها جبيل . وقيل «النجمة الفينيقية» ، والمقصود نجمة القطب التي اكتشفها الملاّح اللبناني . وقيل «الحرب البونية» ، أي الفينيقية ، اشارة الى الحروب التي وقعت بين روما ومهاجري لبنان القرطاجيين .

وفي كل ما تقدم يستند السودا الى كتاب فكتور بيرار «الفينيقيون والأوديسية»[٧] والى جورج كونتنو في كتابه «الحضارة الفينيقية»[٨] (خاصة ، ص ٦٥) .

٧ — حين كان الغرب يستعمل عبارة شعراء «فينيقيين وفينيقيا» ، وهو يقصد «لبنانيين ولبنان» ، لم يكن أحد في المشرق يستعمل هذه الكلمة ، بل كان الجميع في مصر وسوريا وما بين النهرين يقولون — على ما تثبته الحفريات — «لبنان» ، إذا كانوا يعنون هذه البلاد ، ويقولون «جبيل» ، «صيدا» ، و«صور» أو «جبيليون» و«صيدونيون» و«صوريون» ، إذا ما قصدوا التخصيص .

المصريون كانوا يسمون السفن «مراكب جبلة» ، أي جبيل . ولم ترد عندهم كلمة «فينيقيا» و«فينيقيين» .

٨ — التوراة التي ترجع مع موسى الى عام ١٢٠٠ ق . م . ، وتصل مع النبي حزقيال الى القرن السادس ، قبل المسيح ، ورد فيها ، عشرات المرات ، ذكر لبنان وجبيل وصيدا وصور والارز ، ولم تعرف طوال تلك المدة في أسفارها كلمة «فينيقيا» و«فينيقيين» .

إذن ، كلمة فينيقيا و«فينيقيين» ، بحسب السودا ، لقب ردده الغرب ، بعد هوميروس ، عن لبنان واللبنانيين ، والمدن الفينيقية ، واقتصر إستعمال اللقب على الغرب .

البرهنة على كون الفينيقيين هم اللبنانيون الأولون ما سواهم ، كونهما اسمان لشعب واحد ، ترد للمرة الأولى في الفكر القومي اللبناني . وفيها يردّ السودا على الفكرة القائلة بأن الفينيقيين هم أجداد السوريين الحاليين والفلسطينيين ، الى جانب اللبنانيين ، كما يذهب في ذلك بعض المؤرخين وبعض الاحزاب العقائدية .

من أين جاء الفينيقيون ؟

المسألة الخطيرة الثانية التي يدور حولها النزاع في الرأي هي مسألة أصل الفينيقيين . فيها يردّ السودا ، أيضاً ، وإن مداورة ، على الزعم القائل بأن الفينيقيين نزحوا من شبه الجزيرة العربية وشواطىء البحر الأحمر ، خلال موجات النزوح التاريخية عن هذه المناطق .

من الذين زعموا ، بين القدماء ، أن الفينيقيين قدموا من مناطق الخليج الفارسي ، المؤرخ الاغريقي هيرودوتس حوالى (٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م .)[٩] والجغرافي الاغريقي سترابون Strabon [١٠] . ومن الذين زعموا ذلك من الحديثين ، ايبرهارت شرادر (Eberhardt Schrader) وكيتيني (Caetani) وا . ت . كلاي (A.T. Clay) ، وخاصة اغنازيو غيدي (Ignazio Guidi) وس . موسكاتي (S. Moscati)[١١] .

فمن أين جاء الفينيقيون ؟

يقول السودا ، إنّه بعد أن تبيّن أن كلمة «فينيقي» ليست اسماً ، بل صفة تعني «أحمر» ، ولقباً يقصد فيه أبناء المدن اللبنانية دون سواهم ، بعد هذا ، لم يبق معنى للتساؤل : «من أين جاء الفينيقيون ؟» . فهم جاؤوا من لبنان ، من صيدا ، من صور ، من جبيل ، من ارواد .

الى ذلك ، يضيف السودا حججاً تدعم الأصل اللبناني للفينيقيين ، نثبتها فيما يلي :

١ — لم يرد في أية بقعة من بقاع الأرض ولا في أي تاريخ ، ذكر لبلاد اسمها «فينيقيا» أو لقوم اسمهم «فينيقيون» ، قبل أن يطلق الاغريق الكلمة على أهل المدن اللبنانية .

٢ — في الاساطير التي تداولها الاغريق من قديم الزمان وجعلها شعراؤهم ، فيما بعد ، مواضيع لمسرحياتهم أيضاح لماكان يفهمهُ الاغريق بكلمة «فينيقيا» و«فينيقيين» . فقد وضع شاعرهم أوريبيدس (Euripide) مسرحية ، بعنوان «الفينيقيات» ، ورد فيها ما كان متعارفاً على كل العصور أن من يسَميهم الاغريق «فينيقيين» قد جاؤوا من صور أو صيدا من لبنان .

فقد وجّه ابطال المسرحية الى الجوقة القادمة الى بلادهم من صور هذا السؤال :

«ايتها الغريبات من أنتنّ؟ ومن أي وطن جئتنّ الى منزل إغريقي ؟» .

فأجابت رئيسة الجوقة قائلة : «ان فينيقيا هي الوطن الذي غذّاني .. تركت مياه صور وغادرت الجزيرة الفينيقية في تقدمة الى الإله فوابوس» .

٣ — يقول السودا إنّه اذا كان السؤال يعني من اين جاء أهل لبنان الذين الصقت بهم صفة «الحمر» أو الحمراء» فالجواب أن لبنان كان آهلاً بالسكان منذ عشرات الالوف من السنين ، كما أثبتت الحفريات ، وأخصّها حفريات جبيل القائمة على أثنتي عشرة طبقة متراكمة ، وكذلك حفريات انطلياس التي كشفت عن هيكل الصبي الذي يرجع تاريخه الى خمسة وثلاثين الف سنة قبل المسيح .

٤ — أما في ما خص قضية العنصر فليس في العالم بلد واحد صفا عنصره من أي مزيج أو اختلاط[١٢] .

بقي أن محاولة السودا الخطيرة في نسبة الفينيقيين الى أصل لبناني والى الأرض اللبنانية ، قبل نشوء المدن الفينيقية وحضارتها ، ليسَت رداً على القائلين بنزوح الفينيقيين من شبه الجزيرة العربية وشواطىء البحر الأحمر ، من مؤرخين وباحثين قدماء ومحدثين فحَسب ، بل هي ردّ أيضاً على المؤرخ فيليب حتي نفسه الذي زعم بأن الفينيقيين عرب من حيث أصل نشوئهم ، أو ساميون يجمعهم بالعرب العرق السامي[١٣] .

لا بد من الإشارة ، من ثمّ ، الى أن هناك مفكراً قومياً لبنانياً آخر طعن في سامية اللبنانيين وحاول تبيان تعدّدية الأعراق والأجناس التي ينتمي اليها الشعب اللبناني ، خلال التاريخ ، الا وهو ميشال شيحا ، وذلك في كتابه « لبنان في شخصيته وحضوره »(١٤) .

الحواشي

(١) «في سبيل لبنان» ص ١٣
هذا الكتاب طبع ونشر في لبنان والجاليات اللبنانية قبل انعقاد مؤتمر الصلح ، وتطوع لترجمته الى الفرنسية ، ولتوزيعه وترويج دعوته هكتور خلاط وميشال شيحا والشيخ بشاره الخوري .

(٢) «تاريخ لبنان الحضاري»، ص ١٢ — ١٧ .

(٣) (Sophocle) (٤٩٥ — ٤٠٥ ق . م .) شاعر اغريقي لمع في مسرحياته ، ومن بينها «انتيفونة» و«اوديب الملك» التي نقل طه حسين قسما منها الى العربية .

(٤) (Euripide)(٣٤٨٠ — ٣٤٠٧ ق . م .) ثالث أكبر شاعر يوناني حلل النفسيات في تمثيلياته «اندروماك» و«المترجيات» و«الطروداديات» و«الفينيقيات» و«الكترا» .

(٥) (Horace) (٥٦ — ٨ ق . م .) شاعر لاتيني عاش في العصر الذهبي . من آثاره «رسالة في فن الشعر و«الهجائيات» .

(٦) (Virgile) (٧١ — ١٩ ق . م .) أهم شعراء روما . من آثاره «الرعائيات» (Bucoliques) و«الفلاحيات» (Georgique) وملحمة الإلياذة (Enéide)

(٧) Victor Bérard, *Les Phéniciens et l'Odyssée*. T. II, Paris, 1927.

(٨) Georges Contenau, *La Civilisation Phénicienne*, Paris, 1949.

(٩) راجع : Hérodotus, History, K. VII, ch. 89, in Arnold J. toynbe, *Greek Historial Thought* (London, 1924), pp. 5-6.

— وضع هيرودوتس تواريخه في تسع كتب ، وتاريخه ، بوجه عام ، أقرب الى الادب والاسطورة منه الى التاريخ الدقيق والعلمي أنظر :

Historiens grecs, Hérodote, Thucydite, Coll. la Pléiade, Gallimard.

(١٠) المولود نحو العام الستين ق . م . (راجع :

Strabon Geography, BK. XVI, ch. III, sec. 4)

وضع سترابون مؤلفه الجغرافي في ١٧ كتاباً يوجز في مضمونها معلومات اليونانيين والرومان الجغرافية . أنظر :

Strabon Géographie, Ed. Belles Lettres (17 vol.).

(١١) أنظر :

Sabatino, Moscati, *Histoire et civilisation des peuples sémitiques*, Paris, 1955;
L'épopée des Phéniciens, trad. de l'italien par C. Saba, revue par Arcelin, Faillard, 1947.

راجع أدمون رباط في إشارته الى أصل الفينيقيين :

Edmond Rabbath, *La formation historique du Liban politique et constitutionnel*, publ. de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1973, pp. 147-148.

(١٢) «تاريخ لبنان الحضاري» ، ص ١٧ — ١٨ .

(١٣) أنظر كتابه : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» ، الجزء الأول ، المطبعة البولسية ، حريصا ، ١٩٥٨ ، ص ٨٥ وما يليها .

(١٤) في (*Liban d'aujourd'hui*) ، بيروت ١٩٤٠ ، نقله الى العربية فؤاد كنعان في منشورات الندوة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٢ (أنظر ص ١٧ — ٣١) .

المرتكز الثاني

الأساسَ التاريخي المدوَّن لاسم لبنان وأرزه

بعد أن حاول السودا تبيان الأساس الفينيقي للبنان ، حاول أن يبيّن أن لإسم لبنان أيضاً أساس تاريخي ، وكذلك لأرزه . وبذلك ندخل المرتكز الثاني من عقيدة السودا القومية .

إذا كان لبنان القديم ، بحسَب السودا ، يغلب عليه اسم «فينيقيا» ، منذ نحو الخمسة آلاف سنة قبل المسيح ، فاسم لبنان نفسه ليس أقلّ عراقة . وحجة السودا في ذلك كون اسم لبنان وأرزه ، الذي هو شعار لبنان ، هما في كتاب «التوراة» ، وهو أقدم تاريخ مكتوب ، يرقى مع موسى الى سَنة ١٢٠٠ ق . م . ، ويستمرّ مع الأنبياء الى القرن الخامس .

وها هو السودا يعرض لنا ، أولاً ، الآيات التي نزل فيها اسم لبنان في الأسفار :

— في سفر الملوك الثالث : «ويحمل الملك سليمان أيضاً ثلاثمئة مجن من ذهب ، مطروق للمجن الواحد ثلاثمئة مثقال ذهب ، وجعلها الملك في بيت غابة لبنان» (ف ١٠ عد ١٧) .

— في نشيد الأناشيد : «شفتاك تقطران شهداً ، أيتها العروس ، وتحت لسانك

عسَل ، ولبن ، وعرف ثيابك كعرف لبنان» (ف ٤ عد ١١) .

— جاء في هوشع : «وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان» (ف ١٤ عد ٧) .

— فيَ سفر تثنية الإشتراع : «فتحولوا ، وارتحلوا ، وأدخلوا جبل الاموريين ، وكل ما يليه من القفر ، والجبل ، والسهل ، والجنوب ، وساحل البر ، أرض الكنعانيين ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات » (ف ١ عد ٧) .

«كل موضع تطأه أخامص أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان، من النهر، نهر الفرات الى البحر الأقصى يكون تخومكم » (ف ١ عد ٧) .

— في ما قاله يشوع : «من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير، نهر الفرات جميع أرض الحثيين ، والى البحر الكبير الذي في وجهة مغارب الشمس تكون تخومكم » (ف ١ عد ٤) .

بعد عرض هذه اللائحة من الاسفار التي ذكر فيها اسم لبنان ، ها هو السَودا يورد الآيات التي تغنت بها التوراة بأرز لبنان. فيرى أنه «على قيثارة داود ، في أناشيد سليمان ، وعلى أوتار أرميا وأشعيا وحزقيال ، كانت عروس الشعر لبنان وأرز لبنان » .
ويسترسل السودا في ذكر تغني الأنبياء بهذا الشعار «المقدس» الذي يؤلّف ولبنان توأمين :

— «قد أوتيت مجد لبنان» (اشعيا ، ف ٢٥ عد ٢) .

— ساقاه عمودا رخام ، موضوعان على قاعدتين من أبريز ، كلبنان هو مختار كالارز» (ف ٥ عد ١٥) .

— «الصديق كالنَخل ، ومثل أرز لبنان ينمو» (داود في مزاميره ، ف ٩١ عد ١٢) .

— هكذا قال السَيد الرب أن النسر العظيم ذا الجناحين العظيمين ، الطويل القوادم الممتلىء ريشاً ، الكثير الألوان ، قد أتى لبنان ، وأخذ ناحية الأرز» (حزقيال ف ١٧ عد ٣) .

— « في الجبل العالي أغرسه ، فينشأ أفنانا ، ويثمر ثمراً جليلاً ، فيأوي تحته كل طائر . كل ذي جناح يأوي في ظل اغصانه» (حزقيال ف ١٧ عد ٢٢) .

هذا قليل من كثير مما أورده السودا في هذا المجال [1] .

لكن ، في جميع هذه الآيات ، سوى التي تضمنت منها لفظة «لبنان» أو عبارة «الأرز» ، لا دلالة قط على أن ثمة لبنان سياسي أو حتى بشري ، بل تَسود هذه المقاطع جميعا فكرة الغابات والأشجار والجبال والقمم والأنهار والعيون والطيور وسواها من عناصر الطبيعة .

فقد يطلق اسم «لبنان» في هذه الآيات وغيرها على مكان ما من الطبيعة ، أو من أرض المنطقة ، ويكون ، بالتالي ، هذا الاسم ، مجرّد تعبير جغرافي ، خاصة ، وقد وردت لفظة «لبنان» بجانب كلمات «الأرز» و«العرف» و«الرائحة» و«البرية» و«الغابة» [2] .

والسَودا نفسه يذكر ، في مكان آخر من كتابه «تاريخ لبنان الحضاري (ص ٢٣) ، بأنه «كانت غابات الأرز تغطي قمم لبنان ، وتمتد الى مساحات شاسعة ، فلا تكاد تقطع أشجار في منطقة ما حتى تنبت أشجار جديدة في منطقة أخرى» . غير أن هذا القول لا يدل على أن لبنان كان مجرداً من العنصر البشري ، أياً كانت الحقبة التاريخية التي تكاثفت فيها هذه الغابات في الارض اللبنانية .

ثم إنّ التوراة ترقى الى الـ ١٢٠٠ ق . م . ولبنان كان يسكنه الانسان القديم منذ نحو الخمسين ألف سنة ، مع «انسان» إنطلياس ، ثم من الفينيقيين ، منذ نحو الخمسة آلاف سنة ، فهل يعقل الا يكون ماهولا بالسكان الأدميين في أيام كتابة التوراة ؟

من هنا استطاع السودا أن يبين تلازم إسمي لبنانِ والأرز وقدمها تاريخيا ، بل اعتبار «الأرز شعار لبنان منذ القديم .

لكن في حال قُصد بكلمة «لبنان» الكيان البشري ، فأي لبنان هذا الذي تتحدث عنه التوراة ؟

إن المؤرخين العرب أنفسهم ، وقد جاؤوا فقط منذ الفتح العربي ، اختلفوا في تحديد

هذا البلد وفي تعيين موضعه .

إن أضبط العرب تحديداً للبنان هو أبو الفداء[٣] صاحب حماة . فهو ، من جهة ، يميّز «لبنان» عن «جبل دمشق» ؛ ومن جهة أخرى ، يجعله بازاء جبل الثلج ، يمتد الى شرقي طرابلس ، فاذا تجاوزها عرف بجبل عكار .

والتعريف نفسه للبنان أتبعه القلقشندي[٤] .

وكذلك المقدسي[٥] الذي يجعل لبنان جبلا ساحليا ، يشرف على صيدا وطرابلس .

فأي «لبنان» تتكلم التوراة عن أرزه؟ هل ثمّة موقع آخر في نحو الـ ١٢٠٠ عاما ، قبل المسيح ، دِعي بهذا الاسم ومن شجره شجرة الأرز ، تعنيه الآيات التوراتيَة ؟

إن المقارنة بين «أرز لبنان» في التوراة والأرز الحالي ، في لبنان اليوم ، تفصل ، بصورة نهائية ، في هذه النقطة القابلةِ للالتباس ، وتضع حدا لغموض التاريخ وتباين المؤرخين العرب في تعريف مكان هذا البلد .

فإن نسبة أرز التوراة الى «أرز» «لبنان الحاضر» ، لبنان الحقيقي ، هي نسبة صحيحة وثابتة بحسب الأب لامنس ، وذلك لأسباب يوردها المؤرخ البلجيكي على الشكل الآتي :

(١) كون المذكور في الاسفار المقدسة هو أرز لبنان ، أمر معروف . تشهد بذلك تسميته العبرانية والعربية والتي لم تختلف منذ القدم حتى اليوم .

(٢) يوافق أرزنا الذي نعرفهُ ما جاء فيه من أوصاف في الكتب المنزلة لهذا «الارز» ، عند أشعيا وحزقيال ، مثل امتداد أغصانه الوارفة الظل ، ورائحته الرفيجنية التي تعطّر الأرجاء ، وحسنَهِ ، ووفرته .

(٣) إن الفينيقيين نقلوا أخشاب هذا الأرز الى سواحلهم بحراً ، واتخذهُ الفراعنة لابنيتهم الفخمة ، كالقصور الملكية والهياكل الدينية ، ومثلهم السلوقيون في سوريا الذين اصطنعوا منهُ أساس بيوتهم ، لعدم فسَاده[٦] .

وأياً كان الأمر ، فاننا لا نعرف مفكراً لبنانياً أو عربياً ، قبل السودا ، استعان بالتوراة لتبيان عراقة اسم لبنان وأرزه ، بل لا نجد باحثاً نقّب عن كل هذه الآيات التي لها علاقة بلبنان في كتاب «العهد القديم» .

الحواشي

(١) «لبنان الحضاري» ، ص ٢٣ — ٢٧ .

(٢) هذا ما أشار اليه انطون سعاده أحد مؤسسي عقيدة «القومية السورية» ، لدى محاكمته من قبل السلطات اللبنانية ، وقبل لفظ حكم الاعدام بحقه .

(٣) عماد الدين اسماعيل المؤيد (١٢٧٣ — ١٣٣١) من علماء الجغرافيا العرب . له «تقويم البلدان» و«المختصر في أصول البشر» (١٣٣١) . في الكتاب الأول وصف للبلاد الاسلامية .

(٤) (أحمد) (١٣٥٥ — ١٤١٨) ، نسبة الى قلقشندة (مصر) . عالم وأديب عربي . له «صبح الاعشى في صناعة الانشاء» ، ويتضمن معارف عامة وجغرافية وتاريخ سورية ومصر خاصة .

(٥) (ابو عبدالله) . عاش حوالي عام ٩٨٥ . جغرافي عربي مشهور . طاف في كل بلاد الاسلام . له «احسَن التقاسيم في معرفة الأقاليم» .

(٦) أنظر : «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» للأب هنري لامنس ، ج ٢ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩١٤ ، ص ١٣٦ .

المرتكز الثالث :

الأساس الحضاري للبنان

المرتكز الثالث لعقيدة السودا القومية هو تاريخ لبنان الحضاري الذي يصبّ في الحضارة الفينيقية .

لا ينشأ وطن ، بحسب السودا ، دون تراث وراءه . ويكاد مفكرنا يقصر هذا التراث على البقعة المنبسطة من الناقورة الى النهر الكبير في حقبة تعود الى نحو الخمسة آلاف سنة ، متجسدا بالحضارة الفينيقية . «إن فينيقيا هي التي علّمت الأمم ومدنت الشعوب وما اليونان الا عيال عليها علما وأدبا »[1] .

تراث ما قبل فينيقيا

أما تراث ما قبل العهد الفينيقي فيتناول إستيطان الإنسان لبنان منذ أقدم الأزمنة . لكأن مجرد وجود الانسان في هذه المنطقة هو ، بنظر السودا ، حدث حضاري . إذ الانسان موجد الحضارة . لقد جاء هو أولاً ثم أتت بعده وبواسطته ومن أجل خدمته . وبغية إثبات هذا الأمر يستشهد السودا بآلاف الأدوات المكتشفة قرب نهر أدونيس ، والتي ترجع الى نحو مئة ألف سنة ما قبل التاريخ المكتوب ، منها ضرسان أخذهما

للأنسان النيادرتالي ، أي قبل سعبين ألف سنة ، والآخر ينتمي الى نوع وحيد القرن الذي انقرض من لبنان .

ويتحدث السودا ، من ثم ، عن التطور الثوري للإنسان في هذه المنطقة من الشرق ، في انتقاله من العصر الحجري الاول ، الى المتوسط ، فالحديث ، وفي قفزه من مرحلة العيش على الصيد الى مرحلة الزراعة وتربية المواشي .

لكن هذا التطور الذي يستعرضه السودا يمسي في غاية الخطورة ، في فترة انتقال الانسان بعد منتصف الألف الرابع قبل المسيح ، من مرحلة التنظيم العائلي أو القبلي الى مرحلة التنظيم السياسي ، حيث تشاد المدن وتقام الممالك . هنا يبدأ تاريخ جديد هو تاريخ الانسان المجتمعي ، بل التاريخ السياسي .

وحتى مرحلة تأسيس الدول هذه لم تكن قد ظهرت بعد مؤسسات الفينيقيين التي سيعتمد عليها السودا ، بصورة خاصة ، في إنشاء عقيدته اللبنانية . بل ها هو يعترف بتواضع العالم المدقق ومنهجية الباحث المجرد من الهوى بأن «سومر» و«أكاد» كادا يكونان المجتمعين البشريين المنظمين الوحيدين حتى فجر الالف الثالث قبل المَسيح ، وان مركز فينيقيا الحضاري يأتي زمنيا في المرحلة الثالثة . المركز الاول لسومر ، ولأكاد الثاني (٢) .
ومن المفيد أن نشير الى أن أسبقية سَومر هذه ركن من أركان العقيد القومية السورية ، يشيد معه أتباعها بالحضارة السومرية ، ويتغنون بتراث ما بين النهرين كاعرق تراث عرفته المنطقة الشرق أوسطية .

تجدر الاشارة ، أيضاً ، في فضل السودا باستيعاب تاريخ المنطقة القديم ، حقبةً فحقبةً ، لاسيما على الصعيد الحضاري ، وفضله في الافادة من التاريخ القديم القديم للانسان اللبناني ، لتأريخ حضارته ، وذلك قبل بلوغ هذه الحضارة العهود الفينيقية ، خاصة الأخيرة منها ، التي هي ، بنظر السودا ، في أساس تاريخه الحضاري .

مقومات الحضارة الفينيقية :

ثمّ إنّ عرض السودا لهذا التراث الفينيقي الذي ترتكز عليه القومية اللبنانية والذي يبرر

به انشاء «لبنان الكبير» بعيد عن النفس الملحمي والجو الشعري . انه الى الوصف الاحصائي والعلمي أقرب .

أضف الى ذلك بأن السودا يذكر اسماء في الحضارة الفينيقية ، ويسرد وقائع ، ويذكّر بامجاد ، ويورد مواهب واقتدارات قام بها شعب أوعرف بها ، لم يتعد استيطانه الرقعة التي ندعوها اليوم ب «الجمهورية اللبنانية» ، إلا قليلا خاصةً في ما خص الجهة الشمالية من هذه «الجمهورية» ، والمعطيات التي يوفرها لنا أمست ، من الوجهة التاريخية ، حقائق نهائية ، لا مجال بعد اليوم لمناقشتها .

حضارة جبيل وصيدا وصور ورأس شمرا

يتكلم السودا ، مثلا ، عن جبيل وحضارتها ، مستندا الى جورج كونتنو في كتابه «الحضارة الفينيقية» (٣) . ومع اعتراف السودا بأسبقية سومر الحضارية على جبيل ، فهو يوضح بأن هذه المدينة الاخيرة هي التي نقلت ، فيما بعد ، الحضارة السومرية الى مصر ، كما نقلت اليها معتقداتها وآلهتها الجبيلية . وفي هذا ردّ مفحم للعقيدة القومية السورية التي تتغنّى بحضارة سومر في «سوريا الطبيعية» .

ويذكر السودا ، في وصفه حضارة صور ، واحداً من أشهر علمائها ، مارينوس الصوري الذي اكتشف خطوط العرض والطول ، وخط مواقع المسافات التجارية على الخريطة ، وضبطها علميا في القرن الميلادي الاول .

ويتحدث السودا عن حضارة صيدون ، وحضارة بيروت ، وحضارة طرابلس .

ويعرض الديانات الفينيقية القديمة في لبنان .

يستعرض الأدب الفينيقي في رأس شمرا ، من آثارحفريات أوغاريت ، الى آثار الشاعر تابيون الى المؤرخ سنكياتون ، (عبر فيلون الجبيلي) ، في الالف الثاني قبل المسيح ،

يورد أهم الملاحم . ملحمة «البعل» و«عليان» القائمة على الصراع بين «اله الصيف» و«اله الشتاء» وملحمة «صراع كرت» ملك صيدون .

يتطرق الى البحوث العلمية الفينيقية في النثر ، ومنها ما يتناول أمراض الخيول وطرق معالجتها ؛ يشيد بالأساطير الفينيقية : أُسطورة قدموس وفتح أوروبه .. اسطورة عربا وقدموس ، أسطورة أدونيس وعشتروت . أسطورة الارجوان . اسطورة نهر الكلب .

يقحم السودا في لائحته الوصفية المجد العسكري الفينيقي : قرطاجة هملقار . هنيبعل. يتغلغل في الطاقة الاقتصادية الجبارة عند الفينيقيين : الاسطول التجاري اللبناني . مرافق جبيل وبيروت وصيدا وصور. التجارة الفينيقية بين الشرق والغرب . النقد الفينيقي ، الصناعة الفينيقية ، صناعة الحديد وبناء السفن . صناعة الزجاج الشفاف . صناعة الخزف . صناعة التعدين .

ولا يغفل السودا ذكر الصناعة الأبعد أثرا في التاريخ الانساني : حروف الهجاء ؛ ولا يسهى عن اكتشاف البوصلة موجّهة السفن — والمتوسط بركة فينيقية — ليبلغ عصر لبنان الروماني والبيزنطي حيث مجد مدرسة بيروت الحقوقية العالمية[٤] .

يتكلم عن هذه الحضارة الهائلة وكأنها الوحيدة التي عرفها لبنان ، وهي ذاتية ، منفصلة عن أية حضارة اخرى مجاورة . متكاملة . متميزة عن سائر الحضارات الشرقية السامية منها وغير السامية . مستمرة في عهد روما وباقية في عصر بيزنطا . مع اننا لا نرى لها من أثر في كتابه تاريخ «لبنان الحضاري» منذ الفتح العربي لسواحل لبنان وللمنطقة .

وكتاب السودا في نسبته الحضارة الفينيقية الى اللبنانيين الأولين ، وفي قصر تاريخ لبنان الحضاري عليها ، أشبه بـ «الجبل الملهم» (La Montagne Inspirée) لشارل قرم[٥] . الا أن الاول أكثر عقلانية وأبعد روحاً علمية ، لتأخر زمن وضعه ، وبوصفه ضرباً من البحث ، بينما يبدو «الجبل الملهم» بحرا هائجا تطفو على سطحه رغوة من الرومنطيقية ، وتغمر سفوحه سيول من العاطفة الجياشة ، وتحرّك أشرعته رياح عاتية لا تبقي ولا تذر. غير أن الأثرين معاً يفصلان بين لبنان وجيرانه ، سياسة وحضارة ، هويةً وكينونةً ، وفيهما معاً لبنان «كل» مستقل ، «ووحدة» قائمة بذاتها في التاريخ ، وكيان فذ .

ومع ذلك يعترف السودا ، خاضعاً لمعطيات التاريخ ، مرة أخرى ، بأنّ مجتمع مصر مهّد بدوره مع الحضارة البابلية والاشورية ، لانطلاقة لبنان وفلسطين ، ثم

سوريا ، الحضارية .

الا أن هذا الإقرار لا ينال من إيمان السودا بأن الحضارة الفينيقية أبعد حضارات العالم القديم أثراً ، وأوسعها حجما ، وأهمّها كماً وكيفاً ، حتى بالنسبة الى أثينا نفسها . بل إن هذه الحضارة في معتقده ، هي مبرّر وجود لبنان السياسي والكياني ، الى جانب الحرية .

وطبيعي ، أن تراث سومر، وتراث أكاد ، وحتى تراث اللغة العربية وآدابها ، وتراث الفتح العربي وأمجاده ، وعصوره الادبية الذهبية ، بين الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر ، حيث تضاعف وتكاثف اسهام اللبنانيين في النهضة الثقافية العربية الحديثة ، كل هذا التراث لا يدخل ، من ثم ، كما يبدو ، في نطاق حضارة لبنان ، بنظر السودا .

الا أنه لا بد من الاشارة الى أن هذا التشديد على الحضارة الفينيقية وهذا التوسع في «فينقة» اللبنانيين الاقدمين ، عرفهُ يوسف السودا ، بالاخص ، في الاعوام الستينات من هذا القرن ، فعبّر عنهُ بادبٍ رفيع في كتابه «تاريخ لبنان الحضاري» . لكن هذا التيّار الفكري القومي كان قد وضع حجر الزاوية في صرحه الشاعر اللبناني شارل قرم ، منذ ولادة مجلته «المجلة الفينيقية»[٦] ، وخاصةً ، بظهور ديوانه «الجبل الملهم» ، الذي أُحدث ضجة كبرى في حينه وولّد مدرسة عقائدية .

وقد راحت المدرسة عينها ترتكز ، منذ السنوات الاربعينات ، مع الشاعر سعيد عقل وتلامذته ، على أسس علمية وتاريخية وفلسفية ، متوسعة ، متعمقة ، باستمرار ، في ابراز معالم الحضارة الفينيقية وأثرها في الفكر والحضارة الانسانيين ، خاصةً في الأبحاث التي قامت بها ميّ المرّ ، فاضافت الى هذه القضية حقائق وتوضيحات وشروحات في غاية الخطورة ، وما تزال مواصلة مسيرتها في تصاعد متواصل[٧] .

الحواشي

(١) «في سبيل لبنان» ، ص ١٦ .

(٢) «تاريخ لبنان الحضاري» ، ص ٣٣ و٣٤ .

(٣) Dr Georges Contenau, *La civilisation phénicienne*, Paris, 1949.

(٤) «تاريخ لبنان الحضاري» ، ص ١٠١ وما يليها .

(٥) (La Montagne Inspirée) طبعة أولى ، ١٩٣٢ عن منشورات «المجلة الفينيقية .

(٦) (La Revue Phénicienne) تأسست في بيروت عام ١٩٢٠ .
أنظر :
Charles Corm, *La Montagne Inspirée*, Beyrouth, Ed. de la Revue Phénicienne, 1964.

(٧) راجع جريدة «لبنان» التي تصدر عن المدرسة المذكورة ، ويتولّى رئاسة تحريرها الشاعر سعيد عقل ، وتُكتب باللغة اللبنانية ، وتبحث فيها ميّ المر في موضوع تاريخ لبنان الفينيقي على ضوء آخر الاكتشافات التاريخية والاركيولوجية ، كما أنه من جملة محرريها الشاعر ، باللغة اللبنانية ، موريس عواد ، والأديب المهندس الفريد المر والشاعرة ميّ منصور.

المرتكز الرابع :
الأساس الجغرافي للبنان

اذا ما أخذ السودا التاريخ أساساً للبنان الشعب والأرض والاسم والأرز فقد استند ايضاً الى الجغرافية التي أسهمت في صنع شخصيته ، إذ يجب الأخذ بعوامل أخرى ، الى جانب العراقة والحضارة والتاريخ ، خلّفت أبلغ الأثر في تكوين لبنان ، الا وهي : التربة والسماء ، والماء والهواء ، أي العوامل الطبيعية التي تعمل في تطور الشعوب[1] وقد شكلت هذه العناصر المرتكز الرابع للقومية اللبنانية عند السودا .

فالسودا يرى أن ميزة لبنان الجغرافية الاولى التي اسهمت في دوره التاريخي والقومي والانساني ، هي في موقعه . وميزته الثانية هي في مناخه . وميزته الثالثة هي في تركيبه الطبيعي .

ويعبّر السودا عما مثّله هذا الأساس الجغرافي للبنان ، على الصعيد الانساني ، وضمن اطار الحريات العامة ، على مدَى العصور ، بقوله :

«فكأنه (أي لبنان) خلق ليكون قلعة على المتوسط . لقد هيأته العوامل الجيولوجية الفريدة ليكون مركز التقاء الشعوب المظلومة ، المتعطشة الى الحرية · فرق وشيع ، مسيحية واسلامية ، مضطهدة ، لجأت اليه دوما . وكم من ناسك نصراني أو ولي

مسلم ، على حد قول المقدسي[٢] ، وجد في مغاوره وكهوفه ملاذا » .

الى أن يخلص السودا من ذلك الى القول : «وهذا ما يفسر تمازج الشعوب فيه وانصهارها على الزمن في بوتقة الولاء للأرض الرحوم »[٣] . الا أن السودا لا يوضح أية شعوب انصهرت ، ومتى تم ذلك ، ربما للاسباب نفسها التي حالت بينه وبين الدخول في تفصيل خصائص لبنان الجغرافية .

بقي أن نلاحظ بأن المحاولة الاولى في معالجة الأساس الجغرافي للبنان سنشهدها عند رفيق السودا في الجهاد ، اوغست باشا أديب ، كما سنرى أن هذا الموضوع سيبلغ ، فيما بعد ، شأناً كبيراً عند المؤرخ جواد بولس ، بحيث تصبح الجغرافيا أساسا للكيان اللبناني لا يقل أهمية عن الأساس التاريخي ، بل تحتّم العوامل الجغرافية سير التاريخ نفسه[٤]

ولا عجب ألاّ يتوسع السودا في شرح الأساس الجغرافي للبنان ، وهو ليس بالعالم في هذا المضمار ، فجاء كلامهُ مقتضباً ، ولكن مكثّفاً وبليغاً .

الحواشي ،

(١) «تاريخ لبنان الحضاري » ، ص ١٧ — ١٨
(٢) لا يذكر السودا المكان الذي يستشهد به بالمقدسي .
(٣) «تاريخ لبنان الحضاري» ، صفحة ٣٣
(٤) راجع : كتابه : «تاريخ لبنان» ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢

المرتكز الخامس :

الاساس التاريخي لاستقلال لبنان

المرتكز الخامس لعقيدة السودا القومية يقوم على عراقة الاستقلال اللبناني نفسهُ!

لم يكن للبنان وجوداً سياسياً تاريخياً بشكل بماضيه البعيد فينيقيا القديمة فحسب ، ولا كان ايضاً حضارة شهدها التاريخ الفينيقي قبل عدة آلاف سنة قبل المسيح فحسب ، بل إن لبنان تفرد أيضاً في هذا الشرق باستقلاليته التاريخية النوعية .

فاستقلالهُ لم يبصر النور ، للمرة الاولى ، عام ١٩٤٣ .

فبعد العهود الفينيقية ، عرف لبنان الاستقلال النوعي ، اولا ، في القرون الوسطى ، تجاه الفتح العربي ؛ وعرفهُ ، ثانياً ، في العصور الحديثة ، في حقبة الامارتين المعنية والشهابية ؛ وأخيراً في عهد المتصرفية ، بالرغم من مآخذ السودا الاستقلالية على الحكم في هذه الفترة الأخيرة ، وبالرغم من مقاومته المحاولات العثمانية لطعن هذا الاستقلال ، قبيل الحرب العالمية الاولى واثناءها ، كما سنثبته في الصفحات التالية .

استقلال لبنان في القرون الوسطى :

أما استقلال لبنان في العصر الوسيط فيتمثل في وضعه السياسي والداخلي بالنسبة الى

الفتح العربي . هنا يشدّد السودا على العلاقة العضوية «المسيحية» و«اللبنانية» ، وبخاصة بين «اللبنانية» و«المارونية» ، بحيث يرى أن اندماج الموارنة بلبنان ، منذ القرن السادس ، جعل اللبنانيين شعباً مسيحياً واحداً يشعر أنه ، قبل كل شيء ، عنصر مسيحي اندغمت وطنيته بدينه[1]، وكأنه يلمح الى أن لبنان كان ، لاسيما في أوائل هذا الفتح ، أشبه بوطن قومي مسيحي . وقد غاب عنه أن أقواما أخرى جاءت لبنان وأقامت فيه مع الفتح العربي ، الذي تعاونت معه ضد بيزنطية ، ثم ضد الصليبيين ، كما غابت عن السودا الفترة التي لم يعد فيها لبنان مقتصرا على المسيحيين . من هنا ، أنه لا يعيّن أي «لبنان» هذا الذي أعتنق ديناً غير دين الفاتحين العرب ، هل هو الجزء الشمالي الجبلي ، بالاخص ، من «الجمهورية اللبنانية» الحالية أو هو كل مساحة هذه «الجمهورية» .

ومع ذلك ، فإن السودا يشدّد على المقاومة الضارية التي سجلها مسيحيو الجبل في وجه الفتح الإسلامي ، زوداً عن استقلالهم الداخلي ضمن الامبراطورية الجديدة القائمة على أنقاض امبراطورية بيزنطية المسيحية .

«وأول مرة أتيح فيها للبنانيين أن يثبتوا للملأ قوة عنصريتهم وبأس رجالهم كانت يوم ردّوا تيار الغزاة من العرب عن جبالهم ، فظل ثابتا عزيز الجوانب ، بينما أركان المملكة الرومانية تنهار حواليه ويولي هيركل الأدبار أمام جيوش المسلمين »[2]

هذه المقاومة اللبنانية المسيحية التي استظهر فيها المردة المندمجون بالموارنة منعت ، في اعتقاد السودا ، المسلمين من الانتصار في القسطنطينية والتفرغ لمحاصرتها ، لأن اللبنانيين أصلوهم حربا حامية ، فلم تسقط المدينة إلا مع محمد الثاني العثماني[3] .

بل إنّ هذه المقاومة جعلت السودا يفاخر أيضا ، مستندا الى المؤرخ طنوس الشدياق[4] ، باستنجاد الملك طيباريوس البيزنطي نفسه ، سنة ٦٩٩ ، بالأمير سمعان الماروني ، أحد أمراء جبل لبنان الذي استبسل في الحرب ضد العرب .

ويذهب السودا الى حد التذكير بأن العرب المنتصرين أنفسهم استعانوا باللبنانيين ، أسياد البحر القدماء ، لبناء اسطول بحري ينازل البيزنطيين في شواطىء ايجه ، لينصر العرب بقيادة وملاحة لبنانيين ومقاتلين عرب .

ويُلاحَظ بأنه في هذا الفصل المخصص للفتح العربي ، يفصل السودا بين اللبنانيين والعرب . فاللبنانيون شعب لبنان وأصحابه الاصليون ، والعرب فاتحون غرباء . كما يلفت النظر الى انهُ بعد أن نشر «الفتح» راياته المظفرة على سوريا والعراق ومصر وفارس ، أخذ سكان هذه البلاد يدخلون أفواجا في دين الفاتح ، بينما ظل لبنان في معظم أرجائه مقيما على مسيحيته ، محتفظا بحريته الدينية والمدنية ، بل أصبح ملجأ من لم يشأ تغيير دينه في الاقطار المغلوبة على أمرها[5] .

وهكذا يعترف السودا هنا بأن لبنان بقي مستقلاً ، داخلياً ، في الجزء الشمالي منه ، حيث السكان مسيحيون ، وذلك داخل الامبراطورية العربية الاسلامية ، فاحتفظ ، من ثم ، بحريته الدينية والمدنية .

هذا الجدار من الجليد بين لبنان المسيحي الرابض في الجبل وبين الفتح العربي الاسلامي الذي كانت طريقه عبر الساحل البحري ، يشرحه السودا كما يلي : في ذلك الزمان كان التقارب أو التباعد بين الناس يبنى عادة على الدين اذا كان الامر بين دينين مختلفين ، أو على المذهب اذا كان الامر بين مذهبين مختلفين في دين واحد . فوقعت المنازعات ، مثلاً ، بين الوثنيين والمسيحيين في الامبراطورية الغربية والشرقية . ووقع النزاع في مكة بين الوثنية والاسلام .. وهكذا جرى التقارب بين لبنان و بيزنطية ، وقد أوجس اللبنانيون خشية من الفتح على حرياتهم ، فوقفوا يدافعون عنها» . ويستند السودا الى البلاذري صاحب «فتوح البلدان» ، في وصفه حرب المردة أو الجراجمة في لبنان ضد العرب ، في أيام معاوية وايام عبد الملك من بعده ، بحيث اضطر الإثنان ، كل بدوره ، الى مصالحة اللبنانيين المسيحيين ، والنزول عند شروطهم ، وذلك في سنة ٦٧٠[6] .

والبلاذري هو الذي يعتمد عليه القوميون اللبنانيون في التأكيد بأن الفتح العربي الإسلامي لم ينتزع من لبنان سوى ساحله ، في البدء ، بالاضافة الى الأقوام التي أتى بها هذا «الفتح» ، وأسكنها خاصة جنوبي الجبل اللبناني .

واذ يعترف السودا ، بحكم المعطيات التاريخية ، بأن لبنان لم يعد مقتصراً على المسيحيين ، يرى ، دون أن يقدم دليلا على ذلك ، أن الدولة الاموية[7] ، على عنايتها

الخاصة بلبنان ، عملت على تعزيز الوحدة بين أبنائه . وتعني هذه العبارة الاخيرة أن «الوحدة» أمست منذ ذلك الحين قضية مطروحة .

الانتفاضات الاستقلالية في عهد العباسيين

للدلالة على الوضع الاستقلالي في لبنان ، اثناء حكم آل العباس[٨] ، يذكر السودا أن هؤلاء لم ينظروا نظرة الارتياح الى لبنان المحافظ على استقلاله وتقاليده لوحده في المنطقة ، وقد أدى الضغط العباسي الى اشعال ثورة كسروان التي أدت الى احتلال الثوار البقاع وبعلبك ، وانتهت بالتراجع الى حصن المنيطرة وسقوط الحصن وتفظيع العباسيين بالكسروانيين[٩] .

لكن ، يلاحظ أن «لبنان المستقل» هذا الذي يشدد عليه السودا ، يقتصر على منطقة معينة من لبنان . والثورة في سبيل هذا الاستقلال قام بها فريق معين من اللبنانيين . ومن الادلة على هذا الواقع ذكّر السودا باهتمام الدولة العباسية بتحصين الثغور في لبنان وسوريا ، الامر الذي يفسر بأن هذه الثغور وقعت تحت الاحتلال الإسلامي ، كما أن «التحصين» يعني أن أبناءها موالون للعباسيين بحكم كونهم يعتنقون دين هؤلاء .

ومن الأدلة التي يقدمها السودا على انقسام موقف اللبنانيين تجاه العباسيين تذكيره بأن الفاتحين العرب اضطروا الى ارسال قبيلة عربية الى لبنان ، وكلت اليها مهمة دفاعية ضد غارات الروم وسكان الجبل ، في القسم الشمالي منه . ومن هذه القبيلة نشأ الامراء التنوخيون الذين قدموا الى منطقة الغرب ، بين صيدا وبيروت ، في عهد أبي جعفر المنصور سنة ٧٦٣ م .

بل ، ينتهي السودا بالمصارحة بأن الموارنة ، في شمالي لبنان ، كانوا يتمتعون ، في تلك الفترة ، بشبه استقلال ذاتي ، لقاء جزية يؤدونها على أيدي المقدمين ، وينتفضون كلما قامت محاولة لكبت حرياتهم[١٠] .

لبنان في عهد الدولة الفاطمية[١١]

لتبيان الكفاح التاريخي اللبناني في سبيل الاستقلال يشير السودا الى مواصلة

الضغط العربي على اللبنانيين مع الفاطميين ، لكن ، اذا ما اقتصرت الثورة في سبيل الحرية أيام العباسيين على موارنة كسروان ، فانها شملت ، باقرار السودا ، هذه المرة مدينة صور ، بشخص بحار مسلم يدعى علاقة الذي أعلن الاستقلال سنة ٩٩٧ ، ورفع اسوار المدينة ، وصك عملة خاصة به ، الامر الذي أدى الى حصار بري وبحري يقيمه الفاطميون على المدينة التي تصمد كعادتها مع الاسكندر ، من قبل ، حتى تسقط ، ويشنع الظافرون بأهلها قتلا وهدما واحراقا ، ويقبض على علاقة ويصلب على خشبة[١٢] .

لكن ، اشارة السودا الى ثورة علاقة في مدينة صور لا يفهم منها ولا تعني ضرورة ان هذه الثورة كانت باسم «لبنان» . فقد تنسب الى عامل فئوي يتعلق بأهالي صور او بانصار علاقة ، كما قد تنسب الى عامل شخصي يتعلق بطموح هذا البحار ورغبته في التفرد باقامة دولة في صور .

وايا كان الأمر ، فأن الوقائع التاريخية تؤيد زعم السودا في أنه خلال هذه الفترة الطويلة الممتدة من بدء العهد الأموي حتى نهاية العصر الفاطمي ، استطاع «الجبل» أن ينعم باستقلال نوعي ، في شماليه على الاقل ، ضمن امبراطورية عربية ، مع ما تخلل هذا الاستقلال من تجاوزات واعتداءات مارستها جيوش الخلفاء في معرض ضغطها لجمع الضرائب المفروضة ، أو في المحاولات الانتقامية التي ارتكبت بحق اللبنانيين المتشبثين بحرياتهم .

والسودا محق ، أيضا ، في ذكر تسامح الامويين مع الجبل ، الذي قد يعود الى عدم اكتراثهم لشعبه المعتكف على نفسه في حياته الداخلية ، كما يعود الى صعوبة اقتحام الجبل لمناعته الطبيعية ، وخاصة ، لانهماك الخلافة بمواصلة الفتح عبر المنطقة القريبة منها والبعيدة .

لكن ، غفل عن السودا أنه بينما كان «الجبل» الذي يذكره يعيش حياته الخاصة ، مؤديا فقط الضريبة للخلافة ، كانت مدن الشاطىء ، كطرابلس وبيروت وصيدا وصور ، والسهول الداخلية ، كسهل البقاع ، قد أسلمت بكاملها ولم تعد مرتبطة الا بالحكم الاسلامي العربي ، له وحده ولاؤها ، مع العلم أن هذه المقاطعات واقعة في

أرض لبنان ، كما يفهمه السودا نفسهُ .

لبنان والصليبيين

في الفصل المخصص للعهد الصليبي يستمر السودا في استلهام تاريخ «لبنان» معيّن عندما يرد له مثل هذا القول :

«واكتسح العرب سوريا فرد لبنان تيارهم عنه وظل على تمنعه حتى الصليبيين فحالفهم» [13] ،وخاصة عندما يصف تعاون الموارنة والصليبيين في الحرب كما في السلم [14] .

والتحالف الماروني الصليبي أكده وأثبته وليم الصوري أسقف مملكة صور اللاتينية ومؤرخ الصليبيين الرئيسي [15] .

وهكذا فإن السودا يجهل أو يتجاهل أن ليس كل « لبنان» أبدى ترحيبه بالصليبيين ، وأن المسلمين فيه أظهروا عداءهم لهؤلاء وأن أهالي مدينة صور اعتدوا على الحملة الصليبية الأولى ، وأن أبناء مدن طرابلس وبيروت وصيدا ثاروا على الحكم الصليبي [16] .

الى ذلك ، يرى السودا ، كما يبدو ، ان الفتح العربي الاسلامي يبدأ في القرن السابع ، ويستمر ليستمر لبنان بدوره وكأنه منفصل عن امبراطورية العرب .

كما يتراءى من الروح السائدة في كتاب السودا «في سبيل لبنان» أن الفتح هذا يدخل في جملة الفتوحات التي مرت في الساحل اللبناني ، من غير أن تبدّل من سمات «الجبل» الآهل بالسكان والعريق تاريخيا ، بحيث لم يحدث العنصر العربي أثره في الكينونة اللبنانية .

واما لغة الفاتحين العربية فقد عرفها شعب لبنان مع لغات اخرى من قبل ومن بعد .

وفي مجمل كتابه يشدد السودا على ما يلي :
أن العرب ليسوا لبنانيين ، بل أتوا من الجزيرة العربية .
وان محمد لم يظهر إلا في مستهل القرن السابع الميلادي .

وان الدين الجديد نفخ في العرب روحا جديدة ، فنشطوا الى مناوأة الروم ، وقد ضعفت شوكة الامبراطورية البيزنطية ، فتمكنوا من سحق جيشها في معركة اليرموك عام ٦٣٣ [17] .

لكن فضل السودا هو في صراحته وفي جراته في التعبير عن آرائه في الوضع التاريخي اللبناني ، بالنسبة للمعلومات التي توفرّت لديه . وفضله خاصةً هو في ترحيبه بمحاولة إرساء الامارة وحدة لبنان على أنقاض الصراع الديني التاريخي الممزوج بالوطنية :

«العنصرية المسيحية» ، كما يقول ، هي التي كانت رائد اللبنانيين في وطنيتهم دهراً طويلاً في وجه الفاتحين الذين تغلبوا في سوريا على شعبها ، وهي التي بقيت سداً منيعاً حمت لبنان وصانت حريته واستقلاله ، منذ الجيل السابع حتى الفتح التركي في القرن السادس عشر [18] ، وفيه ظهرت ، بحسَب السودا ، تباشير «القومية اللبنانية» مع الأمير فخر الدين الثاني المعني ، حيث حلت محل العنصرية المسيحية [19] .

الا أن السودا لا يفسر «القومية اللبنانية» هذه : هل هي ثمة وحدة قامت في الإمارة المعنية ؟ هل هي شعور بالانتساب الى لبنان بدلاً من الانتساب الى طائفة معينة أو دين معيّن في ظلّ الإمارة عينها ؟ اياًكان الأمر ، فالعبارة نراها للمرة الأولى في العربية . السَياسيون اللبنانيون معاصرو السودا لم ترد عندهم ، حتى الذين عملوا للبنان الكبير المستقل كمثله والى جانبه ، امثال : داود عمون [20] ، واعضاء الاتحاد اللبناني [21] بفروعه المختلفة ، ونعوم مكرزل [22] ، وشكري الخوري [23] ، والمطران يوسف دريان [24] . وأعضاء مجلس الادارة الاخير في متصرفية جبل لبنان ، والبطريرك الحويك [25] .

قبل السودا استخدم أدباء ومفكرو النهضة الأدبية العربية الحديثة تعابير مماثلة للدلالة على الشأن القومي والوطني . فقال أديب اسحق [26] بـ «الامّة» بالمعنى الحقوقي لها ، مقتبساً أبعاد هذه اللفظة عن فكر الثورة الفرنسية الذي تأثر به . وتردّد المعلم بطرس البستاني بين «الجامعة الوطنية » و«الأخوّة الوطنية» [27] ، والنزعة الروحية القائمة على الايمان المسيحي [28] ، والمواطنية العثمانية ، وسوريا [29] ، و«الدم العربي» [30] .

وقال الدكتور شبلي شميل بـ «الامّة» ليعني الدولة . من هنا إكثاره من عبارة «الامة العثمانية» ، التي كانت ، مع ذلك ، مجموعة أمم وشعوب [٣١] .

لفظة «الأمة» وردت أيضاً في كتابات المفكرين من المسلمين ، في عصر النهضة ، نظير رفاعة الطهطاوي [٣٢] ومحمد عبدو [٣٣] ومحمد رشيد رضا [٣٤] والأمير شكيب ارسلان [٣٥] . فكانت «الأمة المصرية» ، و«الجماعة الاسلامية» .

أما المفكرون والسياسيون المسيحيون ، من لبنانيين وسوريين ، الذين سعوا خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، في مصر ، وباريس ، وسواهما ، لقيام فيدراسيون سوري لبناني ، أو عربي ، يدخل فيه «جبل لبنان» ، مع الابقاء على استقلاله الداخلي ، أمثال شكري غانم [٣٦] وجورج سمنه [٣٧] وخيرالله خيرالله [٣٨] ونجيب عازوري [٣٩] ، فقد قالوا ، إما بالأمة السورية وإما بالأمّة العربية .

وأما «القومية اللبنانية» فانها تدخل لغة الضاد مع يوسف السودا ، وذلك في كتابه «في سبيل لبنان» ، الصادر عن مطابع الاسكندرية ، عام ١٩١٩ . والمقصود بها ، بالفرنسية ، عبارة (le nationalisme libanais)

وكان ينبغي أن ننتظر عامين ، بعد صدور «في سبيل لبنان» للسودا ، لنرى العبارة مرة ثانية ، وذلك في كتاب «سوريا» للمؤرخ اليسوعي الأب هنري لامنس ، الصادر سنة ١٩٢١ [٤٠] (الجزء الثاني) ، بحيث يقول المؤلف عن الأمير فخر الدين الثاني المعني أنهُ كان أشبه بمؤسس لـ «قومية لبنانية» .

« القومية اللبنانية » التي فاه بها السودا عام ١٩١٩ تصبح أيديولوجية القوميين اللبنانيين .. ورمز نضالهم وهدف حياتهم السياسية ، فيتكلم بها الخطباء ، ويطلقها الكتّاب وتقوم باسمها الاحزاب وتبنى عليها السياسات وتجابَه بها الايديولوجيات الاخرى من سورية وعربية وماركسيَة بأنواعها وشعبها وفصائلها وتفرعاتها .

استقلال لبنان في العصور الحديثة

الاستقلال الداخلي للبنان ، بنظر السودا ، لم يقتصر على حقبة الفتح العربي وإن في

الجزء المسيحي والشمالي من لبنان الحالي ، بل تعدّاه الى العصور الحديثة ، أي في حقبة الإمارة المعنية ، مع الأمير فخر الدين الثاني [٤١] ، وفي حقبة الإمارة الشهابية ، مع الأمير بشير الثاني الكبير [٤٢] ، وأخيراً في نظام المتصرفية الذي بدأ عام ١٨٦١ .

لكن السودا لا يوضح مظاهر الاستقلال اللبناني ، ولا يفصّلها لا عند المعنيين ولا عند الشهابيين ، لاسيما وان الوقائع التاريخية لا تؤيد نظرية السودا تماما بشأن الامير بشير الثاني في كل المدة التي كان فيها مسؤولا عن الامارة . أضف الى ذلك ، البون الشاسع بين الوضع الاستقلالي في عهد فخر الدين الثاني وبينه في عهد بشير الثاني الشهابي .

استقلال لبنان في عهد المتصرفية

أما الطابع الاستقلالي للبنان في نظام المتصرفية فقدكتب فيه السودا الشيء الكثير ، وهذا الطابع يتراءى له في الوقائع التالية :

أولاً : « النظام » أمّن للبنان الضمانة الدولية .

ثانياً : كان لبنان وحده يتمتع بشبه استقلال داخلي وإن سنجقاً ومحصوراً بـ « الجبل » ، وما حوله ولايات عثمانية ، والكل يدور في فلك امبراطورية عثمانية مهيمنة فكرياً ونظاماً .

ثالثاً : « النظام » في ذاته كان دُستوراً يصون الكيان اللبناني في استقلاله الداخلي وامتيازاته .

رابعاً : كل الموظفين في سَنجق جبل لبنان كانوا لبنانيين . في الادارة . في القضاء . في الجندية . ما عدا الحاكم ، مع الاحتفاظ بحق تعيينه لبنانيا .

خامساً : كان للمجلس الاداري الرأي الفصل في الشؤون المالية والقضاء وفي الترخيص أو الرفض للعساكر العثمانية بدخول لبنان (مادة ٦) .

سادساً : صوناً للاستقلال الداخلي في لبنان حصر نظام المتصرفية مسألة المحافظة على الأمن بالجندية اللبناني وحظّر على الجيش العثماني دخول لبنان الا اذا استعان به الحاكم وبعد موافقة مجلس الادارة ؛ وفي مثل هذه الحالة يكون

قائد القوات العثمانية تحت إمرة حاكم لبنان طوال المدة التي يقضيها فيه (مادة ١٤) .

سابعاً : لم تكن هناك من خدمة عسكرية في لبنان ولا ضرائب تُفرض .

مآخذ السودا القومية والاستقلالية على معاهدة ١٨٦١

عقيدة السودا الاستقلالية تتمثل بصورة رائعة في مآخذه على معاهدة ١٨٦١ التي وضعت نظام متصرفية جبل لبنان ، وكان ذلك عام ١٩١٠ ، وهو بعد في التاسعة عشرة من سنّه ، مقيماً في وادي النيل حيث يرتع الفكر بنصيب من الحرية ، بفضل الانكليز والخديوي اسماعيل . فماذا أخذ على تلك المعاهدة الدولية ؟

كانت أمنية السودا ، عام ١٩١٠ ، من تلك المعاهدة في ما يتعلق بلبنان ، هي نفسها تقريبا أمنية فرنسا عام ١٨٦١ ، برئاسة امبراطورها نابليون الثالث . فسياسة الامبراطور الفرنسي آنذاك ، كانت تتوخى ، فيما خص المسألة اللبنانية ، أغراضاً أربعة :

أولاً : إعادة الامارة اللبنانية الى لبنان .

ثانياً : جعل الحاكم وطنياً .

ثالثاً : الاعتراف للبنان بأقصى ما يمكن من الاستقلال .

رابعاً : توسيع حدود لبنان الى سهوله ومدنه البحرية على أساس الخريطة التي وضعتها الحملة الفرنسية (٤٣) .

ولقد تألم السودا عام ١٩١٠ لكون هذه المطالب لم تتحقق قبل تسعة وأربعين عاما من تاريخ وضعه الدراسة المذكورة . بل رأى أن البنود الثلاثة الأخيرة من السياسة النابليونية ما تزال صالحة عام ١٩١٠ . الا أنه لم يوضح موقفه من شكل الحكم الذي يبغيه في هذا التاريخ ، إمارةً كان أم متصرفيةً أم جمهوريةً .

وتنضح دراسة السودا اياها بالاستنكار لسياسة الاستانة عام ١٨٦١ بالنسبة الى النظام اللبناني ، وهي السياسة المدعومة من انكلترا والمناقضة لسياسة فرنسا .

ويعتقد السودا أنه بفضل تفوق ممثلي تركيا وانكلترا اقتنع برأيهما ممثلو روسيا والنمسا

وبروسيا ، فلم ينص النظام الجديد على تحقيق الأماني اللبنانية التي كانت تعبّر عنها السياسة الفرنسية (٤٤) .

ففيما يتعلق بتشكيل اللجنة الدولية التي عهد اليها النظر بحوادث لبنان الطائفية التي حصلت عام ١٨٦٠ ووضع نظام ١٨٦١ (٤٥) رأى السودا أن ممثل تركيا فيها كان فؤاد باشا (٤٦) ، وهو من دُهاة الدولة التركية ، وان بريطانيا ارسلت الى المفاوضات رجلاً من أذكى رجالها ، هو اللورد دوفرين الشهير (Dufferin) ، بينما اكتفت فرنسا بان كلّفت بتمثيلها في المؤتمر قنصلها في بيروت المسيو بكلار (Beeclard) والجنرال دي بو فور (De Beaufort d'Hautpoul) قائد القوات الفرنسية التي ارسلها نابليون الثالث للتدخل عسكرياً في الأزمة اللبنانية ، وقد ثبت ، عدم جدارتها للمهمة العسيرة التي فوّضا في الإسهام بحلّها (٤٧) .

مقاومة السودا فكرة احتلال تركيا للبنان

لم يكتف السودا بأن يؤرّخ استقلال لبنان النوعي ازاء الفتح العربي ، ولا بالاشادة بالاستقلال الواسع ، واحياناً المطلق في عهد الامارتين المعنية والشهابية ، بل كافح هو نفسه في سبيل استقلال لبنان . كان اكبر مناضل خارج لبنان في سبيله ، ولربما اكبر مناضل على الاطلاق .

في صيف ١٩١٠ شاع أن الجيش التركي قرر احتلال لبنان بحجة نزع السلاح من اهاليه . . أثار ذلك اضطرابا عميقا في النفس لدى السودا ، وهو في سن التاسعة عشرة :

— أرسل مقالة هائجة الى جريدة «المقطّم» لم تنشر لعنفها .

— كتب الى الدكتورين يعترب صروف وفارس نمر ثم الى خليل ثابت رسائل لم تظهر الا بعد خمس وخمسين سنة في مذكراته (في سبيل الاستقلال) .

— في كتابه الى صروف ونمر بتاريخ ٢٩ — ٨ — ١٩١٠ جاء ما حرفيته :

«لبنان وطني وبلادي ومسقط رأسي فلا يمكنني أن ارى ما يدبّر له من المكائد والدسائس لالحاقه بولاية بيروت أو ولاية سوريا ولا أرفع الصوت صارخا وبالدول الضامنة

ان انظروا واحذروا الهاوية ...» .

— كتب الى الشيخ فيليب الخازن والمطران دريان بالموضوع نفسه .

في رسالته الى الشيخ فيليب بتاريخ ٢٠ — ٨ — ١٩١٠ :

«لبنان يزعجهم بمركزه ضمن الولايات ... ويمكنهم اذا شاؤوا أن يفتحوا لبنان بالقوة لكنهم يفضلون أن يسلكوا طريقا أسلم عاقبة بأن يتذرّعوا بالأمن العام وعجز الحكومة اللبنانية عن توطيده في لبنان فيلجأوون الى المادة ١٤ من «النظام» بان يطلب المتصرف الاستعانة بالقوة العسكرية من سوريا ...» .

في رسالته الى المطران يوسف دريان في ١٩١٠/٨/٢٤ ما حرفيته :

«من المعلوم أن الدولة لا تحب أن يبقى لبنان كما هو حاجز بينها وبين الولايات .

«وللاستانة طرقها للوصول الى هذه الغاية يتركون الاهواء تجري مجراها في لبنان والفوضى تضرب اطنابها حتى تحمل اللبنانيين على طلب النجدة ، فيطلب يوسف باشا قوة من الدولة لتوطيد الأمن في لبنان بالاستناد الى المادة ١٤ من نظامنا .. ومتى دخلت قوة تركيا الى لبنان فمن يخرجها منه ؟ لا أحد بالطبع . عندئذ ماذا يكون ؟ يكون أن لبنان يصبح تابعا لولاية بيروت أو ولاية سوريا : متصرف تركي ، عسكر تركي . لغة رسمية تركية ...»[٤٨] .

— تابع السودا الاتصالات المكثفة مع المهاجر والجاليات اللبنانية لحثّها على دعوة اللبنانيين لإنشاء الجمعيات وتوحيد الصفوف وايجاد رأي عام عالمي يدافع عن استقلال لبنان . فكان إنشاء الجمعيات التالية :

جمعية «النهضة اللبنانية» عام ١٩١١ في نيويورك برئاسة نعوم مكرزل ، ثم نعوم حاتم .

جمعية «الاتحاد اللبناني» في بونس أيرس برئاسة يوسف سلامه ، ثم موسى أبو صادر .

«اللجنة اللبنانية» في باريس برئاسة عبّاس بجاني .

جمعية «لبنان الفتى» في القاهرة برئاسة فريد حبيش .

«الحزب الوطني برئاسة يوسف البستاني[٤٩] .

كل هذه الجمعيات ، كان السودا وراء مجيئها الى الوجود ، وهو في حدود العشرين من العمر ، وكان الموجّه لتفكيرها القومي اللبناني ولمواقفها من السياسة الدولية ازاء لبنان .

موقف السودا من احتلال الجيش التركي للبنان .

ولدى احتلال الجيش التركي للبنان بقيادة جمال باشا ، بعد انضمام تركيا الى المانيا في الحرب العالمية الاولى ، واعلانها الغاء معاهدة باريس المعقودة عام ١٨٥٦ ومعاهدة برلين المعقودة سنة ١٨٧٨ ، واعلانها ، في الوقت نفسه ، الغاء «نظام لبنان» ، واقالتها اوهانس باشا ، وتعيين علي منيف مكانه ، وادخالها لبنان في نظام الولايات ، وتشكيل جمال باشا المحكمة العرفية في عاليه تصدر الأحكام باعدام أحرار البلاد ، إزاء هذه التصرفات ، بادر السودا الى وضع مذكّرة بالاحتجاج على خرق تركيا لمعاهدة دولية ، تلك المذكّرة التي قدمها المطران دريان ، بعد موافقة اللجان عليها ، باسم «الاتحاد اللبناني» الى مفوضيات فرنسا وانكلترا وايطاليا في القاهرة بتاريخ ١٩١٧/٢/٢٢ ، وأرسلت نسخ منها الى المقامات الرسمية والبرلمانات الدولية والصحف والجاليات اللبنانية في العالم[٥٠] .

الحواشي

(١) «في سبيل لبنان» ، ص ٣٩ — ٤٢ .

(٢) الموضع نفسه . معلومات السودا عن الفتح الاسلامي اقتبسها عن أبي الفداء الذي تضمّن كتابه «تقويم البلدان» وصفا للبلاد الاسلامية .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠ — ٥٣ .

(٤) في مؤلفه «كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان» ، بيروت ، ١٨٥٩ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٤ ، طبعة ثالثة باشراف فؤاد افرام البستاني ، جزءان ، بيروت ، ١٩٧٠ .

(٥) «في سبيل لبنان» ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٦) المصدر السابق ،١٦١—١٦٣ ، انظر ايضا البلاذري ،«فتوح البلدان» ، ليدن ، بريل ، ١٨٦٦ ، ص ١٠٥ — ١١٠

(٧) اسسها معاوية بعد معركة صفين (٣٧ للهجير) ٦٥٧م .

(٨) حكم العباسيون من عام ٧٥٠ حتى سقوط بغداد عاصمتهم في ايدي المغول وهولاكو عام ١٢٥٨م .

(٩) هذه الثورة التي قام بها مسيحيو كسروان نشبت عندما «انفجر» موارنة المنيطرة قرب افقا ، وقد أثارتهم الضرائب التي فرضها العباسيون ، فكانت انتفاضتهم عام ٧٥٩ — ٧٦٠ .

(١٠) «في سبيل لبنان» ص ١٦٦ — المهمة التي أوكل بها الى التنوخيين في لبنان والتي يذكرها السودا وردت فعلا في المراجع التاريخية ، منها : طنوس الشدياق ، «اخبار الاعيان في جبل لبنان» ، نشر المعلم بطرس البستاني ص ٢٢٤ ، فيليب حتي ، «تاريخ سوريه» (بالانكليزية ، ص ٥٤٥) .

(١١) بدأت هذه الدولة باحتلال القاهرة مع الخليفة المعز عام ٩٦٩ وانتهت عام ١١٧١ .

(١٢) «في سبيل لبنان» ، ص ١٦٧ — ١٦٨ . ثورة علاقة في مدينة صور تؤيدها مختلف المراجع التاريخية منها «تاريخ يحيى بن سعيد» ليحيى بن سعيد الانطاكي ، باريس ، ١٩٣٢ ، ص ٤٥٥ .

(١٣) «في سبيل الاستقلال » ص ٦ — ٨ .

(١٤) المصدر نفسه ص ١٧٥ .

(١٥) وليم الصوري ، اسقف صور ، تاريخه للصليبيين ، ١ : ٣٣٠ — ٤٧٧

(١٦) نفس المصدر والصفحات السابقة .

(١٧) «تاريخ لبنان الحضاري » ، ص ١٦٠ .

(١٨) يلاحظ هنا أن السودا يقصر (لبنان) على الجزء الذي يقيم فيه المسيحيون أي شمالي لبنان الحاضر ، من البترون حتى الشمال الى أقصاه . فلا تشمل لفظة لبنان بحسبه ، الاجزاء الوسطى والجنوبية التي بدأ يقطنها المسلمون منذ العصور الأموية . فالشيعة مثلا استقدمهم عمر ابن الخطاب للسكن في المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور محل المسيحيين اللبنانيين الساحليين الذي تعاونوا مع بيزنطية في اوائل الفتح العربي بعد هزيمتها وجلائها ، ثم استبدلوا في معظمهم بالسنيين، في عهد المماليك . وهناك الدروز الذين سكنوا جنوبي كسروان وخاصة الشوف قبل فخر الدين الثاني المعني .

(١٩) ويقصد بهذه العنصرية الصراع المسيحي الاسلامي في لبنان منذ القرن السابع حتى فخر الدين الثاني المعني .

(٢٠) أنظر :

Lyne Lohéac, *Daoud Ammoun et la création de l'Etat libanais*, Klincksieck, Paris, 1978.

(٢١) أنظر : *L'Alliance Libanaise d'Egypte et la question du Liban*, Le Caire, 1921 (36 p.).

(٢٢) أنظر : نعوم مكرزل ، «مختارات الخواطر» ، «مجموعة مقالات وطنية كانت تظهر في «الهدى» تحت عنوان «خواطر» ، الجزء الاول ، مطبعة «الهدى» ، نيويورك ، ١٩٣٢ .

(٢٣) صاحب جريدة «ابو الهول» في البرازيل وكان من المناضلين الاقحاح في سبيل قضية إنشاء «لبنان الكبير» ومن الذين تلتقي فكرتهم الوطنية مع عقيدة السودا .

(٢٤) صاحب المؤلفات حول نشأة الطائفة المارونية وحول المردة والجراجمة ، وكان نائباً للبطريرك الماروني في مصر ، في زمن السودا ، وعمل للبنان الكبير ، الاّ أنهُ كان متأثراً بالسياسة الفرنسية ، وقد انتقدهُ السودا في كتابه «في سبيل الاستقلال» ، بيروت ، ١٩٦٧ (٤٤٨ ص) .

(٢٥) انظر : أرشيف بكركي ، خزانة البطريرك الياس الحويك ، ملف نائبه المطران عبدالله خوري .

(٢٦) انظر : كتابه «الدرر» ، الطبعة الثانية ، المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٩٠٩ ، ص ٤٥٣ .

(٢٧) أنظر : «نفير سورية» ، الوطنية الرابعة ، ١٨٦٠ .

(٢٨) «نفير سورية » ، النشرة الرابعة .

(٢٩) المصدر السابق ، «الوطنية العاشرة » .

(٣٠) انظر : هيام عقل ، «بعض المفكرين المسيحيين والمسألة القومية» ١٨٦٠ — ١٩٢٠ ، رسالة الكفاءة في الفلسفة العامة ، كلية التربية (الجامعة اللبنانية) ، ١٩٧٧ ، ص ١ أو ما يليها .

(٣١) أنظر : كتابه : «مجموعة الدكتور شبلي شميل » ، ج ٢ ، مطبعة المعارف ، مطر ، ص ١٩١ ، أنظر أيضاً :

Georges, Haroun, *Sibli Sumayyil et son oeuvre*, thèse de Doctorat ès-Lettres, Université des Sciences Humaines de Strasbourg, Institut d'Etudes Arabes et Islamiques, 1977, p. 310 sq.

(٣٢) انظر كتابه : «مناهج الالباب المصرية في مناهج الاداب العصرية » ، الطبعة الثانية ، مطبعة شركة الرغائب ، القاهرة ، ١٩١٢ ، ص ٦٦ .

(٣٣) في مقالة كتبها في بيروت ، عام ١٨٨٦ ، قال الإمام محمد عبدو «ان المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله . فانها وحدها المحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها . وانا والحمد لله على هذه العقيدة ، عليها نحيا ، وعليها نموت» (انظر : محمد محمد حسين ، «الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر» ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأداب ، الثالثة ١٩٦٢ ، ص ٤٨) .

(٣٤) انظر بشأنه : أمين سعيد ، «الثورة العربية الكبرى » ، المجلد الاول (النضال بين العرب والترك » ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ب . ت . ، ص .ه .

(٣٥) أنظر مجلة «المشرق» اليَسوعية ، السنة ١٢ ، العدد ٢ ، شباط ١٩٠٩ ، ص ٧٢ ؛ أنظر أيضاً كتابه : «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟» ، الطبعة الثالثة ، مطبعة عيسَى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ .

(٣٦) أنظر مقدمتهُ لكتاب جورج سمنه «سوريا»

Dr Georges Souré, *La Syrie*, Paris, Bossard, 1921).

(٣٧) المصدر السابق ، الطبعة نفسها .

(٣٨) أنظر : Khaïrallah T. Khaïrallah, *La Syrie*, Paris, Ernest Leroux, 1912 (146 p.).

(٣٩) أنظر : Nagib Azoury, *Le Réveil de la Nation Arabe*, Librairie Plon, Paris, 1905.

(٤٠) أنظر : H. Lammens, *La Syrie*, t. II, éd. de l'Impr. Cathol., Beyrouth, 1921.

(٤١) «في سبيل لبنان» ، ص ٢٨ .

(٤٢) المصدر السابق ، ص ١٩ و٢٨ .

(٤٣) هذه المطالب تبنّتها فعلاً الدولة الفرنسية وعملت من أجلها في اللجنة المذكورة ، إذ أن المسيو بكلار مندوب فرنسا ألحّ على وجوب المحافظة على امتيازات لبنان التقليدية من حيث استقلاله الداخلي ، وشدّد على إلغاء القائمقامتين وتوحيد السلطة المحلية في يد حاكم لبناني ، كما كان الحال في عهد الامير بشير الثاني الشهابي لكن دفرون ومحمد فؤاد باشا العثماني تمكنّا من إحباط الخطة الفرنسية وقاوما كل محاولة للابقاء على حدود لبنان التاريخية ، سالخين عنه سهل البقاع ووادي التيم ومرجعيون وبيروت ، كما ادّعيا أن هذه المدينة الأخيرة هي ميناء سوريا والعراق الطبيعي ، فلا يجوز فصلها عن هذه المناطق (أسد رستم : «لبنان في عهد المتصرفية» ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، (٣٣ — ٣٤) .

(٤٤) راجع نص هذا النظام الذي صدر بشكل فرمان سلطاني في ٩ حزيران ١٨٦١ ، في كتاب أسد رستم (المصدر السابق ، ص ٣٥ — ٤٠) واقرأ عن المتصرفية الذين تعاقبوا على الحكم في بقية الصفحات ، ص ٤٠ وما يليها .

(٤٥) انتظم عقد اللجنة الدولية هذه في بيروت في الخامس من تشرين الاول عام ١٨٦٠ . كان من مهمة اللجنة ، كما حددها المسيو توفينيل (Thouvenel) وقبل بها زملاؤه ، التحقيق في أسباب الفتنة وتحديد المسؤولية في منشأها ومعاقبتهم وتقدير الأضرار والخسائر والتخفيف من حدة المأساة ، وذلك بالاضافة الى ما يجب ادخاله من تعديلات في نظام جبل لبنان الذي أقرّته الدول في عامي ١٨٤٢ و١٨٤٥ (أسد رستم ، المصدر السابق ، ص ٢٩) .

(٤٦) والصحيح محمد فؤاد باشا .

(٤٧) «في سبيل الاستقلال» ، ص ٣١ — ٣٥ . هذا الأمر يؤكده المؤرخ أسد رستم ، اذ أن دوفرين كان همه المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ، وكان يتذرّع بشهادات قناصل بريطانيا في بيروت وطرابلس وصيدا ، ومؤدّاها أن مسؤولية الاكليروس الماروني كانت بقدر مسؤولية بعض زعماء الدروز ، وقد نفى بأنه جرت مذابح ، مؤكد أبان كل ما هنالك مجرد حرب أهلية أجج أوارها المطارنة والبطاركة من الطوائف الغربية لاهداف سياسية لا تمّت الى الدين . لكن رستم لا يذكر اسم دي بوفور كأحد ممثلي وزير خارجية فرنسا في اللجنة المذكورة (رستم ، المصدر السابق ، ٢٩ — ٣٠) .

(٤٨) «في سبيل الاستقلال» ، ص ٤٣ — ٤٦ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٥٠) المصدر السابق ، صفحة ٧٩ — ٨٥ .

المرتكز السادس :
فكرة «لبنان الكبير»

تشبّث السودا بـ «لبنان الكبير» مع الاستقلال التام والضمانة الدولية

الخطوط الرئيسية لعقيدة السودا القومية لا تقتصر على صعيد المفهوم التاريخي له ، منذ الانسان اللبناني الاول حتى نهاية عهد المتصرفية ، في حرب ١٩١٤–١٩١٨ ، واحتلال تركيال للبلاد ، مراً بفينيقيا ، والفتح العربي ، والإمارتين ، المعنية والشهابية ، بل ، تبلغ الذروة في الابعاد المستقبلية التي رآها لهذا الوطن ، وكافح من أجل تحقيقها . لبنان ليس ماضياً فحسب ، ولا تاريخاً وحضارة فحسب ، بل ، بقاءً واستمراراً ، مستوحى من مآثر وعظائم هذا التاريخ اللبناني العريق الذي هزّ مشاعر السودا وحرّك لواعج قلبه وعقله . فما هي تصورات الرجل للبنان ما بعد الحرب ، حيث تقرّر مصائر الأمم وتُعيّن حدود الاوطان ؟ .

كان التشبّث العنيد بكيان خاص بلبنان غير مندغم بأية بلاد أخرى ، مع اعادة حدوده الطبيعية اليه ، ومع استقلال تام تدعمه ضمانة دولية ، المرتكز السادس لعقيدة السودا القومية .

فأما «الحدود الطبيعية» فهي التي رسمها ضباط الحملة الفرنساوية الموفدة الى لبنان ،

عام ١٨٦١ ، لوقف المجازر ، وذلك في خريطة خاصة ، هي نفسها ، تقريباً ، خريطة لبنان الحالي . ولسوف نعلق على موضوع «طبيعية» هذه الحدود ، في دراستنا عن القومية اللبنانية عند أوغست باشا أديب ، رفيق السودا في النضال ، ذلك ، ان أديب أولى الناحية الجغرافية والاقتصادية من «لبنان الكبير» المطالب به ، عناية ، هي الأولى من نوعها ، بينما يشدّد السودا على الناحية التاريخية ، بشكل خاص ، لتبرير كيان لبنان واستقلاله .

وأما جهاد السودا المرير في سبيل تحقيق الكيان الخاص للبنان مع استعادة اجزائه المقتطعة منه بدعامة دولية ، فيتجلّى أولا في مقاومته الضارية انضمام «الجبل» الى الدولة العثمانية ؛ ويتجلّى ثانيا بمقاومته المستميتة دمج لبنان في مشاريع وحدوية سورية وعربية ؛ ويتجلّى ثالثا وأخيرا في سعيه الحثيث وتحريضه الجاليات والمقامات اللبنانية والأوساط الدولية على إنجاح خطة إخراج «لبنان الكبير» الى عالم الوجود .

مقاومته الانضمام الى تركيا —

لم تكن العقيدة اللبنانية عند يوسف السودا مجرد صلاة صامتة أو إبتهالات قلبية ، أو مجرد تمنيات وكلمات مصوغة ومدبجة اكتفى بنشرها والافصاح عنها . لا . ان السودا نقل عقيدته من حيّز الفكر والقول الى حيّز المواقف والاعمال والتطبيقات ، فترجم مبادئه القومية الى جهاد مرير ، ونضال عنيد ، وحرب لا هوادة فيها ، استنفدت حياته وصحته وراحته ووقته .

عام ١٩٠٩ ، وكان السودا مقيما في وادي النيل ، وفي الواحد والعشرين من سنه ، قامت في بيروت ، وهي اذ ذاك ولاية عثمانية ، حركة لضم لبنان الى السلطنة العثمانية ، يشجّعها الوالي التركي في المدينة . فحارب السودا الفكرة حربا عسيرة ، كما حاربها البطريرك الحويك وانطون الجميل . ومن أجل إفشالها أنشىء «الاتحاد اللبناني»[١] في القاهرة ، بدعوة من انطون الجميل ؛ ووضع السودا قانونه الاساسي في ٢٦ — ٢ — ١٩٠٩ .

ونشأت لجان لجمعية «الاتحاد اللبناني» في الاسكندرية[٢] وسائر القطر المصري ، حيث يقيم اللبنانيون المغتربون ، كالمنصورة ، وطنطا ، والمحلة الكبرى ، ودمنهور ، وكوم حماده ، وسواها .

وكان الهدف الأول إثارة رأي عام لبناني في الوطن والمهجر ضد الانضمام الى الدولة التركية .

ولم تقتصر المقاومة اللبنانية على العمل في إطار الجمعيات واللجان ، بل شملت الصحافة اللبنانية في مصر وسواها ، كـ «الاهرام»[٣] و«المقطم»[٤] في القاهرة ، و«البصير»[٥] و«الامة»[٦] في الاسكندرية ، و«الارز»[٧] و«النصير»[٨] و«البرق»[٩] في بيروت .

في هذه الصحف أخذ يوسف السودا ينشر المقالات ويدبّج البيانات لشرح امتيازات لبنان وأهمية الضمانة الدولية التي ينبغي أن ينعم بها ، وفي صفحاتها راح يبث روح التحرر من كل قيد ومن كل سلطان في الجبل اللبناني[١٠] .

«الفصل» بين «لبنان» و«سوريا»

ان معطيات التاريخ المختلفة شجّعت السودا لا على المباهاة بأن ثمة استقلالاً داخلياً تاريخياً للبنان ضمن كل من الامبراطوريتين العربية والعثمانية فحسب ، بل أيضا على الايمان بكفاح شرس قام في لبنان للفصل العضوي والجغرافي والسياسي بين لبنان التاريخي ، من جهة ، أو «جبل لبنان» ، وبين الكيانات السياسية التابعة اليوم للجمهورية السورية ، والتي كانت بالأمس ولايات عثمانية ، من جهة أخرى .

«ان غزاة سوريا من عرب وأتراك لم ينظروا يوما الى امتيازات لبنان بعين الرضى . وكان همهم الأقصى ، من قديم الزمان ، ان يلحقوه بولايات سورية ، في حين كان اللبنانيون متشبثين بحريتهم وامتيازاتهم حتى الموت ؛ يزيد تعلقهم بها سعي حكام سورية الى انتزاعها منهم وأدغامهم في الولايات . فنتجت ، من ثم ، على مرّ الأجيال ، بين سوريا ولبنان ، مشادة مستمرة ومنازعة دامية ، حتى جبل تراب الجبل بدماء آبائه مهرقة في سبيل الحرية والاستقلال . ولا يزال صدى حوادث ١٨٦٠ يرّن رائعا مؤلما في الآذان ....»[١١] .

في وجه «الوحدات» المطيحة بلبنان :

في منتصف الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، حيث بدأت طلائع انتصار

الحلفاء وتفكك الدولة العثمانية ، والتخطيط لاقتسام اراضيها ، وتقرير مصائر شعوبها ، في هذه الفترة ، كانت بداية مقاومة مستميتة أصلاها السودا للمشاريع المستهدفة إلحاق لبنان بمشاريع كيانات وحدوية تشمل أرضه ، مع الإبقاء على الاستقلال الاداري له ، نظراً لوضعه الخاص بالنسبة الى جواره .

كانت هناك دعوتان وحدويتان هزّتا الجاليات السورية واللبنانية المنتشرة في مصر وباريس واميركا ، منذ بدء الحرب العالمية الاولى ، ألا وهما :

أولاً : الدعوة الحجازية السورية ، ومركزها القاهرة ، تدعمها السياسة الانكليزية ، وترمي الى توحيد سوريا الكبرى — بما فيها جبل لبنان — ودغمها في مملكة يرئسها الحسين أمير مكة [١٢] .

قام يدعم هذه الدعوة في مصر فريق من السوريين ، حيث أنشأوا فيها حزب «الاتحاد السوري المركزي» للمطالبة بسوريا الكبرى . وقد حددها الحزب المذكور بكيان يمتّد من جبل طوروس شمالا ، فالخابور فالفرات شرقا ، والصحراء العربية فمدائن صالح ، جنوبا ، والبحر الاحمر ، فخط العقبة ورفح ، فالبحر المتوسط غربا .

وجاء في البند التاسع من المشروع قوله : تضم جميع الولايات — ولبنان من الجملة — حكومة مركزية عامة ، عاصمتها دمشق الشام ، في الصيف ، وبيروت ، في الشتاء .

ونصّت المادة ١٤ على أنه ، إذا انتظم للامة العربية وحدة قومية عامة ، فان سوريا تنضم الى تلك الوحدة ، بشرط الا يؤثر ذلك في وحدتها القومية الخاصة ، ولا في شكل حكومتها ، بوجه من الوجوه .

وبذل الحزب المذكور جهوداً جبارة لضّم اللبنانيين في وادي النيل اليه . واتصل اركانه بالاتحاد اللبناني في القاهرة ، يشيدون بفوائد «الفيدراسيون» للبنانيين .

فكان ردّ السودا وانطون الجميل :

«ان ما نراه غير ما يرون ، وأن لهم طريقهم ولنا طريق»

ثانياً : الدعاية الفرنسية السورية ومركزها باريس ، وتدعمها الحكومة الفرنسية ، وتهدف الى توحيد سوريا الكبرى ، وربطها بفرنسا بشكل من الاشكال (اشراف . وصاية . مساعدة . انتداب ...) .

هذه الدعاية انشأت في باريس «اللجنة السورية المركزية» ، برعاية وزارة الخارجية الفرنسية ، ورئاسة شكري غانم ، ومعاونه جورج سمنه ، مدير مجلة «الكورسبندانس دوريان» .

كما أنشىء لهذه الدعوة فرع في القاهرة ، برئاسة عبدالله باشا صفير ، وفرع في الاسكندرية ، برئاسة أدغار طويل . وغاية الجمعية تحرير سوريا ، وتحقيق استقلالها ، تحت رعاية فرنسا ومساعدتها .

ورأى بعض أنصار السياسة الفرنسية تأليف جمعية ، هدفها وحدة سوريا ولبنان ، وضم سوريا الكبرى الى فرنسا ضماً تاماً .

كما أنشىء سنة ١٩١٧ في نيويورك «عصبة التحرير السورية اللبنانية» ، برئاسة الدكتور أيوب ثابت ؛ وغايتها إقامة فدراسيون في سوريا ، تضم جبل لبنان ، باستقلاله الداخلي ، ودمشق ، وحلب الخ ... بإرشاد فرنسا وحمايتها ، وفصل المسألة السورية عن حركة الحجاز ، سواء أكانت تحت شعار البانارابيسم ، أم جامعة الشعوب الناطقة بالعربية ؛ وتشكّلت لجنتها التنفيذية من رئيسها الدكتور أيوب ثابت ، ون . ت . تادروس ، أمين صندوقها ، وجبران خليل جبران سكرتيرها بالانكليزية ، ومخائيل نعيمه سكرتيرها بالعربية [١٣] .

أبعاد السياسة الفرنسية والانكليزية

وكانت السياسة الفرنسية تعمل ، منذ منتصف حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، على تفكيك تركيا وخلق سوريا الكبرى . في الكلمة التي ألقاها جورج بيكو في الاسكندرية أمام حشد من اللبنانيين والسوريين المودّعين له ، قبيل سفره الى فرنسا ، قال :

«بشّر بانهيار تركيا وطمئن سوريا والسوريين بالفرج والخلاص » .

وختم كلمته بهذه الجملة :

«قريبا تنزل فرنسا في بلادكم ، فيخفق العلم المثلث على سوريا الكبرى و«جبالها العالية» ، من طوروس الى عريش مصر»[١٤] .

بعبارة أخرى ، كانت هناك ثلاث مخابرات دولية تتناول منطقة الشرق الأدنى قبيل الاحتلال :

اتفاق سايكس — بيكو مع فرنسا .

واتفاق مكماهون والشريف حسين مع العرب .

ووعد بلفور مع اليهود .

ولم يكن ، بنظر السودا ، في كل تلك الاتفاقات نقطة تجمع بين الفرقاء الا نقطة إغفال لبنان وعدم ذكره .

وكان يهمّ القيادة الفرنسية في بيروت ، عام ١٩١٩ ، ان تجمع وتكتّل كل من تستطيع تأليبهم حول سياسة فرنسا الرامية الى سوريا الكبرى ، من بينها لبنان[١٥] .

عقيدة السودا بشأن لبنان ما بعد الحرب (١٩١٤ — ١٩١٨)

وكان لبنان ، يومئذ ، رازحاً تحت عبء الاحتلال التركي .

فكان موقف السودا[١٦] ، ومن ورائه ، «الاتحاد اللبناني» ، إزاء هذه المشاريع ، كما يلي :

أولاً : التشبّث بكيان لبنان الخاص ، غير مندغم في أية بلاد أخرى .

ثانياً : التمسّك باعادة لبنان الى حدوده الطبيعية .

ثالثاً : التشديد على استقلال لبنان التام .

رابعاً : وجوب اعتماد الضمانة الدولية للكيان الجديد ، دون أن يمسّ ذلك الاستقلال ، ومن قريب أو من بعيد .

خامساً : محاربة أي شكل من أشكال الحماية أو الفدراسيون .

سادساً : حمل السياسات المختلفة في الدول والجمعيات والاحزاب على اعتناق هذه المبادىء والعمل لها[١٧]

كانت غاية السودا من الاستقلال التام الفصل النهائي بين سوريا ولبنان . بينما كان يعتقد آخرون ، وخاصة ، السوريون منهم ، أنه متى جلت تركيا عن لبنان لا يبقى أي معنى لوجوده ، لأنه لا يعني شيئا بذاته ، نظراً للفوائد التي يجنيها اللبنانيون في مجالات سورية الكبرى[١٨] .

وكان يؤمن بأن الاراضي المسلوخة ، المطلوب ضمها الى جبل لبنان لتصبح لبنان الكبير ، تؤلف لهذا الأخير حدوده الطبيعية . لكنهُ لم يوضح ، مرةً ، الى أي حد هذه الحدود هي طبيعية . هذا الأمر شرحه الى حد ما رفيقه وصديقه أوغست أديب باشا[١٩]- .

وكان السودا يعتقد ، ايضا ، أن المقاطعات المسلوخة التي ينبغي أن تضم الى الجبل على يد الحلفاء المنتصرين هي تابعة للبنان جغرافياً واقتصادياً وتاريخياً[٢٠] .

فأما تاريخيا فقد بيّن ، في غير مكان ، شمول لبنان التاريخي لحدود الوطن الذي يبتغي تحقيقه من جديد . ولكنه لم يبيّن اقتصادياً «لبنانية» المقاطعات المسلوخة عن «الجبل» ، بل حاول القيام بهذا الأمر أيضا أوغست باشا أديب في كتابه «لبنان بعد الحرب» .

وكان السودا يقصد ، كذلك ، بالاستقلال التام ، أكثر من الاستقلال الاداري ضمن سوريا الكبرى ؛ كان يقصد استقلالا بدون أي شكل من أشكال الاتّحاد مع أي بلد ، سواء من الشرق أو من الغرب ، استقلالاً سياسياً وادارياً ، داخليا وخارجيا وحدودا[٢١] . إلا أنه اشترط للابقاء على هذا الكيان وذلك الاستقلال ضمانة دولية . لكنه ، لم يوضح المقصود بهذه الضمانة : هل هي على نمط ضمانة الدول السبع للبنان المتصرفية ، أم من نوع آخر؟ وعلى كل ، فـ«الضمانة الدولية» ، بنظر السودا ، والكيان الجديد توأمان لا ينفصلان وأمران متلازمان .

السودا يوجّه لبنانيا

كان السودا رجلاً يعرف ماذا يريد على صعيد الفكر الوطني ، وماذا يفيد هذا الوطن

الذي نذر نفسه لهُ وماذا يسيء إليه . وكان لهُ رؤية واضحة لهُ ، ماضياً ومستقبلاً . وكان يعرف كيف يجب أن يدافع عن الوطن فكراً وعملاً ؛ يعرف أيّ باب ينبغي أن يُطرق ، وأي أسلوب يقتضي أن يُستخدم ، تساعده في ذلك ثقافة عامة واسعة تشمل القانون والتاريخ واتقان اللغتين العربية والفرنسية . هذا ، بالإضافة الى شخصية فذّة ، أهم ما يميّزها الجرأة ووضوح الصورة والعناد في الرأي والتفاني في إحقاق الحق الوطني .

فهو ، من الاسكندرية ، كان يوجّه السياسيين اللبنانيين في مصر وباريس والولايات المتحدة والبرازيل وبقية ديار الاغتراب اللبناني ؛ ذلك أنه ، بحكم إطلاعه السياسي والحقوقي والتاريخي ، كان يعرف أي موقف يجب إتخاذه دولياً وإقليمياً ولبنانياً .

من هذا القبيل ، كانت ترد «الاتحاد اللبناني» ، في القاهرة والاسكندرية ، الرسائل عن البلبلة في الآراء حول مستقبل لبنان ، سواء في صفوف المقيمين على الارض اللبنانية أو في المهاجر ، فيبادر السودا الى شرح الموقف ، وملافاة التفرقة ، وتوجيه الافكار :

— كتابه الى نعوم حاتم بتاريخ ١٩١٧/٥/١٥ ، وهو يومئذ رئيس جمعية النهضة اللبنانية في نيويورك ، يدعوه الى بث روح المحافظة على حقوق لبنان ، والتوسع بها وبالحدود ، وفصل المسألة اللبنانية عن المسألة السورية .

— كتابه في ١٩١٧/٦/١٧ الى انطون الجميل ، اذ بلغه خبر انعقاد «الجمعية السورية العربية» :

«نحن لبنانيون ولا شيء الا لبنانيون ، لنا جمعياتنا اللبنانية ، ولنا مطالبنا اللبنانية . ويجب أن تبقى هذه الجمعيات كما انشئت : لبنانية لا غير ، ولا يجوز ان نسمح لأية جهة ولأي كان بأن يصبح له أدنى تأثير علينا» .

هذا التشديد على لبنانية لبنان وقضيته سوف يغدو شعار القوميين اللبنانيين ، إنطلاقاً من السودا ؛ وكان من شأنه ، بل ، من منطقه ، ان يقاوم الرجل مشاريع الوحدات التي من شأنها الإطاحة بكيان لبنان ؛ ومعه بدأت مقاومة هذه المشاريع في الفكر القومي اللبناني .

مواصلته مقاومة المشاريع الوحدوية :

كان ممثلو الحكومة الحجازية يواصلون الدعاية في الجالية اللبنانية ، في القاهرة ، على أساس الاعتراف بلبنان الصغير باستقلال داخلي ، مع وحدة الراية والخارجية والحربية ، تحت سيادة الشريف حسين .

فسجل السودا وقوفه ضد هذه السياسة ، ومقاومته لهذه الدعوة ، بالنشاطات الآتية :

— كتابه الى انطون الجميل بتاريخ ١٢ — ٦ — ١٩١٧ : «... لا يسعني الأخذ بهذا الرأي ولا بأي شكل . وان الحركة آئلة حتماً الى الفشل التام ، وان مصلحتهم بأن يعلنوا أن لا مطمع لهم في لبنان ، فيكون مستقلاً استقلالاً تاماً ؛ وهي الطريق المثلى لتوحيد القلوب : وان الذين يعملون على غير هذا الأساس هم غير مخلصين ، أو غير واقفين على حقيقة الرأي اللبناني» .

— كتابه الى نعوم حاتم في نيويورك ، بتاريخ ٩ — ٦ — ١٩١٧ : «يجب ان يسعى «الاتحاد» لطلب الاستقلال . ولا تجعلوا سبيلا الى المنافسات الشخصية . ولا تسمحوا بأن يشوشوا عليكم في مطالبتكم بالاستقلال التام» .

— كتابه الى شكري الخوري ، صاحب جريدة «أبي الهول» في البرازيل : «قد سعى البعض الى دغم المسألة السورية بالمسألة اللبنانية . فلا يمكننا التسليم بهذا الادغام الا اذا تنازلنا عن حقنا بالاستقلال . فلبنان يصبو الى نزع كل سيادة أجنبية والتمتع باستقلاله التام ، إسوة بسائر الامم التي تدرّجت من الاستقلال الداخلي الى الاستقلال التام ، مثل صربيا ، وبلغاريا ، والجبل الاسود»[٢٢] .

— مجابهته المطران دريان في مصر الذي أصدر كتابا شجب فيه مطالبة اللبنانيين باستقلال لبنان ، بحجة أن «وجود فرنسا في سوريا الكبرى يغني عن ذلك الاستقلال»[٢٣] .

— خطابه في حفلة «الاتحاد اللبناني» في الاسكندرية ، بتاريخ ١٦ — ١٢ — ١٩١٧ ومناداته بالعقيدة : «إستقلال لبنان التام ، في حدوده الطبيعية ، بضمانة الدول»[٢٤] .

— مجابهته جورج بيكو في (شبرد اوتيل) ، في اوائل شهر كانون الثاني ، ١٩١٨ ، بشأن حدود لبنان ، واستقلال لبنان ، وامتيازات لبنان[٢٥] .

— مناقشته إدغار طويل ، الدمشقي الاصل ، في الاسكندرية ، في العام نفسه ، بشأن كتاب طويل بالفرنسية ، وعنوانه «سوريا» ، يقول فيه : «... كلامي موجّه ... لبعض اللبنانيين . فهنالك فئة منهم ... تريد ان تستفيد لتثبت الفصل النهائي بين سوريا ولبنان وتطلب له الاستقلال التام : أكرر القول أن لبنان اذا تم تحريره من تركيا لا يبقى معنى لوجوده، لأنه لا يعني شيئا بذاته . ولست بحاجة الى شرح الفوائد التي يجنيها اللبنانيون في مجالات سوريا الكبرى»[٢٦] .

— حمله «الاتحاد اللبناني» على تبني عرض المسألة اللبنانية ، كما صاغها شخصيا مفكرنا في مذكرة الى الحلفاء والى البرلمانات والصحف العالمية . والمذكرة تذكير باستقلال لبنان الداخلي المطلق ، منذ ما قبل الفتح العربي حتى الحرب العالمية الاولى[٢٧] .

— خطبه في حفلات «الاتحاد اللبناني» في الاسكندرية ، بتاريخ ٢ — ٦ — ١٩١٨ ، وفي القاهرة ، بتاريخ ٧ تموز من العام نفسه ، مشيداً باستقلال لبنان في التاريخ ، ومطالباً بالضمانة الدولية[٢٨] .

— كتابه الى نعوم مكرزل ، في ١٤ — ٩ — ١٩١٨ ، يحرّضه فيه على :

١ — فصل لبنان عن سوريا .

٢ — استقلال لبنان المطلق بحدوده الطبيعية .

٣ — عدم الاحتلال الاجنبي من الشرق كان أم من الغرب[٢٩] .

انتصار فكرة السودا القومية

ان الوطن الذي ارادهُ السودا ، الوطن الحلم ، رأى النور.

لبنان الكبير . استقلال لبنان . انفصال لبنان عن سوريا . حصول لبنان على بقاعه وموانئه المسلوخة عنه . استرجاعه حقوقه المغتصبة . كل هذه الاحلام والمعجزات في الأمس ، أصبحت حقائق . فقد أقر مجلس الحلفاء الأعلى ، المجتمع في سان ريمو ، في ٢٨

نيسان ١٩٢٠ ، الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ، بالرغم من احتجاج الحكومة العربية في دمشق . فقضي بذلك على أماني القوميين العرب في الوحدة العربية الشاملة ، فما استقبل القرار اكثرية المسيحيين في لبنان بالابتهاج .

كما أصدر الجنرال غورو ، في ٣١ آب من العام نفسه ، قراراً ، تحت رقم ٣١٨ ، أعلن فيه حدود لبنان ، من النهر الكبير الى حدود فلسطين ، جنوباً ، أي قضى القرار بضم بيروت ، والبقاع ، ومدن طرابلس ، وصيدا ، وصور ، وملحقاتها ، الى متصرفية جبل لبنان ، وجعلها جميعا دولة واحدة .

وأعلن الجنرال غورو ، في اليوم التالي ، وقد أوكل اليه جعل الانتداب أمرا واقعا ، قيام «دولة لبنان الكبير» ، كدولة مستقلة تحت الانتداب الفرنسي . فقضي بذلك على حلم الداعين الى فيدراسيون لبناني ـ سوري ، برعاية فيصل ، أو فرنسا ، أو الاثنين معا ؛ وفشلت ، في الوقت نفسه ، محاولات بعض الاوساط الاميركية والبريطانية ، في باريس ، لتحقيق مطالب الشريف فيصل العربية في «مؤتمر السلام» ، كما استجاب قرار غورو لمطالب القوميين اللبنانيين ، وعلى رأسهم السودا ، الهادفة الى إنشاء كيان لبناني ذاتي مع حدوده الطبيعية التي فرضتها الدولة المنتدبة ، طبقاً للمادة ٢٢ من عصبة الأمم المتحدة ، على أن يصار الى الاتفاق على المسائل الاقتصادية بين حكومة لبنان والحكومات المجاورة ، كما يحصل في غير مكان من العالم حيث البلدان المستقلة متجاورة فيما بينها[٣٠] .

ويمكن القول ان كل هذه المنجزات اللبنانية التاريخية والمصيرية التي تحققت ، عام ١٩٢٠ ، كان للسودا وحده اكثر من نصف المجهود الذي بذله السياسيون والمناضلون اللبنانيون مجتمعين في سبيل تحقيقها ، وذلك باعتراف مفكري القومية اللبنانية أنفسهم ، وبناء على الوقائع التاريخية التي لها وحدها حق الحكم والجزم .

لكن الضمانة الدولية التي كان يتوخاها السودا ، وجدها لم تتحقّق بين سائر المطالب والأهداف القومية التي سعى اليها وعمل على نشرها . لقد حل محلها الانتداب الفرنسي . والواقع ، إنّ الوفود اللبنانية المرسلة الى مؤتمر الصلح ، ومجلس الادارة اللبناني ، والرأي العام المسيحي ، في جبل لبنان ، كل هذه العناصر طالبت بهذا الانتداب ، أو بما يشبهه ، أو قبلت به ، وعلى يد الدولة الاوروبية نفسها التي اضطلعت باعبائه ، بينما كان السودا ضد

أي شكل من أشكال الحماية من دولة معينة ، بما في ذلك الانتداب نفسه ؛ وانّما كان مع ضمانة تقوم بها عدة دول غربية ، تترك للبنان الاستقلال التام ، وتكون ، في الوقت نفسه ، مسؤولة عن حماية كيانه ونظامه . وهذا ما كان يهدف إليه نظام ١٨٦١ . إلاّ أن السودا ، لم يوضح هذا الامر ؛ ولكن الفكرة التي يتوخاها يمكن استنتاجها من عقيدته العامة ومفهومه العام للاستقلال ولكيفية صيانته . ومع هذا ، يجب الاعتراف بأن السودا عاد فاقتنع بالانتداب ، لكن بشروط يصان معها استقلال لبنان التام .

ومن هنا ، أنه في التاريخ نفسه ، أي في ٣١ آب ١٩٢٠ ، تاريخ اعلان الجنرال غورو حدود لبنان الجديدة ، أرسل السودا الى داود بركات ، رئيس «الاتحاد اللبناني» كتابا يقترح فيه شن حملة لتحقيق المطلب السياسي بعد أن تم المطلب الجغرافي ، فيكون للبنان حاكم وطني ، ومجلس نواب وطني ، ووزارة وطنية وقضاء كامل وطني ، وتحدد المشورة التي تعرضها الدولة المنتدبة ، طبقاً للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم [٣١] .

الحواشي

(١) قوام هذا الاتحاد : اسكندر عمون ، رئيس ، انطون الجميل ، أمين سر عام ، وحيدر معلوف ، أمين صندوق . أما اعضاؤه فهم جبرائيل تقلا ، داود بركات ، حبيب غانم ، محمد تلحوق ، خليل أبي اللمع ، بولس مسعد ، حبيب يزبك ، جرجس حنا ، سليم أبو عز الدين ، سليم البستاني وسامي الجريديني .

(٢) تألفت اللجنة في الاسكندرية في ٢٨ — ٣ — ١٩١٠ ، وقوامها : حبيب انطونيوس ، رئيس ؛ ويوسف السودا ، سكرتير عام ؛ وديمتري سابا ، أمين صندوق ؛ وحبيب المصني وحبيب المعوشي وجورج شيخاني واسكندر شكري وبطرس لحود ، أعضاء .

(٣) لصاحبها جبرائيل تقلا ورئيس تحريرها داود بركات وأمينها العام انطون الجميل الذي رقّي الى وظيفة سكرتير مجلس الوزراء في القاهرة ، ثم عيّن عضوا في مجلس الشيوخ ومنح لقب باشا .

(٤) لاصحابها يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس ومدير ادارتها خليل ثابت .

(٥) لصاحبيها رشيد شميّل ، حفيد الدكتور شبلي شميّل ، وابنه شارل شميّل .

(٦) لصاحبها ولي الدين يكن .

(٧) لصاحبيها فيليب وفريد الخازن .

(٨) لصاحبها عبود أبو راشد .

(٩) لصاحبها الشاعر بشاره عبدالله الخوري الملقّب بالأخطل الصغير .

(١٠) «في سبيل الاستقلال» ، ص ٢٢ — ٢٨

(١١) المصدر نفسه ، ص ٧ — أفاد السودا في الحوادث المتقدم ذكرها ، وخاصة ، في ما يتعلق بموقف الموارنة من الفتح العربي ، من المراجع التالية :

— جول دافيد «سوريا الحديثة » .

— مقال للاب هنري لامنس ، بعنوان : «استقلال لبنان الذاتي في اربعين سنة» نشر في مجلة (اينفرس) في ١٢ ايار ١٩٠٢ .

— كتاب الاب لامنس «تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» .

(١٢) كانت هذه الدعوة نتيجة الاتصالات التي أجرتها وزارة الخارجية البريطانية مع الشريف حسين بواسطة السير أرثر هنري مكماهون (Mc Mahon) المعتمد السامي في مصر منذ سنة ١٩١٤ ، لحمل الشريف «على الخروج على سلطة الاتراك ، وعلى الابقاء على سلامة الحاج للرعايا المسلمين التابعين للحلفاء ، وذلك بتقديم المعونة له ، وبضمانة استقلاله وسيادته في المستقبل » ؛ حملت هذه الدعوة نفسها شريف مكة على ما سمي بـ «الثورة العربية » ، التي بدأت في العاشر من حزيران ١٩١٦ ، بمعاونة بريطانيا العظمى عسكريا وماليا ، بصورة خاصة ، ضد السلطان التركي ، الذي هو أيضا خليفة المسلمين ، بحيث نزلت هذه الثورة كالصاعقة على كثيرين من المحمديين السنيين في جميع أنحاء العالم ، وبخاصة مسلمي الهند . (راجع في كل ذلك زين نور الدين زين ، «الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان» ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، الفصل الرابع ، ص ٦٠ وما يليها) .

(١٣) «في سبيل الاستقلال» ، ص ٩٥ — ٩٧ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٦٨ — ٧٠ .

— ان هذه السياسة افصحت عنها الاتفاقية المسماة باتفاقية سايكس — بيكو ، ومؤداها أن المنطقة «أ» ، وهي حصة فرنسا من دولة «الرجل المريض» ، في حال اقتسامها ، تشمل المدن السورية : دمشق ، وحمص ، وحلب ، وحماة ، والموصل ، في العراق ؛ كما كانت حصة فرنسا ، أيضاً ، «المنطقة الزرقاء» ، وتشمل سوريا الساحلية ، بما في ذلك ، الاسكندرون ، واللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، وصيدا ، وصور ؛ كما تشمل ، أخيرا ، جبل لبنان ، وقيليقية ، وجزأً كبيراً من أواسط آسيا الصغرى ، ومن طرفها الجنوبي الشرقي «راجع ، بذلك ، الخريطة المسماة «خريطة توضح بنود اتفاقية ١٩١٦»

A. Pingand, *Histoire Diplomatique de la France Pendant la Grande Guerre*, V. III, pp. 223-252.

اتى على ذكر هذه الاتفاقية ومراجعها الدكتور زين زين ، في كتابه «الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان» ، الطبعة نفسها ، ص ٧٠ — ٧١) .

(١٥) «في سبيل الاستقلال» ، ص ١٥٠

(١٦) رفض السودا عام ١٩١٧ القبول بمنصب سفارة حكومة الحسين في باريس ، بحجة أنه لا يستطيع ، معها ، التوفيق بين خدمة سوريا الكبرى والعمل للبنان ، (المصدر السابق)، ص ٨٨ — ٩١) .

(١٧) المصدر السابق ص ٩٣ — ٩٤ .

(١٨) المصدر السابق ص ١١٨ — ١٢٠ .

(١٩) وذلك في محاضرة ألقاها في حفلة «الاتحاد اللبناني» في الاسكندرية بتاريخ ٣ — ٣ — ١٩١٨ ، وفي كتابه «لبنان بعد الحرب» .

(٢٠) «في سبيل الاستقلال » ، ص ١٢٣ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ١٥٩ — ١٦٥ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٩٧ — ٩٩

(٢٣) ص ١٠٠ — ١٠٤ .

(٢٤) ص ١٠٦ — ١٠٨ .

(٢٥) ص ١١٦ — ١١٨ .

(٢٦) المصدر السابق ص ١١٨ — ١٢٠

(٢٧) ص ١٢٠ — ١٢٤ .

(٢٨) ص ١٣٥ — ١٤٠ .

(٢٩) ص ١٣٤ — ١٤٥ .

(٣٠) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

(٣١) الموضع نفسه .

المرتكز السابع :
الحصول على مزيد من السيادة اللبنانية
إزاء تطبيق نظام الانتداب

تلك خطوط القومية اللبنانية كما ارتسمت لدى السودا في عهد المتصرفية ، وخلال الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وحتى عهد الاحتلال الفرنسي وإنشاء «دولة لبنان الكبير» ، عام ١٩٢٠ . فما هو الدور الذي مثّله الرجل بعد هذا التاريخ ؟

لقد خيّب الانتداب أمل السودا وأماني القوميين اللبنانيين . كانت أمنية هؤلاء أن تعاضد فرنسا لبنان ليَسير حسب سنّة النشوء والارتقاء ، لا أن تضيق الخناق عليه وتتسلّط على مرافئه الوطنية ، بغية احتوائه . من هنا ، رأى السودا في الانتداب إحتلالاً لبلده ، وفي الوصاية الفرنسيّة كمّاً لأفواه عشيرته عن طريق «دائرة الاستخبارات» ، تحكم بواسطتها المفوضية الفرنسيّة على أحرار اللبنانيين . رأى «الجاسوسية» التي كانت تملأ الاستانة وتغشى قصور يلدز قد عادت الى «الجمهورية اللبنانية» مع مخبري المفوّضين السامين . فخاضها حرباً لا هوادة فيها ، حرباً شرسةً تميّزت بالعنف ، وذلك عبر مقالاته الافتتاحية في جريدة الراية[1] .

وفي هذه المقالات تتراءى لنا مواقف السودا من الانتداب ، منذ السنوات الاولى من عمر الجمهورية اللبنانية . فاذا سَحبته السلطة من قائمة الانتخاب في عهد الرئيس شارل

دباس ، تجنّباً «لشره» ، لتسترضيه بتعيينه عضواً في مجلس النواب ، عاد يهاجم السلطة إياها .

«صمدنا طيلة ثلاث سنوات في معارضة كل مشروع مخالف لمصلحة البلاد ، فانكرنا على رئيس الوزارة إده حق التشريع ، وخالفنا في اعتماد مطار طرابلس ، وفي اعتمادات الكورنيش ببيروت ، وفي إلغاء محاكم الأقضية ، وفي إلغاء المدارس الرسمية ، وفي إلغاء دوائر الصحة ، وفي مشترى المشتل في بيروت ، وفي مشروع الإحصاء ، قبل إقرار الذيل الخاص بالمهاجرين ، الذي قدمته الى المجلس في جلسة ١٧ كانون الاول ، سنة ١٩٣١ ، وفيها تصدق رغم معارضات لا محل لذكرها ، وعلى هذا الذيل بني احصاء المهاجرين ، وقد كان القانون اغفلهم عمداً ، على ما يعرفه المطلعون ..»(٢) .

رأى في الانتداب محاولات لتذويب لبنان ، لاستثماره ، لاستعباده ، لإذلاله ، لدوس حرياته وكرامته وإفقاره . ووجد مشروع إلغاء المدارس الرسميّة وإلغاء محاكم الأقضية ، وإلغاء دوائر الصحة ، من بين الوسائط المستخدمة لتحقيق هذه الاهداف النكراء ، فثار ودوى صوتهُ يهدر كالرعد في وقتٍ كانت قبضة من أصحاب الأسماء اللامعة في دنيا السياسة يزحفون على بطونهم لاستدرار إبتسامة من عملاء المفوض السامي ، وهاجسهم الأوحد استرضاء السلطة المنتدبة ، مسلّمين بكل ما تقدم عليه للقضاء على جرثومة الحياة في جسم الأمة الموات ، لا تتعدّى نظرتهم الى لبنان فلك اشخاصهم ودائرة مصالحهم الذاتية ، والسوط مهيمن فوق الرقاب وتسلط الحاكم الفرنسي وغطرسته يتحكّمان بالعباد ويَسوقان الناس كالنعاج .

فكان «مشروع الدستور» يضعهُ السودا ، عام ١٩٣٤ ، بتكليف من البطريرك عريضة لمحاربة احتكار السلطة للدخان ، وقد قدمه البطريرك الى المسيو دي مارتيل فور وصوله ، في عام ١٩٣٤ بالذات ،

وكان «الكتاب الاخضر» ينشرهُ السودا ، أيضاً ، عام ١٩٣٦ ، في الموضوع نفسه ، وقد أثار على صاحبنا حفيظة المفوضية الفرنسية وحفيظة وزارة الخارجية .

وكان ... وكان .... وكان ....

وكانت مقالات السودا الهائجة المائجة في جريدته «الراية» عام ١٩٣٨ التي تعرّضت للتعطيل وللاضطهاد من لدن الدولة المنتدبة .

في مقال نشرته الجريدة المذكورة ، في هذه الفترة ، بعنوان «الكلاب الجائعة» ، كتب السودا :

«من أجل أية وزارة أو نيابة ، يا أولاد الافاعي ، وقفنا في مصر ، لعشرين سنة خلت ، ننادي في «الاتحاد اللبناني» «باستقلال لبنان التام في حدوده الطبيعية ، بضمان الدول ، وقد نزل الى الميدان ، يتجاذب القوم ، خيال الانكليز الوهاج ، ودعاية الاميركان ، وجوقة شرف الفرنسيس ... ومن شهود الموقف يومذاك اميل إده وبشارة الخوري » .

في نفس المقال ، يخاطب السودا سلطات الانتداب العليا بالقول :

« واذا كانت الاعلانات ، يا أذلّ من نعال ، تسخر هذا القلم ، فاين هي الاعتمادات المهدورة بالالوف والملايين في المفوضية ، في الوزارة ، في الشركات ، لا يجرّبون بها منذ عشرين سنة تَسخيره واستعباده ، في جملة ما يسخرون ومن يستعبدون .

«ما فاخرنا بني قومنا في واجب قضيناه ، لبلادنا ، بل صناهُ ، العمر ، سراً دفيناً عن أقرب المقربين ، وفي اعتقادنا ان المباهاة بالواجب ينتقص منه . انما هم المفترون الانذال يحرجون فيخرجون ، والمسيطرون الخفاف يستفزون فيستهدفون . يرتفع صوت الحر فيخفتوه . يبرز الجبين الطاهر فيلطخوه . ويزأر الليث فيهوشون عليه الكلاب الجائعة ....

«ان في الترب رميماً يطلّ من مضاجعه قائلا : «إيه يا أحرار لبنان المجاهدين» ، فتنثني وتتكسّر على مواطىء الاقدام نصال المرجفين »(٣) .

في مقال افتتاحي آخر نشرهُ في جريدته «الراية» في شباط ١٩٣٨ ، بعنوان «بين

أحرار وعبيد» ، جاء فيه قوله :

«دخل الافرنسي البلاد سنة ١٩١٨ على قرع الطبول ، وزغردة النساء . لا هو دخول الفاتح بحد السيف فيحتل ويستعمر ، ولا هو دخول الحليف على شروط محالفة .

«مضت أيام الافراح الاولى ، وسكت الطبل وخفّت الزغاريد ، والتعامل بيننا ماشٍ على غير آساس وشروط ، باعتبار أن بين الأفرنسي واللبناني ما بين اللحم والظفر ... فكانت الشركة بيننا سلسلة مفاجآت مؤلمة ولما تزل .

«نحن في وادٍ بافكارنا واحلامنا ، وهم في وادٍ في استعدادهم وعملهم . الفتاة اللبنانية التي قصّت شعرها لصليبهم الاحمر ، المشردون من اللبنانيين في الحرب ، المعلقون منهم على اعواد المشانق ، الجائعون والعراة والهائمون ، المتطوعة والمستشهدون تحت وابل القنابل ، الخارجون في طليعة الهدنة ، مهللين : «أوشعنا للفرنسيين... مبارك الله في العلى .. هذا مثلث الالوان أطل ...» . الكتاب والشعراء والخطباء الذين سبحوا ومجدوا وضفروا على افواه المدافع القادمة اكاليل الورد وعلقوا على رؤوس الحراب الوافدة اساور الياسمين ، كل اولئك لم يفتكروا الا بالحرية تقص فتاتهم ، من أجلها ، الشعر ، ويحمل زعماؤهم في سبيلها التشريد . من أجلها تدق اعناق فتيانهم ، ويفني الجوع والعري والفاقة نصف قومهم ، ولها يتطوعون ويستشهدون .

«كل اولئك لم يحلموا الا بالاستقلال يهللون له ويسبحون . له يعقدون الأكاليل ، وله يعلقون الأساور .

«قد يكون للقادمين عذرهم . لا هم سمعوا بلبنان ولا عرفوا شيئاً عن اللبنانيين . جاؤوا وفي معتقدهم انهم يحتلون أرض عدو كما أسموها في مطلع الاحتلال ، وانهم يقتطعون فيها غنيمة النصر ، كما اقتطع غيرهم غيرها ، على السنّة التي درج عليها الفاتحون ...

«اما الحقيقة فدعونا نسرها اليكم علناً ..

«الحقيقة اننا نريد ان نكتب ما نريد . ونريد أن نقول ما نريد . ونريد ان نجتمع حيث نريد . ونريد ان ننشيء الاحزاب والنقابات التي نريد . ونريد ان تكون شرعتنا

في بلادنا سارية على الجميع ، وان يكون الجميع عندنا كما هم عند غيرنا متساوين امام القانون لا فارق ، ولا امتياز ، ولا شذوذ ...

«ونريد ان تكون علاقتنا بفرنسا علاقة اصدقاء لا علاقة عبيد ..

«وكل ما دون ذلك تنميق وتدجيل ...

«يعني نريد أن نكون أحراراً .

«يعني نريد ان نعيش في بلادنا

«يعني نريد ان نكون مستقلين

«من أجل هذ طلب لبنان فرنسا ، ومن أجل هذا احبها اللبنانيون ....

«... العبيد البيض القانعون بما قسمهُ الله في الترتيل والتجويد لا يمثلون الاّ خيالات اصنامهم .

«أما الشعب فنعمته في تجسم وازدياد ، وشقة الخلاف تتسع ، والتنافر فاغر عرض اشداقه .

«ولا يمنع الترميق والتلفيق الواقع الذي تلمسون»(٤) .

هذا غيض من فيض مما قذف به قلم السودا نظام الانتداب . وبديهي ، ان من يقوم برحلة عبر هذه الاسطر التي خطّها الرجل ، معارضاً فيها الانتداب ، في جرأتها وحدّة نبرتها وبلاغتها ، ليتراءى أمامه خيالات عظماء الصحفيين والمفكرين والسياسيين التحرريين في تاريخ المنطقة الحديث والمعاصر ، من جمال الدين الافغاني ، الى أديب اسحق ، الى عبدالله النديم ، الى مصطفى كامل ، الى سعد زغلول .

مداميك السيادة اللبنانية بنظر السودا

يزأر السودا ضد ممارسات الانتداب الفرنسي ، انتصاراً للكرامة الوطنية والسيادة الوطنية ، فكيف يفهم هذه السيادة وتلك الكرامة ؟

يفهمها في لبننة المؤسسات في لبنان على اختلافها وتنوّعها ، من عسكرية ، وثقافية ، ومالية ، وادارية ، واقتصادية ؛ في إخضاعها لسلطة الدولة اللبنانية ، وذلك ، تتمة لاستقلال الكيان السياسي الذي تحقّق ، وتكملة لحريات الأمة اللبنانية في كفاحها عبر التاريخ الطويل ؛ فاستقلال لبنان لا يكون باستقلال كميّة من الامتار المرّبعة عن الخارج ، لا يكون أفقياً ، بل عامودياً ، ومن الداخل .

هذه المرحلة من نضال السودا التي بدأت في عهد الانتداب ، هي تتمّة لتلك ، شرع بها في عهد الاحتلال الفرنسي ، من عام ١٩١٩ الى عام ١٩٢٦ ، وقد واجه فيها الدولة المنتدبة في ذروة بطشها وسطوتها ، وذلك ، خاصةً ، باسم «الجبهة الوطنية» ، في منشوراتها الصادرة في ٣١ تشرين الاول و١٥ كانون الاول من عام ١٩٣٦ [٥] ، لتوجيه الوفد اللبناني المفاوض بشأن المعاهدة المنوي ابرامها مع فرنسا في العام نفسه ، على غرار المعاهدة السورية الفرنسية .

لكن ، فيما كان السودا يلّح على انتزاع السلطة والصلاحيات من أيدي المنتدبين والموظفين المستثمرين الفرنسيين ، في مختلف مرافىء الاجتماع والاقتصاد ، لجعلها في أيدي الحكومة اللبنانية ، لم يكن يكفّ ، في الوقت نفسه ، عن الإقرار والإعتراف والاشادة بأفضال فرنسا على لبنان كياناً ووجوداً وبقاءً ، مذكّراً بالصداقة اللبنانية الفرنسيَة التاريخية وبكون فرنسا محرّرة الشعوب ، ومصرّحاً بوجوب تناسي المآخذ التي للبنان على الانتداب الفرنسي ، والابقاء على صورة المساعدة التي ما فتئت الدولة الفرنسية تقدمها للبنان حتى السنوات الاخيرة من العهد الانتدابي (١٩٣٦) [٦] .

لكن هاجس الاستقلال والسيادة التامين بلغا بالسودا شأواً بعيداً ، خاصةً في افترة ما قبل المفاوضات التي جرت بين الدولة اللبنانية والدولة الفرنسية ، عام ١٩٣٦ ، لعقد معاهدة لبنانية فرنسية تحلّ محلّ نظام الانتداب ، وتؤهل لبنان ، صراحةً وعمليّاً ، الى الاستقلال التام ، داخلياً وخارجياً ، بحيث يصبح عضواً في إسرة «الامم المتحدة» ، نظير غيره من الدول الحرة ، وهي معاهدة ارادها السودا محققة لاماني لبنان في السيادة على أكمل وجهٍ وأتمّه ، إسوةً بالمعاهدة السورية الفرنسية التي أُبرمت ، من قبل ، وكانت في مصلحة لسوريا ، بالدرجة الأُولى .

وممّا يذكر ، من هذا القبيل ، أن الرئيس إميل إده كان قد الحّ على الكونت دي مارتيل (Le Comte de Martel) ، منذ سفر الوفد السوري الى باريس ، وقبل أن يوقّع ، في التاسع من أيلول ، المعاهدة مع الحكومة الفرنسية ، كان قد ألحّ عليه في مواقف متعددة ورسمية على بدء المفاوضات مع لبنان لإبرام معاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية السورية .

وجاء تصريح بيار فيانو (Pierre Vieno) ، بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩٣٦ ، وهو نائب أمير سر الدولة الفرنسية للشؤون الأجنبية ، يطمئن خواطر إده بالشأن المذكور .

الى ذلك ، فان المادة الاولى من نظام الانتداب تعترف لكل من لبنان وسوريا باهليتهم للاستقلال ووجوب إعداد انفسهم له .

فالمعاهدة مع فرنسا ينبغي أن تقوم على تأكيد وحدة الأرض اللبنانية ، والاستقلال السياسي والضمانة الدولية القائمة على إدخال لبنان في عضوية الامم المتحدة ، وذلك الى جانب التعايش والتعاضد بين الطوائف اللبنانية .

وما ازف يوم ١٥ تشرين الاول حتى ألّف الرئيس إده الوفد اللبناني الى القيام بالمفاوضات بشأن المعاهدة المذكورة .

وتألف وفد الحكومة من الرئيس إميل إده نفسه وعضوية الامير خالد شهاب رئيس مجلس النواب والدكتور أيوب ثابت سكرتير الدولة . وألحق بالوفد هذا بعثة برلمانية مؤلفة من سبعة اعضاء منتخبين من المجلس في جلسة استثنائية له ، ومنتمين الى الطوائف الست ، وخاصة ، الطائفة المارونية منها التي تمثلت بنائبين . وقد انتخب الشيخ بشاره الخوري رئيساً لهذه البعثة .

ووقّعت المعاهدة في ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٦ ، وأبرمها مجلس النواب اللبناني في الرابع والعشرين من الشهر المذكور .

وهذه المعاهدة دعيت «معاهدة صداقة وتحالف» ؛ وهي مؤلفة من تسع مواد ، يلحق بها «اتفاق عسكري» من ست مواد ، وخمسة بروتوكولات ، ومن «تبادل رسائل» بلغ مجموعها الاثنتي عشرة .

وأدرك السودا أن المعاهدة التي أبرمت بين فرنسا والجمهورية السورية حققت مصلحة السوريين الاستقلالية ، وتوخّى الاّ تمسي المعاهدة التي ستعقد بين فرنسا ولبنان أقلّ منفعة بالنسبة الى هذا البلد منها إلى سوريا .

فما هي الأهداف التي تحقق السيادة القومية اللبنانية ، بنظر السودا ، والتي ينبغي أن تنصّ عليها المعاهدة بين لبنان وفرنسا ؟

من خلال النشرات التي أصدرها الرجل في هذه المناسبة ، وبناء على النداءات التي وجهها ، بصفته رئيس «الجبهة الوطنية» الى الشعب اللبناني آنذاك ، والى رئيس الدولة اللبنانية ، والى اللجنة اللبنانية المكلفة بالقيام بالمفاوضات مع فرنسا للاتفاق على المعاهدة المذكورة ، يمكن القول أن السودا يبتغي أقصى ما يمكن من السيادة والاستقلال للبنان ، في ظل الانتداب الفرنسي ، وذلك بلبننة المؤسسات القائمة في لبنان ، على الشكل الآتي :

١ ــ وجوب تحديد مدة البعثة العسكرية الفرنسية

(المادة ٣ من الاتفاق العسكري) .

إن المادة ٣ من الاتّفاق العسكري الذي تضمنّته المعاهدة بين لبنان وفرنسا مع ملحقاتها تقول بوضع بعثة عسكرية فرنسية ومدرّبين واختصاصيين فرنسيين بتصرّف الحكومة في لبنان ، للاستعانة بهم في إدارة وتنظيم الجيش اللبناني ، والجندرمة اللبنانية ، والبحرية اللبنانية ، والطيران العسكري اللبناني . وقد أُنيط بهم كل ما يتعلّق بمهمّتهم الادارية والنظام العام برئيس البعثة .

الى ذلك ، فان المدة التي يجب ان تقوم خلالها البعثة بأعمالها لم تُحدّد ، الأمر الذي لا يتفق والاهداف المقترحة . لأن كل تدريب ، بحسَب السودا ، ينبغي أن تكون له نهاية . وهو يرى أن مهلة خمس سنوات كافية لكي يقوم بعدها اللبنانيون باعباء هذه الوظائف .

ثم إنّ مهمة الجندرمة لم تسلم الى لبنان الا لمدة مؤقتة ومحدودة ، وقد جدّدت باستمرار .

في ما عدا الناحية التقنية ، يقترح السودا بأن تخضع البعثة العسكرية للحكومة اللبنانية اذا كانت هناك رغبة بالاّ تمسّ السيادة اللبنانية .

ويدعم السودا نظريته بالاحوال التي جرت عليها المساعدة العسكرية للبنان في نظام المتصرفية لعام ١٨٦٤ ، وفي بروتوكول أهانس باشا (Ohanès) ، المعقود في ١٥ كانون الأول ١٩١٢ ، وقد كانت سيادة لبنان مؤمنّة فيهما ، على هذا الصعيد ، الى حدٍّ كبير[٧] .

٢ ــ وجوب استبدال «القوات الخاصة» الفرنسيّة بجيش لبناني يؤلف لتوطيد الأمن والدفاع عن الأرض اللبنانية .

«القوات الخاصة» (الكتاب رقم ١) هي جيش مؤلف من عناصر مختلفة مجنّدة للبلدان التي تحت الانتداب . فالملحق المذكور يمنح هذه القوات الحصانات والامتيازات المعترف بها للجيوش الفرنسيّة .

ويرى السودا بأنه اذا ما سمحت تقاليدنا مع فرنسا بوجود جيوش فرنسية تحفظ الاستقلال ، فليس جائزاً السماح بوجود قوات مؤلفة على الشكل الذي تألفت فيه . فاللبنانيون مستعدّون لتكوين جيش لبناني لتوطيد الأمن في بلادهم وللذود عن أراضيهم . ومِن هنا ، ليس من موجب للابقاء على القوات الخاصة في لبنان ، وهي ليست مؤلفة من عناصر لبنانية صَرف[٨] .

٣ ــ وجوب إلغاء الامتيازات الممنوحة لمؤسسَات التعليم ولبعثات التنقيب عن الآثار .

منح الكتاب رقم ٧ ، الملحق بالمعاهدة اللبنانية الفرنسية ، هذه المعاهد والبعثات الحق بالتنعّم بامتيازات يؤمنها لهم النظام الراهن . وهذه المؤسسَات لا تخضع للدولة اللبنانية . واذا ما قبلت سوريا هذا الواقع الشاذ فلأن معظم المعاهد والبعثات المعنيّة بالمعاهدة موجودة في

لبنان لا في الارض السورية .

ويذكر السودا بأن لبنان فتح صدره لهذه البعثات الأجنبية ، وهو لا ينكر أفضالها ومآثرها ، ويولي مؤسسيها وإداراتها الاحترام والتقدير . لكن ، لكل وقت احكامه . إن هذه المؤسسات تؤمن للبلاد تثقيف الشبيبة على هامش اهتمامات الدولة وهمومها وبعيداً عن مراقبتها .

ثم إنّ الحكم المستقل ، بنظر السودا ، لا يمكنه الوقوف ازاء تربية ابنائه موقف اللامبالاة .

والمراقبة اللبنانية الرسمية يجب أن تشمل التعليم والتنظيم والتوجيه في هذه المؤسسات الأجنبية .

بل يجب أن تعاوننا هذه المؤسسات لنيل الاستقلال .

أما في ما خصّ البعثات الأثرية فأهميتها ، بنظر السودا ، تفوق أهميّة المؤسسات المذكورة آنفاً . فهي التي تملك الكنوز الأثرية التي لا تُثمّن ، شروعاً بالعصور الفينيقية . ولبنان أفقر من أن يستغني عنها ، ومن هنا يجب إدخال هذه البعثات الإطار القانوني (٩) .

٤ — وجوب لبننة الشركات ذات الامتياز (Sociétés concessionnaires)

يلاحظ السودا أن الكتاب رقم ٨ الملحق بالمعاهدة يوجب احترام الحقوق المعتبرة مكتسبة لهذه الشركات ، وهي :

أ — «مصرف سوريا ولبنان الكبير»

يرى السودا أنه إذا لم يكن من مفرّ ، بحسب الاختصاصيين ، من التساوي بين النقد اللبناني والنقد الفرنسي ، فيجب ، على الأقل ، السهر على مصالح لبنان ، وذلك بحمل المصرف على تقديم تغطية كافية لمصلحة الدولة اللبنانية . وهذه التغطية لا يمكن أن تتدنّى عن الستين بالمائة . فمصرف فرنسا يقوم بتغطية تتراوح بين الستين والخمسة والسبعين بالمائة ،

أما الباقي فمؤمن بواسطة العملات والسندات المودعة في الخزائن والخاضعة لرقابة الدولة الفرنسية .

ويرى السودا أيضاً أن قيمة إصدار مصرف سوريا ولبنان بلغت السبعة عشر مليوناً من العملة الورق المتداول بها ، إلا إنّه لم تتعدّ تغطية هذه القيمة في لبنان ، الخمسة بالمائة ذهباً . أما التغطية الباقية والبالغة قيمتها الخمسة والتسعين بالمائة فمؤمنة من قِبَل البنك الفرنسي ، بسَندات فرنسية فقط ، بضمانة البنك الفرنسي ، مما يجعل هذه التغطية الفرنسية تتأثر بتقلّبات اسعار الفرنك الفرنسي . ثم أن هذه السندات ليست حتى في بيروت ، ولا توجد أية رقابة للدولة اللبنانية عليها .

ان وَضعاً كهذا غير مقبول ، في نظر السودا ، ويجب حمل السلطة المنتدبة على تأمين تغطية ذهبية لا تقلّ عن الستين بالمائة ، وان يكون مستودع السندات والنقد النادر في بيروت ، وخاضعاً لرقابة الدولة اللبنانية ، وإلاّ فعلى لبنان أن يكون لهُ مطرفه الخاص بالاصدار.

ب — سكك الحديد

ينتقل السودا الى معالجة موضوع الخطوط الحديدية البرّية ليجد أن لبنان لم يخضع للضمانة الكيلومترية الا بعد الحرب العالمية الاولى . في العام ١٩٢٦ منح الحاكم الفرنسي في لبنان سكك الحديد إمتيازات مذهلة لم تأخذ السلطة التشريعية اللبنانية نفسها علماً بها .

من هنا حصلت ادارة سكك الحديد على إعانات سنوية بلغت المليون ليرة ورقاً . وإزاء الضجة التي أثيرت خفّضت المساعدة الى نصف مليون ليرة يتحمّلها كل من لبنان وسوريا بالتساوي ، بينما الخط الذي يجتاز لبنان ، من حيث صغر مساحته ، لا يمكن أن يقارن بالخط الذي يجتاز الارض السورية .

فالمفاوض اللبناني ينبغي الاّ يسلّم بهذا الوضع الشاذ

ج — وجوب إلغاء إدارة حصر التبغ والتنباك

حمل السودا على امتيازات حصر التبع والتنباك ، كما ابتكرتها السلطة المنتدبة . ورأى

أن هذا النظام الاحتكاري لهاتين السلعتين وضع بقرار من المفوض السامي ، وذلك بتاريخ ٣٠ كانون الاول ١٩٣٥ ، وهو نظام يلحق بالبلاد أشدّ الأضرار ، فضلاً عن مخالفته للقانون . فالمادة ١١ من وثيقة الانتداب تحظّر على السلطة المنتدبة انشاء نظام احتكارات عامة ، بل إنشاء أي احتكار لا يصدر عن السلطة المحلية ، بينما أن قانون حصر الدخان والتنباك مصدرهُ المفوض السامي الفرنسي مباشرة .

د ــ وجوب لبننة بقية شركات استثمار المنافع العامة

ويروح السودا يعدّد سائر شركات الاستثمار للمنافع العامة ، من شركة استثمار مرفأ بيروت ، الى شركة استثمار المنائر ، الى شركات استثمار مياه بيروت ، والتلفون ، وخطوط النقل الكهربائي المشترك ، والكهرباء ، بحيث يترتب على المفاوض اللبناني مسؤولية مناقشة الوضع الحقيقي لهذه المؤسسات ، لجهة رساميلها الاسمية ، أو المدفوعة ، وكذلك ميزانياتها السنوية ، ونفقاتها العامة والرواتب الخيالية التي يتناولها مدراؤها وموظفوها الكبار ، الحديثو الجنسيّة اللبنانية ، يتحتّم الاطلاع على كل ذلك لمعرفة ارباحها الحقيقية وأسباب العجز المالي الذي تعانيه . وحينئذ يلجأ الى اعادة النظر بدفاتر الشروط والغاء بعض الامتيازات المفرطة التي تهدر معها مصالح المواطنين ، وبكلمة ، يُصار الى إخضاع الشركات المذكورة لمراقبة الحكومة اللبنانية(١٠ * .

هـ ــ وجوب إلغاء المحاكم المختلطة

رأى السودا أن وضع المحاكم المختلطة قام قبل الحرب العالمية الاولى للحفاظ على مصالح الدول العظمى في قلب الدولة العثمانية ، وعليه ، فالابقاء على هذه المحاكم في قلب «الجمهورية اللبنانية» المتدرّجة نحو الاستقلال التام ، فيه مساس بسيادة الدولة اللبنانية ، وقد سبق أن طالبت بتحقيق هذا المطلب نقابة المحامين اللبنانيين ، عام ١٩٢٣ ، يوم لم تكن «الجمهورية» قد أبصرت النور بعد ، وكانت ما تزال «دولة لبنان الكبير» .

٦ ــ جعل العربية اللغة الرسمية الوحيدة

شعر السودا بضرورة وجود اللغة الواحدة في كل ادارات الدولة ، خاصةً في القضاء[١١] . ففضلاً عن التشابك الذي يولّده استخدام لغة أجنبية ، وإن الفرنسية ، الى جانب لغة البلاد ، في المصالح المختلفة ، والوقت الذي يهدر في ذلك ، فإن هذا الوضع يمسّ السيادة القومية اللبنانية[١٢] .

٧ ــ وجوب إخضاع الموظفين الفرنسيين لسلطة الحكومة اللبنانية

يعترف السودا بوجوب الافادة من اختصاص الموظفين الفرنسيين في حقل الادارة العامة ، في البلاد ، كما نص بذلك ملحق نظام الانتداب (رقم ٢) ، ومن هنا عدم مطالبته بالاستغناء عن هؤلاء المستشارين ، إلا أنهُ يأبى أن يتجاوز الخبير الفرنسي مهمته التقنية ليتحكّم بالموظفين اللبنانيين العائدين إليه ، فارضاً نفسه دولة في قلب الدولة ، فطالب باخضاعه ، لسلطة الحكومة اللبنانية ، إسوةً بالموظف اللبناني نفسه .

٨ ــ وجوب الحفاظ على صلاحيات السلطة التشريعية الوطنية

تبين للسودا أن المفوضية العليا الفرنسية تمارس السلطة التنفيذية في مختلف الحقول والقطاعات ، وذلك بالرغم من البيان الذي اذاعهُ الجنرال غورو في مجلس النواب اللبناني ، بتاريخ ٢٥ ايار ١٩٢٢ ، والذي يقضي بأن تخضع كل القوانين والضرائب خضوعاً مسبقاً للمجلس النيابي ، بمعزل عن معرفة ما اذا كانت السلطة العليا تملك أو لا تملك حق التشريع في بلاد مستقلة . فطالب بأن يأخذ الوفدان الفرنسي واللبناني ، في المعاهدة المنوي عقدها بين فرنسا ولبنان ، علماً بهذا الحق المعترف به للبنان من لدن السلطة المنتدبة .

٩ ــ وجوب الحفاظ على دستور لبنان

ندّد السودا بلجوء السلطة المنتدبة الفرنسية الى تعليق الدستور اللبناني في ظروف يعرفها

متتبعو السياسة اللبنانية . وحثّ المفاوض اللبناني على إعادة الحرمة للدستور فور إقرار المعاهدة . واقترح الدعوة ، في مثل هذه الحال ، الى انتخاب جمعية دستورية ، كما لفت النظر الى أن الدستور السوري لم يعلّق مطلقاً .

١٠ ــ وجوب إعادة الجنسية الى المغتربين اللبنانيين

عرض السودا لمعاهدة لوزان ، مؤكداً بأنها انتزعت من لبنان نصف أبنائه المغتربين ، بنزعها منهم جنسيتهم الأصلية ، ودعا المفاوض اللبناني الى السعي لإقرار نص يعاد بموجبه المغتربون اللبنانيون الى حظيرة الأسرة اللبنانية .

١١ ــ وجوب تحديد مدة المعاهدة الفرنسية اللبنانية ومدة الاتفاق العسكري الفرنسي اللبناني

لاحظ السودا أن المادة السابعة من المعاهدة السورية الفرنسية تشير الى أن هذه المعاهدة مع ملاحقها مدتها خمسة وعشرون عاماً .

كما لاحظ ، من خلال قراءاته في الصحف الصادرة آنذاك ، أي في العام ١٩٣٦ ، وخاصةً في الفصل الأخير من هذا العام ، أن المعاهدة اللبنانية الفرنسية قد تمسي مدتها مائة سنة . فاذا ما حدّدت هذه المعاهدة بخمس وعشرين سنة ، مثلاً ، فتجديدها يكون الزامياً ، خاصة في ما يتعلّق بمبدأ المحالفة والاتفاق العسكري ، بحيث تصبح المعاهدة ، في وضعٍ كهذا ، أبديّة .

أما القول بأن المعاهدة المستمرّة في مدتها الى ما لا نهاية له هي في مصلحة لبنان لا فرنسا ، فأمر يراهُ السودا مخالفاً للواقع . ويُقصَد بهذا القول ، في نظر السودا ، أن تحديد مدة المعاهدة بخمسة وعشرين عاماً فقط ، يجعل لبنان ، بعد انقضاء هذه المدة ، دونما حماية وتحت رحمة القدر . الأمر الذي ولّد الخوف عند فريق من اللبنانيين ، الى حدّ البحث عن ضمانات للمستقبل . ذلك ان موقف السودا يختلف .... عن موقف هؤلاء . ففي زعمه ، اذا ما أُسيء الى استقلال لبنان في المستقبل ، أي بعد إنقضاء مدة

المعاهدة وطي صفحة الانتداب ، فالضرر سيلحق بالشرق بأسره ، في آن .

وأما المحالفة المؤقتة مع فرنسا فيجدها السودا في مصلحة لبنان للاسباب الآتية :

كما استطاع لبنان المحافظة على نفسه بعر الأجيال ، دونما احتلال عسكري ، فهو يستطيع أن يفعل الشيء نفسه في المستقبل . أما اذا قصد جعل لبنان معسكراً محصّناً فإن هذا البلد ، في زعم السودا ، لم يتطلّع يوماً الى هذه النهاية . وفرنسا نفسها لم تعلن قط مواصلتها التحالف مع لبنان بهذا الشكل ، هذا فضلاً عن أن الدول الكبرى لها رأيها كذلك في مثل هذه التحالفات ، خاصةً أن المعاهدة لا يمكن أن توضع موضع التنفيذ إلا بعد قبول لبنان في عصبة الامم التي مقرّها في جنيف ، وللدخول هذه العصبة لا بد من موافقة ثلثي الدول الاعضاء فيها ،

ويضيف السودا : اذا كان القصد حماية لبنان ، فان هذا البلد عليه ، كما على سواه ، أن يعتمد على المعاهدات . بحيث يعقد مثلها ، على أساس الصداقة ، مع كل جيرانه .

وهكذا يصبح لبنان ، في زعم السودا ، جزءاً من هذا الاتفاق الشرقي الذي يخطط ، فلا يعود يخشى أمراً من هذه الناحية ، وهو مضمون بموجب الالتزامات الدولية .

أما إذا كان الخطر من البحر ، فيصبح حينئذٍ عالمياً ؛ والدولة التي ستسود في البحر المتوسط يمكنها وحدها تهديد لبنان ، في مثل هذه الحالة ؛ وعليه ، فوجود جيش فرنسي في لبنان لا جدوى منه لا بالنسبة الى هذا البلد ولا بالنسبة الى فرنسا .

وأياً كان الأمر ، فأمن لبنان قيمته قيمة المواثيق الدولية . وهنا ، يستشهد السودا بما سبق أن اعلنهُ في كتابه «في سبيل لبنان» ، الصادر في الاسكندرية ، عام ١٩١٨ : «إن لم يحترم الحق العام وخرقت المعاهدات الدولية فلا جدوى من طلب حماية لبنان من دولة ما . فهذه الدولة نفسها قد تضطرّ الى خوض حرب مع سواها بحيث يمسي مصيره معلقاً بمصيرها . فاذا ما استطاعت الحماية صيانتنا من جيراننا فانها تعجز عن حمايتنا من جيران الدولة الحامية . وقد يصبح لبنان عندئذٍ ساحة قتال ، وكل شيء تحت رحمة البوارج الحربية . ماذا يمكنه أن يخشاهُ لبنان ، في هذه الحالة ، أكثر مما لو كان مستقلاً ؟ »ص ٤٣٩) .

ومن هنا ، يستنتج السودا أنه اذا ما قصد المفاوض اللبناني ربط الحاضر ، فليس باستطاعته تقييد الاجيال القادمة بانتزاع أي أمل لهم بالاستقلال التام ، كما هو الحال الى هذا اليوم[13] .

الخلاصة

تلك هي مواقف السودا من الانتداب الفرنسي ، لجهة الاستقلال والسيادة اللبنانية .

وبديهي القول أن موقفه من المؤسسات والشركات التي أنشأها الانتداب وأدار دفتها على حساب المصلحة والسيادة اللبنانيين من عسكرية ، وثقافية ، ومالية ، واقتصادية ، وقضائية ، وادارية ، وبشرية ، بديهي أن موقفهُ من هذه جميعاً تتمة لكفاحه من أجل الاستقلال التام ، على الأقل ، في الداخل ، تتمة لسيادة الأمة اللبنانية على نفسها ، بعد قرون من النضال المرير ، شروعاً من التاريخ الفينيقي ، فاليوناني ، فالروماني ، فالبيزنطي ، فالعربي ، وعبر سلطان المماليك ، فالعثمانيين ، فالقائمقاميتين ، فعهد المتصرفية ، فعهد الحكم التركي المباشر ، اثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، حتى «دولة لبنان الكبير» و«الجمهورية اللبنانية» ، بل حتى عام ١٩٣٦ ، تاريخ المعاهدة اللبنانية الفرنسية وموقف السودا منها .

أما موقف الرجل من مبدأ الانتداب نفسه ، أي هذا النوع من الوصاية من دولة طالب بها اللبنانيون باصرار وعناد ، بواسطة جمعياتهم ووفودهم وعرائضهم المتوجهة الى مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ ، وبجميع الأساليب التي استطاعوا اليها سبيلاً ، خاصةً منذ بداية حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، واثناءها ، وبعدها ، وحتى تاريخ المعاهدة اللبنانية السورية لعام ١٩٣٦ ، بل حتى عام ١٩٤٣ ، باكثرية فريق منهم ، الساحقة ، أما موقف السودا من مبدأ الانتداب بذاته ، وتحريضه على الاستقلال التام في الخارج ، كما في الداخل ، فأمر يدعو الى التساؤل حول ابعاده ويثير شؤوناً وشجوناً من الخطورة بمكان .

كان السودا معجباً بل معتزاً بعهد المتصرفية ، كون استقلال «الجبل» آنذاك ضمنته دول سبع . وما أن اندلعت الحرب العالمية الاولى حتى راح يحث رفاقه في «الاتحاد اللبناني» ،

والقوميين اللبنانيين في الجمعيات اللبنانية المناضلة في ديار الاغتراب لأجل «لبنان الكبير» ، على المطالبة بلبنان ، بحدوده «الطبيعية» «والتاريخية» مع «ضمانة دولية» . فلما تقرر الانتداب الفرنسي على كيان لبنان الذي اراده ، حسب المواصفات التي توخاها ، تخلّى عن المطالبة بالضمانة الدولية ، أي الضمانة المؤلفة من عدة دول ، ورضي بضمانة دولة واحدة هي فرنسا ، حتى اذا ما رأت «الجمهورية اللبنانية» النور ، عام ١٩٢٦ ، شرع يعمل للاستقلال التام حتى عن الدولة الوحيدة ضامنة الكيان الجديد ، بل راح لا يؤمن بأية ضمانة دولية خاصة بلبنان ، كما كان الحال ، عام ١٨٦١ . والأغرب من ذلك ان «لبنان الصغير» المتجانس النزعات ، في عهد المتصرفية ، اقتضى لهُ ضمانة دولية من دول سبع ، فكيف يحيا «لبنان الكبير» لعام ١٩٢٠ المتناقض مع نفسه ، بدون أية ضمانة خاصة بهِ ، ما خلا عصبة الامم المتحدة ؟

أما في ما يتعلق بموقف السودا من ممارسات نظام الانتداب الفرنسي فلا يخلو من التطرّف ، حتى ليخيّل الينا ، احياناً ، ان هذا النظام لا حسَنة لهُ على الإطلاق .

صحيح أن المفوضين الساميين الثلاثة الاول كانوا من العسكريين الذين برزت اسماؤهم اثناء الحرب العالمية الاولى ، ولم يكن لهم سابق عهد بالادارة وبالحكم ،

وان معاونيهم كانوا موظفين إفرنسيين تدرّبوا على الادارة في المستعمرات الافرنسية ، وحاولوا ممارسة ذلك في لبنان وسوريا ،

وان السلطة كانت ، بالواقع ، في أيدي الافرنسيين ، يحكمون البلاد حكماً مباشراً[14] .

وان الفرنسيين حصروا صلاحيات الحكومة الوطنية بالامور الداخلية ، واحتكروا لأنفسهم علاقات لبنان بالدول الأخرى ، فلم يسمحوا بإنشاء وزارة للشؤون الخارجية ، ووجود ممثلين سياسيين في عواصم الدول الأجنبية ؛ فكان التكلم بإسم لبنان منوطاً بالحكومة الافرنسية وحدها ، والاتفاقات الدولية كانت تعقدها هي نيابة عنه .

وان الفرنسيين لم يسمحوا لحكومة لبنان أن يكون لها من القوى المسلّحة غير الشرطة والدرك ، للمحافظة على الأمن الداخلي فقط ، بينما بقي الجيش المؤلف من فرنسيين ولبنانيين وسوريين وسواهم في أيديهم وبقيادتهم ، وليس للحكومة اللبنانية أية صلة به ،

وان الفرنسيين احتفظوا لأنفسهم بادارة الجمارك ، لاتصال ادارة الجمارك الوثيق بالعلاقات الخارجية ، وبالسياسة الفرنسية العليا ، ولتشكيل الجمارك مورداً رئيسياً لميزانية الانتداب في لبنان ،

كل هذا صحيح ،

لكن يجب الاعتراف بأن البلاد ، عند بزوغ فجر الوجود الفرنسي ، كانت في حالة زريّة لم تعرفها من قبل ، سياسة ، واقتصاداً ، واجتماعاً ، فماذا فعلت فرنسا ، ازاء هذا الوضع المتردّي ؟

— شرعت على الفور في تنظيم الادارة والقضاء واصلاح الموانىء وترميم الطرق وانشاء المدارس والعناية بالصحة العامة والاهتمام بالمشاريع الانشائية [١٥] .

— سنّت الدولة الفرنسية المنتدبة قوانين مدنية عصرية ، منها تلك التي وضعتها للبلديات ، عام ١٩٢٢ ، والتي حلّت محلّ القانون العثماني القديم لسنة ١٨٧٧ .

— علمت السلطة الفرنسيّة على إنشاء مرفأ عصري لمدينة بيروت ، بعد أن كان ميناء بدائياً يعود تأسيسه لفترة ما بين عام ١٨٨٩ — ١٨٩٤ [١٦] .

— تمكّن الفرنسيون ، في السنوات الاولى من الانتداب ، من وضع أسس الادارة اللبنانية الجديدة ، كاعادة تنظيم الدرك اللبناني الذي انشىء في عهد المتصرفية ، واعادة تنظيم رجال الشرطة في بيروت ، وكانت قد أنشئت على يد العثمانيين ؛ وتمكّنت الدولة المنتدبة ، بواسطة قوى الأمن المذكورة ، من إعادة الأمن الى البلاد وإنهاء حالة الشغب والإجرام التي كانت قد اجتاحت مختلف المقاطعات ، أثر الحرب العالمية الاولى .

— أوجد الفرنسيون عام ١٩٢٠ نقداً خاصاً بسوريا ولبنان ، يصدره فرع من البنك العثماني ، دعي بـ«بنك سوريا ولبنان» ، حتى كان «مصرف لبنان» المركزي في ١٩٦٤ ، وربط هذا النقد بالفرنك الافرنسي .

— أدخل المسيو روبير دي كيه (R. de Caix) الأمين العام للمفوضية الفرنسية ، في عهدي الجنرال غورو (١٩١٩ — ١٩٢٣) والجنرال مكسيم ويغان (١٩٢٣ — ١٩٢٤) ،

انظمة كثيرة على الادارة اللبنانية ، منها القانون الانتخابي الذي عمل به حتى مطلع عهد الاستقلال ، والقوانين العقارية التي نظمت حق الملكية في البلاد .

عمل المفوّض السامي الفرنسي هنري دي جوفينيل على إنشاء جمعية تأسيسية منتخبة اختارت لجنة من اعضائها لدرس وتحضير دستور البلاد ، الذي حوّل «دولة لبنان الكبير» الى «الجمهورية اللبنانية» ، وهو الدستور الذي عُدّل أكثر من مرّة ، حتى اتيح بواسطته للبنان أن يصبح ، عام ١٩٣٠ ، «في طريقه الى أن يكون دولة حديثة» وينعم بتقدم سياسي وإداري غير منكور [١٧] .

ذلك ، ان الدستور نص على إقامة نظام برلماني وحكومة ديمقراطية . «وكانت جمهورية لبنان الديمقراطية أول جمهورية من نوعها تأسست في العالم العربي» ، ودستورها «مستمدّ بروحه من الدساتير الغربية الحديثة» ، وينص في شقه الاول ، على انتخاب رئيس للجمهورية وعلى إقامة وزارة مسؤولة ومجلسين ، مجلس النواب ، ومجلس الأعيان .

وهذا الدستور هو الوحيد في العالم العربي الذي لا ينصّ على أن للدولة ديناً معيّناً ويكرّس حرية العبادة المطلقة في لبنان [١٨]

— هناك التقدّم العظيم الذي أحرزته البلاد من الناحية العمرانية ، وخاصةً ، بمدّ خطوط البرق والهاتف بكثافة ، وإنشاء مَطار رياق ، وشبكة الطرق المعبّدة ، و«راديو الشرق» الذي أصبح ، فيما بعد ، «الاذاعة اللبنانية » ، ثم «اذاعة لبنان» .

— هناك الازدهار الذي حقّقتهُ المدن اللبنانية ، وفي طليعتها مدينة بيروت التي قامت فيها الأبنية الضخمة ، وشقّت الشوارع الواسعة فيها ، كما نشطت حركة السياحة والاصطياف في المرتفعات والمناطق الجبلية حيث قامت مدن ودساكر جديدة حديثة يقصدها السياح والمصطافون من جميع الانحاء ، فتدرّ على البلاد الثروات الطائلة .

— هناك إنشاء المدارس الكثيرة ، ووضع مناهج التعليم الجديدة ، وإحداث الشهادات الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، وإقبال الطلاب على دور العلم ، وعلى التخصص الجامعي في أوروبا وأميركا .

— هناك إقبال المرأة على مشاركة الرجل في اعباء الحياة في العمل ، والوظيفة ، والمهن

الحرة ، وخاصة في الجمعيات الخيرية والاجتماعية ، واقبالها ، كذلك ، على التعلم ، بازدياد مدارس البنات وانتشار الثقافة بينهن .

إنما هذا لم يمنع ، حسب ادوارد ف . نيكولي[29] ، كون معظم جهود السلطة المنتدبة انصبّت على إنشاء جهاز إداري وخطة سياسية تضمنان لها البقاء في البلاد أطول ما أمكن من الزمن ، بدلاً من تدريب الوطنيين على القيام بالحكم الذاتي ، بغية تحقيق هذا الأمر يوماً .

الحواشي

(١) انظر :
منشورات «الراية» ، ١ ، المقالات الافتتاحية ، من كانون الاول سنة ١٩٣٧ الى ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣٨ (الادارة — بيروت — ساحة النجمة) (٦٠ ص) ؛ منشورات «الراية ، ٢ ، المقالات الافتتاحية ، من ١ شباط سنة ١٩٣٨ الى ١٦ شباط سنة ١٩٣٨ (٤٦ ص) .

(٢) منشورات «الراية» ، ٢ ، ص ٦ — ٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤ — ٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥ — ٢٠ .

(٥) راجع الكتيب الذي أصدره السودا بعنوان :

(Publications du Front National)

والمتضمّن النشرتين الآتيتين : ١ — مذكرة «الجبهة الوطنية» الى «اللجنة اللبنانية» (٥ — ٣٠)
٢ — بيان ١٥ كانون الاول ١٩٣٦ («الجبهة الوطنية» والأماني اللبنانية») (٣١ — ٤٤) .

(٦) المصدر السابق ، ص ٧ و٨ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٠ — ١٢

(٨) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٠ — ١٤

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٤ — ١٨ .

(١١) كانت المادة الرابعة من القرار رقم ١٣٠٤ المكرر الذي أصدره المفوض السامي عام ١٩٢٢ تنص على أن «العربية والفرنسية مقبولتان كلغتين رسميتين ، بنفس المستوى ، في الادارة وفي القضاء» .

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٩ — ٢١ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٢١ — ٢٧ .

(١٤) إذ كان يوجد في كل وزارة من الوزارات وكلِ دائرة من الدوائر المهمة في الدولة «مستشار» افرنسي ، وكان المستشارون «مستشارين» اسما وحكام البلاد فعلاً ، ينساق لتعليماتهم الموظف اللبناني وينزل عند ارادتهم ، ولهم وحدهم الكلمة الفصل في شؤون الادارة وشجونها ، ذلك انهم لم يكونوا سوى ممثلي المفوض السامي وعيونه في الادارات ، وسلطة المفوض هذا كانت فوق سلطات الحكومة الوطنية ، بل فوق القانون والدستور معاً .

(١٥) أنظر :
Jean-Albert Sorel, *Le Mandat français et l'expansion économique de la Syrie et du Liban*, Paris, 1929, pp. 241-242; Ministère des Affaires Etrangères: *Rapports à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban*, Paris, 1923.

(١٦) Edward F. Nicoley, *A Survey of Economic Conditions in Syria*, (Urbana, 1932), pp. 2-3.

(١٧) Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon under French mandate*, (London, 1958), p. 171.

راجع خاصة كمال الصليبي ، «تاريخ لبنان الحديث» ، الطبعة نفسها ، ص ٢١٠ — ٢١٤ ، وللاطلاع على مزيد من الانجازات التي قام بها الانتداب الفرنسي في لبنان وسوريا ، راجع لائحة المراجع المتضمنة في كتاب إدمون رباط ، بعنوان

La Formation Historique du Liban politique et constitutionnel,

الطبعة نفسها ، ص ٤٢٦ — ٤٣١ .

(١٨) فيليب حتي ، «لبنان في التاريخ» ، الطبعة نفسها ، ص ٥٩٨ — ٥٩٩ .

(١٩) الموضع نفسه ، المرجع السابق ، ص ٥٩٦ .

المرتكز الثامن :
الايمان بالوحدة الوطنية داخل «لبنان الكبير»

كانت ثمة قناعة لدى السودا باستحالة بناء وطن مع الانقسام الطائفي والتفسخ الاقليمي ، داخل هذا الوطن ، وهو المرتكز الثامن لعقيدة الرجل . لقد جاهر بهذا الإعتقاد منذ حداثة عهده بالسياسة ، وعمل له منذ أولى نشاطاته من أجل لبنان ، وذلك ، دونما إنقطاع ، سواء في خطبه أو في كتاباته أو في تحركاته السياسية ؛ وقد ثبت ذلك بالوقائع الآتية :

١ — النشرات السياسية والبيانات والرسائل والدعوات والعرائض التي قام بها منذ عام ١٩١٠ ، والعهد عهد المتصرفية ، ولم يكن «لبنان الكبير» سوى حلم بعيد يدغدغ خياله وخيال القوميين اللبنانيين في مصر والبلدان الأميركية .

٢ — الافتتاحيات التي توّج بها جريدته «الراية» في عامي ١٩٣٧ و١٩٣٨ (١)

٣ — المؤتمر الذي عقده في داره ببيروت مفكرون وسياسيون لبنانيون من مختلف الطوائف الممثلة لبنان ، وانبثق عنه ما دعي بـ «الميثاق الوطني اللبناني» بمقرراته الشبيهة بمقررات ١٩٤٣ ، قبيل ولادة الاستقلال اللبناني التام .

٤ — المحاضرة التي ألقاها في ٢٥ حزيران من عام ١٩٥٦ ، وقد صدرت عن دار الريحاني للطباعة والنشر ، أي قبل ثورة ١٩٥٨ بعامين .

٥ — جهاده المتواصل في سبيل ما اسمي بلبنان الكبير ، وهو كيان يضم أكثريتين ، واحدة مسيحية وأخرى محمدية ، بينما حوى لبنان المتصرفية الذي حاربه السودا ولم يعترف به وطناً كاملاً ، أكثرية ساحقة مسيحية ، وأقلية ضئيلة جداً محمدية .

٦ — إشادته بعهد الامارتين المعنية والشهابية ، لاعتقاده أن الوحدة الوطنية تحققت خلالها .

٧ — محاربته الانتداب الفرنسي والسيطرة الأجنبية على مؤسسات الدولة اللبنانية ، على إختلاف أشكالها وأنواعها ، بغية نيل الاستقلال التام ، وقيام لبنان المستقل على التعايش المسيحي الاسلامي ، بدلاً من قيامه على ضمانة الدولة المنتدبة ، مع ما يعتور ذلك من خلل في ميزان القوى ، داخل لبنان نفسه ، وبالنسبة الى الدول المجاورة .

٨ — قبوله عضوية الوزارة على أثر ثورة ١٩٥٨ ، برئاسة السيد رشيد كرامي ، إيماناً منه بإمكان ردء الصدع بين اللبنانيين ، وقد قسّمتهم الحوادث فريقين متناوئين ، طيلة أشهر طويلة ، تخلّلها تدخل عسكري عربي وانزال عسكري غربي .

وهكذا ، فان السودا في حياته السياسية ، من ألفها الى يائها ، لم يفقد يوماً الثقة بالتعايش بين الطوائف .

ويعرض السودا ، لتبرير وجود الطوائف ، وامكان التعايش بينها ، الحجج الآتية :

أ — ليس من المستطاع منع تعدّد وتنوّع الطوائف في بلد تعيش فيه كل الديانات السماوية .

ب — إن تعايش الديانات المتعددة والمذاهب المتنوّعة في لبنان ليس وليد الأمس القريب . فثمة قرون مرّت كان خلالها لبنان مثلاً في التسامح الديني وإنموذجاً في سعة صدر اللبناني على الصعيد المذهبي .

إلاّ ان السودا لا يعيّن الحقبات التاريخية التي تحقّق خلالها هذا الانسجام وذلك

التسامح ، مع أنه كان قد ذكر في كتابه «في سبيل لبنان»(٢) ، سنة ١٩١٧ ، ان لبنان كاد يكون مقصوراً ، في بدء الفتح العربي ، على المسيحيين ، وهو قد شدّد ويشدّد ، أيضاً ، في مختلف كتاباته ، معيداً ومكرّراً ، بأن اللبنانيين ، في هذه الفترة ، لم يخضعوا للفاتحين المسلمين ، بل قاوموهم ، أولاً ، لوحدهم ، ثم ، قاوموهم مع المردة الذين انضمّوا اليهم(٣) .

كما يذكّر السودا بأنه في الفتح العربي أسكن معاوية الساحل اللبناني أقواماً من الشيعة إستقدمهم من إيران ، محلّ اللبنانيين المسيحيين الذين تعاونوا مع بيزنطا المهزومة بعد طردها من المنطقة ، بحيث بدأ يصبح لبنان لبنانين ، لبنان المناوىء للفاتحين المسلمين ، ولبنان المتعاون معهم ، وهو من دين الفاتح(٤) .

كما يذكّر السودا ، أيضاً ، بأنه اذا ما بدرت من الأمويين رحابة الصدر تجاه لبنان ، أي لبنان الشمالي ، حيث إقتصر على أرضه الوجود المسيحي اللبناني ، فان العباسيين والفاطميين مارسوا المضايقات بحق الوجود المسيحي اللبناني ، مما أسفر عن ثورات ، منها ثورة المنيطرة . عدا أن هذا الوجود بالذات انكمش على نفسه وتقوقع منتظراً الخلاص من الله ، إبقاءً ، على الايمان .

والوطن ، بالنسبة الى المسيحي اللبناني ، بدأ منذ تلك العهود مزيجاً من القلق على الدين والتعلّق بالارض اللبنانية ، واستمر هذا الواقع حتى يومنا هذا . ولولا هذه العقدة لما كان هناك ، بنظرنا ، قضية لبنانية ماثلة ومطروحة على المنطقة وعلى العالم ، منذ القرن السابع(٥) .

مداميك الوحدة الوطنية في رأي السودا

لكن ، على أية مداميك ينبغي أن تبنى وحدة لبنان القومية والوطنية ، في نظر السودا ، داخل «لبنان الكبير» ؟

بعد الوقوف على مؤلفات الرجل التي صدرت ، شروعاً من تاريخ إنشاء «دولة لبنان الكبير» وحتى ما بعد عهد الاستقلال لعام ١٩٤٣ ، مراً بسني الانتداب الفرنسي ، يمكن اكتشاف الشعارات التي دعا اليها رائد القومية اللبنانية ، كأسس للوحدة في

لبنان . ولا بد من التأكيد أن هذه الشعارات تختلف بحسب الفترات التاريخية ، وقد تطوّرت تطوراً خطيراً مع تطوّر نظم الحكم والاوضاع السياسية ، وذلك بمقتضى سنن النشوء والارتقاء .

ومن المفيد أن نورد ، هنا ، حسَب التسلسل التاريخي ، مواقف السودا المنصبّة على الدعوة الى الوحدة القومية والوطنية في لبنان ، على الأقل ، منذ بداية كيان ١٩٢٠ حتى أواخر ايام الرجل ، مبتدئين من عهد الاحتلال الفرنسي للبنان (١٩١٩ — ١٩٢٦) الى عهد الانتداب الفرنسي ، من عام ١٩٢٦ الى زمن إقرار المعاهدة اللبنانية الفرنسية عام ١٩٣٦ ، الى فترة عام ١٩٣٨ ، الى الاعوام الخمسينات من هذا القرن ، وأخيراً الى الاعوام الستينات منه .

شعارات الوحدة إبان سنوات الاحتلال الفرنسي

في الحقبة الاولى من عمر الكيان اللبناني الذي أرسي لعام ١٩٢٠ ، واستمرّ حتى عام ١٩٢٦ ، وعرف بعهد الاحتلال الفرنسي أو الحكم الفرنسي المباشر(٦) ، دعا السودا الى شعارات سياسية هي أقرب الى عقيدته الخاصة بلبنان ورفاقه القوميين اللبنانيين منها الى الجمهور اللبناني المناوىء لفكرة «لبنان الكبير» وتاريخ لبنان الخاص .

وكان لبنان قد تحوّل في أروقة مؤتمر الصلح وفي المواقف المتقلبة المتردّدة للدول المنتصرة في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) التي عقبت ذلك المؤتمر ، من سنجق «جبل لبنان» الذي يضمّ دولة هي الى الوطن القومي المسيحي الصغير أقرب ، والى ذلك ، فقيرة المساحة والاقتصاد ، ولكن متجانسة السكان والميول والأهداف في غالبيتها الساحقة ، الى «دولة لبنان الكبير» المتضمنّة سكاناً جدداً بعدد يساوي سكان الجبل ، على الأقل ، وهي دولة أقلّ ما يمكن القول عنها ، أن نصف أبنائها لا يرضون عنها ، وقد ادخلوا فيها قسراً ، وبمختلف الوسائل . فكان لبنان لبنانين ، والكيان كيانين متناقضين ، بل قل أمّتين ، أو اثنتين لدودتين ، يفصل بينهما التاريخ ، والميول ، والأهداف ، والوضع البيئي والاجتماعي ، على الأقل ، لاسيما ، منذ عهد القائمقاميتين (١٨٤٠ — ١٨٦١) ، في أدنى تقدير .

وكان السودا ، عام ١٩٢٠ ، يمثّل الفريق المنتصر الذي تحقّق كيانه القومي ، فقط من الناحية الجغرافية ، ولجهة الحدود ، وبالنسبة الى الدولة الواحدة . فبات لا بدّ ، والحالة هذه ، من أن يلجأ الرجل الى شعارات ينادي بها ، هي أقرب الى عهد ما قبل «لبنان الكبير» ، بنظر الفريق المناوىء للكيان الجديد ، منها الى دنيا الواقع اللبناني الداخلي ، الجديد ، المتقلقل ، والمتضمّن تيّارات متضاربة ومتصارعة ومتباعدة لا يجمع بينها جامع .

فأية أصوات أطلقها السودا في هذه الفترة من تاريخ لبنان ؟

لقد دعا الى إعتناق مبادىء كان ينادي بها عام ١٩١٠ ، وقبيل الحرب العالمية الاولى ، ومؤدّاها أن الوحدة الوطنية في لبنان الجديد يجب أن تبنى على الشعارات الآتية :

أولاً — على الأرزة .

وهذه الأمنية ضمّنها السودا نشيده الذي يحمل عنوان «يا بني لبنان هيّا» ، وهو من أناشيد كشّافة «السبّاقة»(٧) التي أنشأها بعد رجوعه الى لبنان ، عام ١٩٢١ ، بحيث يقول فيه :

«لا دروزٌ لا يهودٌ — في الحمى . لا مسلمين
«لا نصارى بـل عهودٌ — بـالتـآخي أجمعين
«لا نريـد الطـائفيّـه — إنّهـا الـداء الأليم
«ولتضمّ الوطنيّـه — شعب لبنـان الكريم
«أرزتي والمجد فيـهـا — من قـديم الاعصرِ
«ارفعوهـا وأنشروهـا — في سنـاهـا الاخضرِ» .

«يـا فتـاة الأرز صوني — خضرة الأرز النضير
«انفخي في الشعب روحـاً — تضرم الارض سعير
«قد كفـانـا مـا دهـانـا — من شقـاقٍ وانقسام
«جدّدي فينـا الزمـانـا — وأدفعيـه للأمـام»(٨)

ولم تكن المرة الأولى التي يشيد فيها السودا بالأرز شعاراً . في عهد المتصرفية بالذات افسحت جريدة «المقطم» المجال في عددها الصادر بتاريخ ١٩١٠/١/١٠ لقصيدة طويلة نظمها الرجل في محاربة إنضمام الجبل الى تركيا ، جاء في مطلعها :

«بـأرزك ذي المجد التليـد المجدد
يطـل على الأجيـال أطلال سيـد
«... بـسامـة أقيـال اذا طـالها السهى
تقـاصر عنهـا وهو بـالخزي مرتـد
«وعطشى الى نهر المجرة ساقهـا
طلاب المعـالي قـائلات لها ردي
«... يمينـاً نفـديـه بما هـان أو غلا
بـأرواحنـا استقلال لبنـان نفتـدي»

وفي آخرها :

«... ومن شاء منـا أن يقيـد نفسه
ومن حَ لـه من قـدمـه فليقيـد
«ويترك لنـا الجبـال عزيزة
بها نكتفي فلتكف شر التعبـد» (٩)

كذلك ، في الحفلة التي كانت أحيتها جمعية «الاتحاد اللبناني» في القاهرة ، بتاريخ ٧ تموز ١٩١٨ ، وقد أعيدت فيها الخطب التي ألقيت في حفلة فرع الجمعية نفسها في الاسكندرية بتاريخ ١٨/٧/٩ ، ألقى السودا خطاباً عالج من خلاله «تاريخ الاستقلال في لبنان وما عانى ابناؤه في الذود عنه» ، وأتى فيه على شرح أهمية الضمانة الدولية للبنان وحق لبنان بحدوده الطبيعية ، وقد ختمه بقصيدة مطلعها :

«يـا ذكر لبنـان كم هيّجت بي سجنـا
وكم أثـاروا على أهـاليك بلبـالي

«... آمنت ان في سبيـل الارز ان نكبوا
يغير الله من حـال الى حـال ..
«... والسهـل منبسط ترعـاه زحلتنـا
حتى تشمّ برد السَهـل آمـالي ..» (١٠)

وأيضاً في كتابه «في سبيل لبنان» كان السودا قد ختم فصولهُ بهذه الكلمات :

«أمل وطيد في الصدر وآيمان راسخ في النفس أن «العناية» لا تهمل لبنان ، وان اللبنانيين ينهضون ويتحدون ويثبتون للملأ انهم رجال هذه الساعة الخطيرة فتفلت الطير من اقفاصها وتنطلق الهمم من عقلها وتطلع شمس العهد الجديد ترسل اشعتها المحيية على أرض الميعاد ... فترتفع ارزتك يا لبنان بهيجة الافنان غبياء الظل شامخة القوام .. تعشّش في اغصانها جميع طيور السماء وتسكن في ظلها جميع الامم الكثيرة ويسدل ستار السلام على مأساة تاريخك المفجع ، ويترك ابناؤك يعيشون في بلادهم آمنين ...» (١١) .

ثانياً — على الحضارة الفينيقية .

في نشيد آخر نظمه السودا لفرق كشّافة «السبّاقة» ، في الاعوام العشرينات أيضاً ، بعنوان «فتيان لبنان» ، وقد دُرّس زمناً طويلاً في المدارس اللبنانية ، ونشر في الكتب المدرسية في الاعوام الثلاثينات من هذا القرن ، وطيلة عهد الانتداب الفرنسي ، في هذا النشيد يشدّد الرجل على ما كان قد أشاد به في كتابه في «سبيل لبنان» ، الصادر عام ١٩١٩ ، والذي الهم قادة الحركة القومية اللبنانية في العالم ، قبيل إنشاء «لبنان الكبير» لعام ١٩٢٠ ، الا وهو التراث الحضاري الفينيقي العتيد ، وقد جاء في النشيد المذكور قوله :

«انهضوا فتيـان لبنـان الأشم — نحن أبنـاء المعـالي والكرم
«حملت فينيقيـا نور الهدى — مشعلاً دُقّ على هـذي القمم
«ارسلت من فوقهـا انواره — فـاضاءت للورى داجي الظلم
«حجب سنـاهُ فـانهضوا — لتعيـدوهُ منـاراً للأمم

«أرزنا» الخالد يا رمز العلى   انت عهد الله في ارضِ الحرَم
«كم تمنّتك سلاطين وكم   زنتَ عرشاً باذخاً منذ القدم
«كم وكم سيّر (بحّارتنا)   سفناً منك على يمّ ويمّ
«يوم ضاق البرّ عنهم ضربوا   قبب المجدِ على البحرِ الخِضمّ

«نَستطيع اليوم ما استطاعوا هم   إننا من صلبهم لحماً ودَم
«أرضهم هذي وهذا جوّهم   وجلال الارز باقٍ والعَلَم
«فاذا ما أعوزتنا صحّةٌ   انفضوا التربَ في التربِ هِمَم
«واذا ما جنا المجدُ فقل   ايا لبنان.. فيهتز العَدَم»(١٢)

ثالثاً — على الامير فخر الدين المعني الثاني والامير بشير الثاني الشهابي الكبير ويوسف بك كرم

في نشيد «انهضوا فتيان لبنان» المذكور جاء أيضاً قول السودا :

«ايه (فخر الدين) ارسل نفساً
بين قومي منعشاً يحيي الرمم
«(ربّ بيت الدينِ) باني مجدها
إرفع الصوت في القوم صمم
«نجدة» يا (بطل الارز) وهل
من يصم السمع عن صوت (كرم)
«إسمعوا اصواتهم منخيةً
إنّ في لبنان نخواً وشمم»
«... جدّدوا للمجدِ عهداً ماضياً
لا تقولوا كان عهدٌ وانصرم»(١٣)

وفي مكان آخر من نشيد «يا بني لبنان هيّا» للسودا جاء كذلك ، ما نصّه :

«(وابن معنٍ) قد حماها   وابتني الملكَ الرحيب
«ناشراً فوق رباها   بندهُ العالي الرهيب
«(والشهابيّ) حباها   ما هوت عزّاً وجاهْ
«(والشماليّ) فتاها   قد فداها بدِماه
«أرزتي والمجد فيها   من قديم الاعصر
«إرفعوها وانشروها   في سناها الأخضرِ»(١٤)

أبعاد هذه الشعارات

ومن الثابت أن شعارات «الارزة» ، و«الحضارة الفينيقية» ، و«الامير فخر الدين الثاني المعني» ، و«الامير بشير الثاني الشهابي» ، و« يوسف بك كرم» ، يطلقها السودا في السنوات العشرينات من هذا القرن ، والعهد عهد الاحتلال الفرنسي ، أو نظام «دولة لبنان الكبير» ، والكيان الجديد تمخّض به بالقوّة وبمختلف الوسائل ، وقد أدخل فيه أقوام تفصل بينها وبين أهل «الجبل» القارات ، على حد قول عمر فاخوري ، من الثابت ، في مثل هذه الحالة ، أن تكون هذه الشعارات بمثابة أصوات ناشزة غريبة كل الغرابة للفريق الجديد الذي كان ما يزال يتعاطف مع حركة الشريف حسين ، والامير عبدالله ، والدعايات الوحدوية السورية والعربية . بل ان الشعارات اياها كانت جديدة حتى لكثيرين من أهل «الجبل» أنفسهم ، من مقيمين ومغتربين ، إلا نخبةً منهم من كبار المثقفين والساسة والمجاهدين من أجل لبنان بحدود ١٩٢٠ .

الى ذلك ، لا يمكن القطع تاريخياً بواقع كل من الاميرين المعني والشهابي وكرم كروّاد «وحدة وطنية» وأبطال لما يدعى بـ «القومية اللبنانية» ، كما حاول السودا أن يؤكده ويشدّد عليه في مجمل كتاباته ونشراته ومؤلّفاته منذ بداية عهده بالسياسة والشؤون الوطنية اللبنانية .

فالارزة ، مثلاً ، كانت رمزاً مسيحياً في الاعوام العشرينات ؛ والحضارة الفينيقية

كانت مجهولة حتى من الكثيرين من معتنقي عقيدة السودا ؛ وكان هذان الرمزان أقرب الى الفصل بين مسلمي لبنان والدعوة السورية أو العربية ، منهما الى التقريب بين شقّي لبنان بمسيحييه ومسلميه .

وتبقى الرموز الثلاثة الباقية : الاميران المعني والشهابي وسوف بك كرم .

ان السودا نفسه لمْ يقم بشرح أو إثبات «الوحدة القومية» التي يزعم قيامها في لبنان في عهد المعنيين ، وخاصة في ظلّ راية الأمير فخر الدين الثاني .

وقبل اعطاء الدليل على قيام هذه الوحدة القومية يجب التعريف أولا بـ «لبنان» فخر الدين الثاني ، في تصوّر هذا الأخير ، وفي الواقع التاريخي ؛ يجب تحديد هذه الرقعة الجغرافية التي هيمن عليها فخر الدين الثاني المعني ، هل هي «لبنان» المتصرفية أم «لبنان الكبير» الذي عمل لأجله السودا واتباع عقيدته ، أم أكبر من «لبنان الكبير» وأقرب الى «سوريا الجغرافية» منها الى لبنان ١٩٢٠ ؟؟؟؟

ثم ، أية وحدة قامت في الكيان الذي أنشأه فخر الدين الثاني ؟ هل هي وحدة الارض أم وحدة الشعب ، أم الاثنتان معاً ؟ وبين من ومن من الطوائف قامت هذه «الوحدة» اذا ما كان الشعب أساسها ؟

وأية مناطق من الرقعة التي سيطر عليها الامير تمّت «وحدة» ما ، إذا ما كانت الوحدة تتعلّق بالارض ، وباي شكل ، وفي ظل أي نظام إداري أو سياسي ؟

فالسودا في كتاباته وفي مذكراته التي تبنّاها منذ عهد المتصرفية ، أي منذ اوائل حياته السياسية ، قد شدّد على الاستقلال الداخلي أو النوعي في عهد فخر الدين لا على الوحدة القومية معهُ .

ونرى ، من جهتنا ، أن الامير استطاع ، بفضل من آزروه من اللبنانيين ، أن يسلخ جزءاً كبيراً من هذا البلد عن السلطنة العثمانية ، ويقيم فيه ادارة داخلية ونفوذاً خاصاً ، وذلك الى جانب الصلات التي أنشأها مع أوروبا والسياسة التي سلكها مع المسيحيين ، بحيث أسهم ، للمرة الاولى في تاريخ لبنان ، في وضع الحجر الأساسي لوحدة أرض

معينة ووحدة سلطة عليها . إلاّ انّه لم يُوفّق في بناء وحدة الشعب ، خلافاً لما يزعمهُ معظم الباحثين والمؤرّخين[١٥] .

أما الأمير بشير الثاني الشهابي ، فبالرغم من اعتقاد السودا بأنه «لم يشذّ .. عن الخطّة التي وضع أسسها فخر الدين الكبير ، فعزّز في الداخل الوحدة الوطنية على أساس القومية اللبنانية »[١٦] ، وبالرغم من أن الأمير فضّل كتمان هويّة الأمير الطائفية[١٧] ، فإن المؤرّخ طنوس الشريان يؤكّد موقفه العدائي من الثوار الدروز عام ١٨٢٥[١٨] .

كما أن يوسف أبو شقرا[١٩] يصف جهوده في زرع بذور التفرقة الطائفية . ويذكر الشدياق مساهمة خليل إبن الأمير بشير الثاني في قيادة الحرب المسيحية ضد الدروز ، عام ١٨٣٣ ، بمساعدة ابراهيم باشا المصري[٢٠] ؛ ويضيق المكان بالحوادث الطائفية التي وقعت في لبنان ، في عهد الامير بشير الشهابي الكبير ، تحت سمعه وبصره ، وغالباً بموافقته أو بتشجيع منه ، وذلك من أجل الابقاء على حكمه وسلطته ونفوذه ، أو بضغط أيضاً من المصريين وباغراء منهم .

وأما يوسف كرم فانهُ جمع بين الأغراض الوطنية (محاربته كون المتصرف داود باشا أجنبياً) ، والشخصية (رغبته في أن يكون نفسه متصرّفاً) ، والطائفية (اشتراكه في فتنة ١٨٦٠ بين المسيحيين والدروز لصالح الاولين) . ففي ما خصّ الموضوع الأخير ، جاء كرم من شمالي لبنان على رأس قوة مارونية لمساعدة اخوانه في لبنان الجنوبي والمتن . غير أن الموظفين الاتراك حاولوا بالوعد والوعيد أن يمنعوا اتّصاله بالمنكوبين النصارى . وكذلك كان لتدّخل فرنسا في الأمر يد في وقف هذه المساعدة[٢١] . وثمة مصادر تقول أن كرم جاء بحملته لانقاذ مدينة زحلة المتأهبّة للدفاع عن نفسها ضد ثمانية آلاف من المهاجمين الدروز في حزيران ١٨٦٠ ؛ لكن ، حتى في مجال الدفاع عن بني قومه خذل كرم الزحليين بعد أن قطع لهم الوعود والعهود وانتظروه ورجوه وأملوا في أن يدركهم بالرجال والابطال في عاجل الحال ، حتى سقطت زحلة سقوطاً مريعاً[٢٢] .

الدعوة الى الوحدة ابان الانتداب الفرنسي

في عهد الانتداب الفرنسي الذي بدأ في لبنان ، عام ١٩٢٦ ، مع ظهور الدستور اللبناني وولادة «الجمهورية اللبنانية» ، يسجّل السودا مواقف في سبيل الوحدة الوطنية في غاية الجرأة والصراحة ، نذكر ، منها ، على سبيل المثال ، الآتي :

جاء في مقال افتتاحي نشره السودا ، عام ١٩٣٧ ، في جريدته «الراية» ، تحت عنوان «يا مسلمون يا نصارى يا مجانين اتحدوا» ، ما حرفيته :

«اتحدوا يا مسلمون يا نصارى .

«ليس الأمر بين الجامع والكنيسة .

«في الجوامع يوحّدون الله . وفي الكنائس يعبدون الله الأحد . الأمر في أن نعيش أو لا نعيش . الأمر في أن نكون أحراراً أو عبيداً .... الفتنة بين أتباع عيسَى وأتباع محمد هي النار تضرمها يد جانية في الهشيم . الوقيعة بين الجامع والكنيسة هي «الخيانة العظمى» للوطن وأهون عقوبتها دقّ أعناق الخائنين .

«أما رأيتم كيف كانت الفتنة بين الدروز والنصارى السبب المباشر لتقويض الامارة اللبنانية ؟

«أما علمتم أن حريق زحلة ومذبحة دير القمر ، سنة «الستين» الغاشمة ، كانت الحيلة التي لجأ إليها المفسدون في شعب أمين سليم النية ، حتى يمدّ الأجنبي أصبعهُ الى لبنان ، فيمزّقهُ طوائف ، وتصبح كل طائفة فيه زبائن لدولة ؟

«أما لمستم أن السعاية بين المسلمين والنصارى هي التي قطعت أوصال اللبنانيين طيلة هذه العشرين سنة ، فضاعت اموال لبنان ، وأرهقت الشعب الضرائب ، ومزّقت كل كرامة وطنية ، وأصبح زعماء اللبنانيين خدماً على أبواب ذي السلطان ، يتهافتون على نيل الرضا ودون الرضا ، مساومةً على حقوق الأمة ، متاجرة بالوظائف ، تهشيماً في الحصانات ؟

«أما رأيتم ان حركة تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ في شوارع بيروت أوقدت مكامن

الاحقاد ، وأثارت شواعر النعرات بين المسلمين والمسيحيين ، حتى تسنّى في اليوم التالي ابرام معاهدة لم تترك للبنان سبيلاً الى الطمع بحرية واستقلال ، وفي الاشارة غنىً عن الاسهاب ؟

«أما لمستم أن كل حركة إستقلالية يتنادى اليها احرار المسلمين يصدمها النفعيون بتلويحهم بخطر الاسلام والمسلمين ...؟ أما شعرتم انه كلما سعى عقلاء المسلمين لجمع الشمل أسر اليهم المفرقون ان كل استقلال يتمتع به النصارى في لبنان يكون عقبة في سبيل تحرير الشرق ، ولبنان ، على زعمهم ، مهد للدعاية الأجنبية وحصن الاستعمار الحصين ؟...

«يا مسلمون ! يا نصارى ! يا مجانين ! الوطن وطنكم ، والحياة حياتكم . الظلم يرهقكم ، والاستبداد يذلكم ، فهلا فتحتم الأعين وأبصرتم .. هلا جمعتكم المصيبة ومددتم أيديكم الى يدنا لنبسطها لكم مخلصين فنترك للمسلم صلاته في جامعه ، وللمسيحي تسبيحه في كنيسته وننظر في شؤون تتوقف عليها الحياة أو الموت ، حتى اذا أجمع الرأي على ما يضيرنا ويضيركم ، سواء عقدنا الخناصر على مطالب معينة نمشي اليها متحدين ، ولا نرجع الا بعد تحقيقها رفقاً ببلاد جعلها الله جنة خلقه وجعلناها نهباً للمستعمرين» (٢٣) .

— في مقال آخر نشره السودا في «الراية» ، أيضاً ، في شباط ١٩٣٨ ، بعنوان «حكومة تستحق الشفقة» ، حمل فيه على التفرقة المذهبية ، في الميدان التربوي والتعليمي ، جاء فيه :

«خطر في بال الحكومة أن تستغني عن اعتمادات المعارف لتوزّعها على المدارس الطائفية .. فيقوم التعليم الخاص مقام التعليم العام ، وتصبح لكل طائفة مدارسها ، فينكمش الارثوذكس في المدارس الأرثوذكسية ، والموارنة في المدارس المارونية ، والروم الكاثوليك في المدارس الكاثوليكية ، والارمن في مدارس الارمن ، والسريان في مدارس السريان ، والكلدان في مدارس الكلدان ، والدروز في مدارس الدروز ، والشيعة في مدارس الشيعة ، والسنة في مدارس السنيين ... فيخرج الموارنة من مدارسهم على روح مار مارون ، والارثوذكس على روح مار نقولا ، والروم الكاثوليك

على روم مار ايرونيموس. والارمن على روح قديسيان ، والسريان على روح مار افرام ، والكلدان على رأي موصليان ، والدروز على خاصتهم ، والشيعة على تقليدها ، والسنة على اتجاهها ....

«ثم تلتقي هذه الفسَيفسَاء الجميلة من الشبيبة اللبنانية في شوارع بيروت فيحدج بعضهم البعض ؛ وكل منهم ينحرف عن اخوانه في الوطن الى رفاقه في الثقافة وفي المدرسة ...

«الحكومة التي لا تفهم معنى تربية الاحداث ، وتنشئة الفتيان ، وتثقيف الشباب . الحكومة التي لا تعرف ان على هذه التربية ، على هذه التنشئة وعلى هذا التثقيف تبنى الدولة . الحكومة التي تتخلّى عن التعليم بدلاً من توحيده والاشراف عليه ، توحيداً للأمة ، وتوثيقاً لصلاة الشعب ، وتغذية للروح الوطنية ، تلك الحكومة لا تستحق إلاّ الشفقة»[٢٤] .

مداميك الوحدة الوطنية كما يراها السودا في عهد الانتداب

هذا ، في عهد الاحتلال الفرنسي وقبل بزوغ فجر «الجمهورية» والدستور ، أما في عصر الانتداب الذي شمل اواخر الاعوام العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، فعلى أية مداميك أراد السودا أن يقيم الوحدة الوطنية ؟

منذ عهد الاحتلال الفرنسي ، عام ١٩١٩ ، وحتى عام ١٩٣٦ ، كانت أمنية السودا الحصول دوماً على مزيد من السيادة الوطنية اللبنانية بالنسبة الى ممارسات الحكم الفرنسي المباشر ، في البدء ، ثم بالنسبة الى ممارسات الانتداب وسياسته التحكّمية والاستئثارية ، فيما بعد[٢٥] .

في عام ١٩٣٦ انفجر نضال السودا في شعارات ، عبّر عنها في نشرات أصدرها تباعاً ؛ أولها ، نداء وجهّهُ الى اللبنانيين ودعا فيه الى المطالبة باستقلال عملي للبلاد وبضمان وسائل العيش للشعب[٢٦] .

وثانيها ، مذكّرة قدّمها باسم «الجبهة الوطنية» الى الوفد اللبناني الذي عهد اليه التفاوض باسم لبنان في المعاهدة اللبنانية الفرنسية ، بتاريخ ٣١ تشرين الاول ١٩٣٦[٢٧] . وفيها يطالب بلبننة قوات الانتداب العسكرية ، ولبننة المؤسسَات والشركات والمعاهد والقضاء والادارة ، وتثبيت سيادة لبنان في الدستور والسلطات على اختلافها ، وإعادة الجنسية الى المغتربين اللبنانيين .

وثالثها ، منشور وزعهُ كرئيس لـ «الجبهة الوطنية» ، أيضاً ، بتاريخ ١٥ كانون الاول من عام ١٩٣٦ ، بعنوان «الجبهة الوطنية والاماني اللبنانية»[٢٨] ، وفيه يطالب بادخال المطالب الآتية في المعاهدة اللبنانية الفرنسية :

أ ــ في الحقل الدستوري

ــ إقامة النظام الجمهوري في إطار الحدود الحالية للبنان .

ــ جعل رئاسة الدولة على أساس الانتخاب .

ــ جعل الوزارة مسؤولة أمام مجلس النواب ، دون مساس بحقوق السلطة التنفيذية .

ــ الانتخاب بالاقتراع العام المباشر .

ــ سنّ قانون الجنسية يُعتبَر بموجبه لبنانيين المولودون في لبنان أو الذين من أصل لبناني .

ــ استقلال الحكومة اللبنانية في الحقول التشريعية والسياسية والادارية والقضائية والعسكرية .

ــ مساواة جميع اللبنانيين أمام القانون .

ــ حرية الصحافة ضمن دائرة القانون وإلغاء حق التوقف الاداري .

ــ حرية الاجتماع والانخراط في الاحزاب ، في إطار القانون .

— إجبار كل موظف ونائب أن يقسم اليمين بالمحافظة على الدستور والتقيّد بقوانين الدولة .

ب — في الادارة

— إلغاء وظائف المستشارين الفرنسيين .

— إناطة البعثات الفرنسية والموظفين الفرنسيين بالحكومة الفرنسية رأساً وتحديد مدة عملهم بسنتين .

— جعل ولاية رؤساء البلديات والمخاتير ونواطير الاحراج على أساس الانتخاب لا التعيين .

— إلغاء مبدأ التعيين في مجالس المحافظات .

ج — في القضاء

إلغاء المحاكم المختلطة والحد من سلطة الفرنسيين في المحاكم على اختلافها .

د — في التربية

— جعل سلطة الدولة تشمل المعاهد والمؤسسات التربوية والتعليمية على اختلافها .

— الحد من تعيين موظفين فرنسيين في المدارس .

— جعل اللغة العربية وحدها لغة رسمية .

— إنشاء مصلحة الآثار اللبنانية وتحريم إخراج الآثار من البلاد .

هـ — في شؤون المالية والاقتصاد والصحة العامة

— تخفيض الضرائب والمساواة في توزيعها على أساس الدخل .

— مراقبة الدولة لجميع الشركات الاستثمارية .

— إلغاء ضريبة التبغ .

— تحسين الاصطياف والاشتاء خاصة في ما يتعلق بالصحة العامة .

— تحريج لبنان .

— توسيع شبكة الطرقات .

و — في ما يتعلق بالعلاقات بين لبنان وسوريا وبين لبنان والاقطار الاخرى المجاورة

توثيق عرى الصداقة بين لبنان وجيرانه وجعل علاقاته الاقتصادية معها على أساس تعامل البلد المستقل مع البلد المستقل .

ز — في ما خصّ المغتربين اللبنانيين

— طلب إلغاء المادتين ٣٦ — ٣٧ من معاهدة لوزان اللتين تحرّمان اللبنانيين المغتربين من جنسيتهم الأصلية .

— إنشاء مصلحة المغتربين .

ح — في موضوع المرأة اللبنانية

— العمل لجعل المرأة اللبنانية تشارك في الحياة الوطنية ، خاصةً في حقلي التربية والشباب .

ط — الشبيبة اللبنانية

— تنظيم الشبيبة اللبنانية في حقول التربية الوطنية والرياضة الجسمية والعقلية على أساس الروح الكشفية ، بعيداً عن أية مشاغل سياسية خاصة واعتبارات طائفية أو اقليمية ، بغية توحيد الروح الوطنية والتنسيق بين الجهود المبذولة في خدمة لبنان .

ي — على صعيد العمال والفلاحين

— وضع تشريع خاص يحمي العمال والفلاحين ، ويخفض عن كواهلهم الضرائب الاميرية ، ويضمن لهم العيش بعرق الجبين .

ك — في مضمار القوات اللبنانية

— إنشاء تعاونية لخدمة الجيش والدرك والشرطة اللبنانيين .

— دمج الجيش بالشرطة .

— إنشاء مدرسة حربية ومدرسة طيران .

تلك هي المطالب التي اراد السودا أن يجعلها شعارات اللبنانيين ، عام ١٩٣٦ ، وبواسطتها يَستطيع اللبنانيون ، حسَب تصوّره ، أن يحيوا احراراً ، فيؤلّفون أمةً ويؤسسون دولةً مستقلة .

هذه الأماني التي دعا اليها السودا ، عام ١٩٣٦ ، كانت وطنية حقاً وتطال جميع فئات الشعب وجميع طوائفه ، إلاّ إنها لم تكن لتؤثّر لا من قريب ولا من بعيد في الخلاف الكياني الذي بقي مهيمناً في لبنان ، منذ الاحتلال وحتى عام ١٩٣٦ .

هذه الأهداف ، في حال تحقيقها ، تضمن العيش للجسم ، لانسان من لحم ودم فقط ، ولكنها لا تفي بالمراد بالنسبة الى روح هذا الانسان وعمق وجدانه .

هذه المطالب ، تضمن استقلال الدولة ، ولكنها لا تكفي لتأليف أمة . فالاسباب المانعة من تأسيس وطن نهائي أعمق من جميع هذه التمنيات وأبعد .

أراد السودا سيادة الدولة في مرافقها على تنوعها . الا ان قوميات الاقوام القاطنة هذه الدولة هي التي تقرّر ، بالفعل ، توجيه سياستها الخارجية وحتى الداخلية ؛ هي التي تحدّد وجهة المستقبل ، وطريق ما بعد تحقيق السيادة الداخلية ، والرفاهية ، والعيش الهني ، والحياة الرغيدة القائمة على العدالة الاجتماعية والمساواة أمام القانون .

هذه الشعارات توحّد الشعب في لبنان في مرحلة عابرة ، لكنها ، بالنسبة الى الواقع اللبناني ، لا تضمن المرحلة التي تلي تطبيقها . ذلك أن في لبنان ، منذ انشيء حتى اليوم ، صراعان ، صراع اجتماعي أو طبقي يبغي تحسين حالة العيش ، وهو ثانوي الاهمية بالنسبة الى الصراع القومي والكياني الذي سرعان ما يحتوي الاول عند حدوث أية هزّة مصيرية أو انتكاسة تتعلق بهوية لبنان أو علاقته مع الجوار . والصراع الآخر له جذور تاريخية وأسس حضارية عريقة ، وربّما أيضاً نظرة الى الكون والحياة والاجتماع .

شعارا السودا بعد إقرار المعاهدة اللبنانية الفرنسية

لقد أصيب السودا بخيبة أمل مريرة من النتائج التي آلت اليها الحال بعد إقرار المعاهدة اللبنانية الفرنسية عام ١٩٣٦ ، إذ لم يطرأ أي تبدّل كان ينشده في ممارسة الانتداب لجهة الحريات أو الاصلاح في مرافىء الدولة . فكانت صيحاته الجائشة الثائرة في وجه السلطة المنتدبة ، وقد عبّرت عنها صحيفة «الراية» ، ونادى فيها بالشعارات الآتية :

أ — حق لبنان في الحياة حراً مستقلاً

وفي سبيل هذا الحق كتب السودا مقالاته الافتتاحية يثور فيها على سلطات الانتداب من أجل المطالب الملّحة ذات الصلة الوثيقة بالسيادة الوطنية والحكم الوطني[٢٩] .

ب — إحلال التضامن المسيحي الإسلامي في لبنان محل الانتداب ، في فترة ما بعد الاستقلال :

في مقال ، بعنوان «خطر المسلمين على النصارى» كتب يقول :

« ... ومن الأمور الواقعة أن القوم في هذا الشرق القريب ، خصوصاً في لبنان وسوريا ، تعودوا أن ينظروا الى الشؤون العامة والمسائل الوطنية من خلال المذاهب

الدينية . فهم مسلمون ومسيحيون قبل أن يكونوا وطنيين ، أو هم مسوقون بحكم التقليد والعادة الى مزج الدين بالقومية ...

«فاذا قيل «لبنانيون» تبادر الى الذهن انهم يعنون «مسيحيين» ، واذا قالوا «عرب» فالمتعارف عندهم أن كلمة العرب تعني «مسلمين» وتعني سوريين ... وإن يكن المسيحيون عرباً قبل الاسلام . هذا هو الواقع .

«واستناداً الى هذه الوقائع انتشرت في هذا الشرق فكرة «حماية المسيحيين» ، فجرت في التقليد مجرى الأمر المسلّم به والعقيدة المفروغ من بحثها .

«فانكلترا في مصر والسودان لأجل «حماية المسيحيين» بين أقباط واوروبيين حتى وسوريين ولبنانيين .

«وفرنسا في سوريا ولبنان لأجل حماية المسيحيين» ، بين موارنة وارثوذكس وكاثوليك وبروتستانت وارمن وسريان وكلدان ، الى آخر ما منح الله بلادنا من مذاهب وطوائف ...

«ولو اقتصرت حجة «الحماية» على الاشراف المعنوي والعناية المجردة لوجه الله ولجامعة الدين ، دون التجاوز الى شيء يصعب تمييزه عن الاستعمار . لهان الأمر ، لكن الحماية في مصر انقلبت الى احتلال لم يكن هضمه على المسيحيين أسهل منه على المسلمين .

«ومن الأمور الواقعة ايضاً ان المسيحيين الشرقيين يؤلفون أقلية ضئيلة لا تكاد بين سوريا ولبنان وتركيا ومصر والسودان والعراق واليمن والحجاز تزيد عن المليونين في مجموع يتجاوز في هذه البلاد الخمسة والاربعين مليوناً من المسلمين .

«ولم يرَ القوم في سوريا ولبنان فرقاً كبيراً عما رآه المصريون من نتائج الاحتلال .

«نهضت مصر نهضتها ، والهبت الوطنية قلوب شيوخها وفتيانها . مشى المسلم

والمسيحي صفاً واحداً في الجهاد الوطني ، وتبينوا أن حياة مصر أو مماتها موقوف على اتحاد مسلمها ومسيحيها أو على اختلافها ... فكان لها الاستقلال الذي صبت إليه ، ولم يضر الاستقلال أقباطها ، ولا جرّ رفع الحماية الى ذبح المسيحيين في أرض الفراعنة .

«نحن في لبنان على مفترق طرق . إما حياة إما مماة . الحياة في اتحاد المسلمين والنصارى . والمماة في التفريق والتمزيق ...

فهل يسمعون ويفهمون ؟» [٣٠] .

ج — تحقيق الحاجات والمطالب المعيشية والاصلاح الداخلي ورفع الاثقال عن كاهل الفلاح والطبقة المتوسطة :

وفي سبيل ذلك يطالب السودا بما يلي :

— إلغاء احتكار الدخان .

— عدم إلغاء المدارس الرسمية .

— عدم إلغاء محاكم الأقضية .

— إدخال تعديلات في الدستور اللبناني لجهة السيادة الوطنية .

— تخفيض الضرائب .

— تعديد المعاشات وتوفير حق الترقية للموظفين الوطنيين .

— عدم تحميل البلاد ميزانيتين : ميزانية المفوضية البالغة خمسة ملايين ليرة وموازنة لخزينة اللبنانية البالغة ست ملايين .

— عدم التلهي بعزل المختار وتعيين الناطور .

— المساواة في القانون بالنسبة الى اللبناني والى الفرنسي على السواء .

— إلغاء احتكار شركات الإستثمار على أنواعها .

— العزوف عن تنشئة الطلاب تنشئة طائفية .

— إعانة مربّي دودة الحرير .

— فرض ضرائب على شركات الأوتوروتيار والكوبراتيف ، والشركة الجزائرية ، والمساجري ماريتيم ، والادرياتيكا ، والكهرباء ، وبنك مصر ، وبنك سوريا ولبنان ، وبنك فرنسا السوري ، وسواها وسواها ، وتخفيف الأعباء الضريبية عن صغار المحامين والأطباء والمهندسين والتجار اللبنانيين (٣١) .

كان شعار السودا إذن في فترة ما بعد المعاهدة ألاّ يكتفي «بلبنان مركزاً أدبياً في الشرق ، وموقعاً جغرافياً على شرقي البحر المتوسط ، فلا يعامل معاملة البلاد المستعمرة ، بل ينشأ فيه حكم وطني موطد على قواعد دستورية تكفل الحرية والاستقلال والانعاش والإستقرار ..» (٣٢) .

وبكلمة ، كان الشعار استقلال لبنان التام الناجز ، وما يجب أن يستتبع ذلك من إصلاح داخلي يشمل مختلف المرافق والقطاعات في البلاد .

إن مثل هذه المطالب والشعارات ، كما قلنا ، تخدم الدولة والسيادة الوطنية والحاجات الشعبية والمعيشيّة الملحّة .

إلا أنها حاجات آنية لا تكفي لوحدها لتبديل عقائد أساسية راسخة في النفوس ، ولها جذور تاريخيّة ودينية وأثنية وحضارية عريقة .

مداميك الوحدة الوطنية في عام ١٩٣٨

تلك كانت الشعارات التي نادى بها السودا رمزاً للوحدة الوطنية في لبنان حتى عام ١٩٣٨ . أما في هذا العام ، فقد أصبحت هذه الشعارات ، كما عبّر عنها الميثاق الذي وقعّه في منزل السودا ممثلون عن مختلف فئات اللبنانيين ، بتاريخ ١٨ آذار من العام نفسه ، وعلى الوجه الآتي : (٣٣)

أولاً : استقلال لبنان في حدوده الحالية مع حكومته الوطنية .

ثانياً : توثيق روابط الأخوة بين جميع اللبنانيين دونما تمييز بين طائفة ومنطقة .

ثالثاً : توثيق العلاقات بين لبنان والبلدان العربية ، وصولاً الى إتفاق يضمن له ولهذه البلدان ، الإستقلال السياسي والازدهار الإقتصادي ...

رابعاً : إقرار المساواة بين اللبنانيين على أساس العدالة والكفاءة .

خامساً : الاعتراف باللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة في ابلاد .

هذه البنود الخمسة + شبيهة ببنود ميثاق ١٩٤٣ الذي أبرم بين الشيخ بشاره الخوري والكتائب اللبنانية والسيد هنري فرعون ، من جهة ، وبين رياض الصلح ومعه صائب سلام وتقي الدين الصلح وبقية السياسيين والقادة المسلمين ، من جهة أخرى .

نقول «شبيهة» بميثاق ما قبل الاستقلال ولا نقول هي نفسها ، لأن ثمة فروقا بين الميثاقين ، منها :

أ — ان ميثاق ١٩٣٨ الذي انعقد في منزل السودا كان ميثاقاً مكتوباً ، بينما لم يكن ميثاق ١٩٤٣ سوى اتفاق شفهي .

ب — الاول لم يتضمن الاتفاق على المناصب الاولى في الدولة والإدارة ، كونه لم يكن ميثاقا ، وضع لمرحلة ما بعد الاستقلال ، كما هو الحال مع الميثاق الثاني . كان أقرب الى التوصيات والتمنيات منه الى العقود المصيرية التي يبرمها القادة لتقرير مصير شعب وتوجيه مستقبل دولة قبل أيام من فجر ولادتها .

ج — ميثاق ١٩٤٣ تعهد به قادة يمثلون قواعد شعبية ، وهو الأمر الذي لم يتوفّر في الميثاق الذي أسفر عنه الاجتماع في منزل السودا والذي وقعّهُ مثقفون ووجهاء وأصحاب مهن حرة لامعون اكثر منهم زعماء شارع وقادة جماهير ، ونذكر منهم : الدكتور سليم إدريس ، الدكتور نسيب البربير ، رفيق البرّاج ، الدكتور الياس بعقليني ، صلاح بيهم ، عبدالله الحاج ، يوسف الحويك ، جميل الخازن ، الدكتور الياس الخوري ، حبيب ربيز ، الدكتور توفيق ابراهيم رزق ، الدكتور مالك شنو ، الدكتور أحمد الشامي ، المحامي نجيب الصايغ ، تقي الدين الصلح ، محمد عبد القادر طباره ، عفيف الطيبي ، الدكتور الياس عاد ، عادل عسيران ، زهير عسيران ، توفيق يوسف عواد ، المحامي ميشال عقل ، الدكتور قرانوح ، حسن اللادقي ، المحامي نصري المعلوف ، محمد عمر

منيمنه ، الدكتور محمد خير النويري ، أنيس نجا .

د — ميثاق ١٩٤٣ وضع قبيل الاستقلال وفي جو ما قبل انهيار الوجود الفرنسي في لبنان ، ولتنظيم إرساء دولة ما بعد الاستقلال ، وتوجيه المصير القومي فيها ، بينما حصل ميثاق ١٩٣٨ في وقت كان معه الإنتداب الفرنسي بالغاً ذروة قوته .

هـ — ميثاق ١٩٣٨ قال بالمساواة بين جميع الطوائف ، على أساس العدالة والكفاءة ، بينما حصر ميثاق ١٩٤٣ المناصب الكبرى بالطوائف الكبرى ، وأعطى المناصب الحساسة في الدولة لفئة معينة من الطوائف الكبرى ، كضمانة لها بعد أن يتقلّص الوجود الفرنسي على أرض لبنان ، ويصبح لبنان لوحده مع نفسه ومع الدول العربية .

لكن في الميثاقين نقاط متشابهة :

أ — إستقلال لبنان التام ، وبالتالي إستقلاله عن الغرب مثله عن الشرق .

ب — اللغة العربية التي أمست اللغة الوحيدة الرسمية في ميثاق ١٩٣٨ لم تصبح كذلك الا بعد بدء عهد الإستقلال ، مع أنه لم يأتِ على ذكرها ميثاق ١٩٤٣ .

ج — مبدأ توثيق عرى التعاون بين لبنان والبلاد العربية الذي نص عليه ميثاق ١٩٣٨ في مادته الثالثة هو نفسه الذي أصبح أساساً ، بعد ١٩٤٣ ، لميثاق جامعة الدول العربية ، هذا الميثاق الذي لم يكن قد ورد في أي ميثاق من قبل في أية من الدول العربية خارج لبنان .

هـ — موقعو ميثاق ١٩٣٨ انتشروا ، على حد قول السودا ، في طول البلاد وعرضها يبشرون ببناء وطن على الاخوة والتعاضد والصداقة . فهلل لهم أبناء البسطا ، كما أبناء الجميزة ، في بيروت كما في صور وصيدا ، كما في البترون وجبيل ، في طرابلس كما زغرتا ، حتى كانت حرب ١٩٣٩ ، حيث حظّرت القوانين العسكرية كل نشاط سياسي (٣٤) .

أبعاد هذا الميثاق

فلنبحث الآن في أبعاد البنود الخمسة المذكورة بالنسبة لعام ١٩٣٨ ، عام ولادة ميثاق السودا .

يتبيّن من نص البند الاول ومن روحه أن الإبقاء على الكيان الذاتي للبنان بحدود ١٩٢٠ ليس لمدة معينة ومحددة ومؤقتة ، بل الى أبد الدهر . بينما فكّر ويفكّر الإسلام اللبناني وشعر ويشعر بأنهُ ينتمي قومياً الى أمة عربية تتعدّى الكيان الجديد ، وأنهُ يقيم في مقاطعات سورية ضمت الى جبل لبنان بقرارات واتفاقيات هو غير مسؤول عنها ولا يسلّم ، بالتالي ، بمقرراتها ؛ وعليه فالوطن المصطنع والمفروض عليه هو مرحلة عابرة لا بد في إثنائها من العمل والكفاح في الداخل وفي الخارج لتحقيق الوطن العربي الأكبر ، الوطن الحقيقي الذي جزّأهُ الاستعمار الغربي خدمة لمصالحهِ ومصلحة الأقليات الشرقية المتعاطفة معه ، بحيث وضع لدويلاته حدوداً مصطنعة لا تمتّ لا إلى التاريخ ولا إلى العقيدة العربية ولا الى الواقع الراهن .

إذن هذا المبدأ الذي دعا اليه السودا ، ومعه بناة «لبنان الكبير» من وطنيين وغربيين ، والذي يقول بالاستقلال السياسي والجغرافي للبنان الجنرال غورو ، بل إستقلال لبنان الأبدي الأزلي السرمدي ، لم يكن يتبنّاه كل أبناء الكيان الجديد . كانَ دعوة الى عقيدة لم يستطع السودا ولا سواه من القوميين اللبنانيين إقناع الفريق الآخر بها ، وذلك بقدر ما كان هذا الكيان منفصلاً عن الجوار السوري العربي ، خاصةً وأنه يخضع لإنتداب فرنسي ، أي إنتداب غربي مسيحي اقترن تاريخياً بتعاون فرنسي مسيحي منذ الحروب الصليبية ، ولأنه ليسَ تحت سلطة فيصل أو الأمير عبدالله أو الشريف حسين ، ولا يدخل في فيدراسيون أو كونفيدراسيون مع سوريا أو سواها من بلاد العرب .

إلاّ أن قول السودا بـ«الاستقلال التام» قد يرضي الفئة المناوئة للكيان اللبناني المستقل عن سوريا وعن العرب ، إذ يعني ذلك ، في ما يعني ، إستقلال لبنان عن فرنسا أو عن الإنتداب الغربي ، وبالتاي خطوة نحو تقريبه من الشرق العربي ومن المشاريع الوحدوية التي ينبغي أن تتبع تقلص النفوذ الفرنسي والغربي .

كما يتبيّن صراحةً ، كذلك ، من صيغة هذا المبدأ ومن روحه أن عبارة «إستقلال لبنان في حدوده الحالية مع حكومته الوطنية» ينبغي أن تفسّر استقلالاً تاماً عن الشرق كما عن الغرب . والشرق هنا ليس الصين ، ولا الهند ولا اليابان . الشرق هنا ليسَ الشرق الأقصى ، ليس آسيا الداخلية ، جنوبها وشرقها ، بل الشرق الأدنى ، وعلى أوسع

مدى، الشرق الأوسط، وبعبارة أوضح، الشرق العربي. الإستقلال إذن، كما يراهُ السودا، إستقلال عن العرب، مثلما عن الأوروبيين والاميركيين.

ويمكن تفسير مبدأ «إستقلال لبنان في حدوده الحالية مع حكومته اللبنانية» ردّة، أيضاً، للتيار الآخر اللبناني الذي يقول بـ«فينيقية» لبنان، كما لوكانت حضارة الفينيقيين حضارته الوحيدة، خاصة وأنه كان يتزعم هذا التيار في الثلاثينات من هذا القرن الشاعر شارل قرم. وقد شدّد هذا الشاعر على اللغة الآرامية كلغة اللبنانيين الأصلية، كما لوكانت العربية دخيلة، ووقف وقفة مأساوية في أرض لم يعد يسمع فيها صوت الرحّالة والملاحين اللبنانيين يقلعون، منذ نحو الفي سنة قبل المسيح، من موانيء ارواد وجبيل وصيدون وصور، وتغنّى بالألهة الفينيقية نفسها وناداها نداء الحسرة واللوعة من بعل أشمون، إله السماء، الى باخوص (Bacchus) وأدونيس، وأشاد بالأساطير والأمجاد الفينيقية التي تكاد تشكل، في رأيه، كل أمجاد لبنان التاريخي والحديث.

وعليه، فقول السودا «بالحدود الحاضرة» للبنان و«الحكومة اللبنانية» هو كالقول بلبنان «اللبناني». فإذا كانت دعوة الشاعر القرم وأتباع فكرته هي الـ thèse، والفكرة العربية أو السورية، وعلى رأسها رياض الصلح، إذ ذاك، هي الـ antithèse فـ«اللبنانية» هي الـ synthèse.

لكن، اذا ما اقتنع المسيحيون، عامةً، والموارنة، خاصةً، بأن الفينيقيين شعب انقرض وصهرت بقاياهُ في بوتقة «اللبنانية» (le libanisme)، كما ذابت الاقوام التي دخلت من بعده البلاد في البوتقة نفسها، كبقايا الصليبيين وسواهم، فهل يقتنع المسلمون بفصلهم عن سكان الأقطار المجاورة نهائياً وأبدياً؟ هل يقبلون بفصلهم تراثاً وتاريخاً؟ هل يرضون باعتبار الفتح العربي كسائر الفتوحات التي شهدها لبنان، فتحاً مرّ ولم يترك أثراً فيه أكثر من سواه، فزالت الامبراطورية العربية واستمر لبنان متابعاً مسيرته، دون أن يؤثر الفتح في طابعه، بل انصهرت الأثنيات التي عرفها، في صلب قوميته؟ هل يقتنع المسلمون بأنهم ليسوا عرباً ولا امتداداً لعالم عربي وأمة عربية داخل لبنان؟

وفي حال عدم اقتناع المسلمين ولا قبولهم بما تقدم، يترتب عليهم، ولبنان في تصوّرهم عربي الارض والشعب، عربي التراث والتاريخ، يترتّب عليهم أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم فيعملوا لـ«وحدة عربية» تحوي، في ما تحوي، لبنان نفسه، أجل، «لبنان» السودا لا سواه. يتحتّم عليهم أن يوجّهوا أجيالهم الطالعة توجيهاً قومياً عربياً، وأن يوجّهوا الإعلام اللبناني الرسمي نفسه توجيهاً مستوحى من مصلحة العرب ككل، لا من مصلحة لبنان كجزء قائم بنفسه في المطلق. يتحتم عليهم أن يعملوا على جعل سياسة الدولة القومية، خارجياً وداخلياً، سياسة محض عربية. يتحتّم عليهم، بكلمة، الكفاح من أجل الوحدة العربية الشاملة، متضمنّة الكيان السياسي نفسه الذي جاهد السودا وأتباعه من أجل إبقائه مستقلاً الى الأبد.

أما مبدأ «توثيق روابط الاخوة بين اللبنانيين، دونما تمييز بين طائفة وأخرى وبين منطقة وأخرى»، فأمر يعني مساواة هذه الطوائف فيما بينها، وتجاه القانون. ويعني، عملياً، عدم تمييز طوائف بمناصب دون سواها، بحيث تصبح المناصب العليا في الدولة من نصيب كل طائفة. أما كيف يحصل هذا الأمر، وتنال كل الطوائف الحقوق والواجبات، سواسية، فواضح في البند الرابع من الميثاق المذكور، بقوله بـ«المساواة بين اللبنانيين، على أساس الكفاءة والعدالة».

هذا المبدأ لا يرضي فقط المسلمين بل يمثّل أقصى ما يتمنونهُ، يومذاك، على الصعيد الداخلي اللبناني. لكن هل كانت الدولة المنتدبة، عام ١٩٣٨، وهل كان المسيحيون أنفسهم يقبلون بهذا الرأي، وهؤلاء الأخيرون يعتقدون أن ثمة إمتيازات خصهم بها «لبنان الكبير»، حرموا منها في بقية البلدان المجاورة، بل كانوا في هذه البلدان مواطنين من الدرجة الثانية، والى ذلك، يرون أن «الامتيازات هذه من الضمانات التي قدّمها لهم الكيان الجديد، كأقلية لاقت ما لاقت من ضيم مع المماليك والدول والامبراطوريات الإسلامية التي قامت في تاريخ هذه المنطقة من الشرق؟

اللغة العربية

أما فيما يتعلق بالبند المتعلق بفرض العربية لغة البلاد الرسمية الوحيدة فمبدأ يرضي،

أيضاً ، دونما شك ، الفريقِ المسلم في لبنان أتمّ رضى ، والعربية لغة القرآن والدين والتراث العربي والإسلامي .

لكن ثمة تبايناً بين هذا المبدأ وفكرة السودا العامة السائدة في سائر مؤلفاته السابقة ، خاصةً في كتابه «في سبيل لبنان» ، الصادر عام ١٩١٩ ، وفي الأناشيد التي نظمها لفرق كشّاف «السبّاقة» في الأعوام العشرينات ، وأخيراً في كتابه «تاريخ لبنان الحضاري» الذي ظهر قبل وفاته ، والذي شدّد فيه على الحضارة الفينيقية وعلى لاسامية الفينيقيين .

ذلك ، أن لغة الفينيقيين الذين ليسوا حسب السودا ، عرباً ولا ساميين بل لبنانيين أصليين ، أن لغة هؤلاء حسَب تصوّره هي الآرامية ، وقد بقيت الى القرون الحديثة ، لغة بعض أنحاء لبنان ، على الأقلّ .

ومع ذلك ، فإن السودا ، بالرغم من إطلاعه على التاريخ اللبناني ، يبدو وكأنّه قد غاب عنه تاريخ ثنائية اللغة وتعدّدها في لبنان ، مغذ مدارس جبيل الفينيقية ، الى مدارس رأس شمرا ، الى العهد اليوناني ، فالروماني من لبنان ، وأخيراً الى العصور الحديثة ، وخاصةً ، ابتداءً بكلية عين ورقا والكليات التي انشأها خريجو المعهد الروماني للموارنة في روما ، وخريجو عين ورقا أنفسهم ، وذلك ، بالإضافة الى المدارس الكبرى التي أسسّتها البعثات التعليمية والدينية الأوروبية والأميركية في لبنان ، حتى نشوء الجامعتين الأميركية واليسوعية .

ومبدأ ثنائية اللغة وتعدّديتها أضافهُ الى عقيدة القومية اللبنانية العلاّمة فؤاد أفرام البستاني في كتاباته وأبحاثه ، بحيث أصبح من صلب هذه العقيدة التي يناضل القوميون اللبنانيون من أجل الإبقاء عليها ككل غير قابل التجزئة .

دعوة السودا الى الوحدة الوطنية في الأعوام الخمسينات من عهد ما بعد الاستقلال

يواصل السودا دعوتهُ الى محاربة الطائفية واعتماد الوحدة الوطنية بعد نيل لبنان استقلاله . وقد ثبت ذلك في كتاباته وفي مواقفه . في كتاباته ينبغي أن نسجل ما يلي :

— في المحاضرة التي ألقاها السودا في معهد الحقوق الفرنسي ، مساء الأربعاء الواقع

في الثاني من أيار ١٩٥٦ ، تحت عنوان «رسالة الشباب» ، صرّح بأنه بعد غياب عشر سنوات عن لبنان المستقل ، قضاها سفيراً للبنان في الفاتيكان ، كان يأمل بأن يقضي عهد الاستقلال على ما كان يعتور البلاد من فواصل طائفية وانقسامات إقليمية ، بحيث تفنى النعرات في لبنان ؛ وكان يرجو أن «يجمع الإيمان بالوطن الواحد بين مختلف الطوائف والمناطق » ، و«أن تعود الى لبنان وحدته القومية أعزّ واقوى مما كانت عليه عهد المعنيين وفي ظلّ راية فخر الدين» ؛ إلاّ أنه ما لبث أن لمس ، وبألم ما بعده ألم ، أن الداء مستمرّ هو إياه يفتك في الناس ، وإن مستتراً أحيانا[٣٥] .

— في المحاضرة نفسها يلاحظ السودا أنه في عهد المتصرفية الذي دام أربعاً وخمسين سنة ، لم تحد الاستانة عن هدفها قيد شعرة ، ألا وهو إضعاف لبنان بإتباع سياسة «فرّق تسد» ، بحيث استخدم الأتراك الوظيفة أو النيابة كأداة طيّعة في تنفيذ تلك السياسة[٣٦] .

ويشرح السودا سياسة الأستانة من هذه الناحية ، فيقول :

«واستغلّ المتصرّفون الوظيفة في إثارة النعرات ، في هدم الكرامات ، في زرع الأحقاد ، في تسميم الحزبية ، في إبعاد الصديق عن صديقه ، في عداء الأخ مع أخيه .

«كان «المتصرف » يَعِد بالوظيفة الواحدة ، والنيابة الواحدة ، عشرات من الطلاب . وبعد أن يجرجرهم أياماً ، ويلهو بهم أسابيع ، يعمد أخيراً الى تعيين أحدهم . ثم لا يلبث ، وقد استنزف طواعيته ، أن يعزله ، ويقرّب سواه ويعيّنه . وهكذا دواليك حتى تنقضي سنوات «المتصرف» المعدودة »[٣٧]

— يشجب السودا كذلك ، في المحاضرة المذكورة أعلاه ، مدرسة «فرّق تسد» التي لم توقف نشاطاتها في لبنان بزوال عهد المتصرفية ، حيث كان المتصرفون الأجانب يحدّون في ممارستها لتحقيق أغراض الباب العالي ، بل واصل استخدامها أيضاً في عهد الإنتداب الفرنسي المفوضون السامون أنفسَهم لخدمة الإنتداب إياه .

كما يلفت السودا الأبصار والأنظار الى أن السياسة ما سواها استمرّت في زمن

الاستقلال ، بحيث لم يتبدّل شيء على هذا الصعيد لعدم تبدّل الأغراض والنيّات [٣٨] .

وقد أضيف فيها الى «مدرسة الدهاء العتيقة» صف جديد أطلق عليه لقب كشتبنجية» ؛ وكانت آمال الشباب أن تفنى النعرات في لبنان ، في عهد الاستقلال [٣٩] .

شعارات الأعوام الخمسينات

ما هي شعارات السودا الوطنية التي يجب أن ترفعها «الوحدة» في لبنان، في الأعوام الخمسينات ؟ ها هو نفسه يذكرها في محاضرته التي ألقاها في ٢ أيار ١٩٥٦ ، في معهد الحقوق الفرنسي [٤٠] :

أ — الايمان الواحد بلبنان الواحد .

ب — «إستقلال لبنان التام في كيانه الخاص وحدوده الحاضرة» .

ج — «إخاء صادق بين اللبنانيين مقيمين ومغتربين ؛ وصهرهم في بوتقة الوطنية اللبنانية الجامعة تحت شعار : «لبناني قبل كل شيء ، ولبنان لأبنائه على السواء» .

د — تبادل أوسع التعاون مع الدول العربية الشقيقة على ضوء مصلحة لبنان العليا .

هـ — «أطيب الصلاة مع الدول الصديقة ، وفي نطاق منظمة الأمم المتحدة» .

هذه البنود لا تفرق كثيراً عن تلك التي نصّ عليها ميثاق ١٩٣٨ الذي انبثق عن اجتماع ممثلي الطوائف والساسة والمهن الحرة في منزل السودا .

إلاّ أن ثمة دقائق هنا لا تبرز هناك :

— فعبارة «لبنان الواحد» مبهمة . هل تعني لبنان الفينيقي أو العربي أو اللبناني ؟ هل تعنيه كياناً مؤقتاً أو أبدياً ؟ فبحَسْبِ هذه الاتجاهات انقسم وينقسم اللبنانيون . والأخذ بوجهة نظر من مختلف الوجهات سيعني الانقسام وانتفاء الوحدة المبتغاة .

— وعبارة «الاستقلال التام» هي أيضاً غير وافية بشروط الوحدة أولاً ، لأن الاستقلال «التام» أمر غير واقعي وخاصةً بالنسبة الى زماننا . فانضواء البلد ، مثلاً ،

تحت راية «الأمم المتحدة» أو «جامعة الدول العربية» ، لوحده ، يحدّ من «الاستقلال التام» . ثم أن الاستقلال «التام» يعني الفصل التام عن العرب وعن الجوار ، وهو أمر لا يقبل به فريق من اللبنانيين .

وكذلك «استقلال لبنان التام» حضارياً عن الغرب لا يقبله فريق معين يعتبر الحضارة اللبنانية جزءاً لا يتجزّأ من حضارة الغرب . وهكذا بالنسبة للفريق اللبناني الآخر مع حضارة الإسلام والعرب .

— أما الإخاء بين المقيمين والمغتربين فإلى أي حدّ ؟ هل بامكان السودا أن يحمل فريقاً معيناً في لبنان على إعطاء حق المغتربين بالاقتراع في السفارات اللبنانية ، كما هو الحال مع سائر دول العالم ؟!

— ثمّ أنّ صهر المقيمين والمغتربين «في بوتقة الوطنية اللبنانية الجامعة تحت شعار «لبناني قبل كل شيء ..» أمر أيضاً متعذّر ولا يصلح شرطاً للوحدة بالنسبة الى فريق معيّن من اللبنانيين .

— وأيضاً إقامة أطيب الصلاة مع الدول الصديقة أمر هو الآخر غير سهل المنال ، أحياناً . فبعد ثورة ١٩٥٨ لم يكن موفوراً سبيل الأبقاء على توثيق العلاقات مع الولايات المتحدة الاميركية ، وكان محظوراً السماح لجنود الاسطول السادس الاميركي ، الرابض في البحر المتوسط ، الإبحار في موانىء لبنان وزيارة أراضيه للاستجمام ، مع ما في ذلك من فوائد إقتصادية كان يفتقر إليها البلد الذي تقوم ثروته ، في الدرجة الأولى ، على السياحة .

شعارات السودا للوحدة الوطنية في السنوات الستينات من هذا القرن

في نهاية السنوات الستينات يغيب السودا عن هذا العالم . إلا أنّه قبيل وفاته وبعدها يُنشر لهُ كتابان مهمّان : الأول، «في سبيل الاستقلال» (تموز ١٩٦٧) ، والثاني ، «تاريخ لبنان الحضاري» (١٩٧٢) .

في كتابه «في سبيل الاستقلال» ، يمكن إستنتاج الشعارات الآتية للسودا ، من

المقدّمة ومن محتوى الكتاب العام :

في المقدمة يؤكّد السودا أنهُ بعد المطالعات والأبحاث التي قام بها ، من المكاتب الشرقية في جامعة القدّيس يوسف في بيروت ، الى المكتبة الخديوية في القاهرة ، الى المكتبة الوطنية في باريس ، الى الكتب التي قرأها وأواخر المؤلفات التي وقف عليها ، بعد كل ذلك ، عرف أن للبنان تاريخاً يعود الى خمسة آلاف سنة ، وأن «لبنان كان في المشرق منذ القدم ، منار حضارة . معقل إستقلال حمى للحرية ...»[٤١]

أما في فصول الكتاب المختلفة ، فالسودا يستعرض مذكراته عن جهاده المرير من عام ١٩٠٦ الى عام ١٩٢٢ في سبيل الأهداف الآتية التي تكلّلت بالنجاح ، وهي كما يلي :

— من عام ١٩٠٦ الى عام ١٩١٠

أ — إسهامه الكبير في سَبيل تأسيس «الاتحاد اللبناني» في مصر للعمل من أجل لبنان .

ب — إثارته الرأي العام في المهاجر ضد إلحاق متصرفية «جبل لبنان» الى تركيا (١٥ — ٤٣) .

من عام ١٩١٠ الى عام ١٩١٣

أ — كفاحه ضد الاحتلال التركي للبنان .

ب — إتصاله بالجاليات وإنشاء الجمعيات اللبنانية (٤٣ — ٦١) .

١٩١٤ — ١٩١٨

أ — تجديد النضال في «الاتحاد اللبناني» من أجل استقلال لبنان عن سوريا في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٨ ، في حدوده «الطبيعية والتاريخية» .

ب — وضعه كتاباً بالاحتجاج على خرق تركيا نظام المتصرفية الدولي واحتلالها لبنان ، رفعه «الاتحاد اللبناني» الى الحلفاء في ١٩١٧/٢/٢٢ ، فكان له صداه في

المقامات الرسمية الدولية والبرلمانات والصحف والجاليات (٦١ — ٩٢) .

— محاربة السودا الدعاية السورية بمصر ، والدعاية الفرنسية واللجنة السورية المركزية بباريس ، والدعاية في الاسكندرية ، والدعاية الفرنسية في اميركا ، وترمي كل هذه الدعايات إلى ضم سوريا الكبرى ، بما فيها لبنان ، الى فرنسا (٩٢ — ١١٦) .

من عام ١٩١٨ — ١٩٢٠

استمرار السودا في محاربة مشاريع التوحيد العربية والسورية الرامية الى الإطاحة بلبنان (١٤٧ — ٢٨١) .

من عام ١٩٢٠ — ١٩٢٢

مواصلة السودا نضاله في سبيل السيادة الوطنية لـ «دولة لبنان الكبير» ، بالنسبة الى نظام الاحتلال الفرنسي ، وفي سبيل نظام جمهوري دستوري مستقل في البلاد (٢٨١ — ٣٥٩) .

في «تاريخ لبنان الحضاري»

في كتاب «تاريخ لبنان الحضاري » يبذل السودا جهداً مستميتاً في سبيل تأكيد وإثبات المبادىء التالية :

أ — الفينيقيون هم أجداد اللبنانيين ولبنان الحاضر هو وريث فينيقيا الوحيد ، تاريخاً وجغرافية .

ب — تاريخ لبنان الحضاري يكاد يقتصر على الحضارة الفينيقية .

أ — الفينيقيون هم أجداد اللبنانيين ولبنان الحاضر هو وريث فينيقيا الوحيد ، تاريخاً وجغرافية .

ب — مقاومة لبنان للفتح العربي حفاظاً على الحريات الدينية والاستقلال النوعي

ضمن الامبراطورية العربية حتى أفول شمسها وبزوغ فجر الفتح الصليبي ، حيث تمّ التحالف مع الصليبيين ضد العرب ، ثم ضد المماليك .

ج — التشديد على إمارة فخر الدين الثاني المعني في كيان لبنان الخاص المستقل داخلياً ضمن الامبراطورية العثمانية وعلى «الوحدة الوطنية» التي رفع فخر الدين منارها ، وكانت الركيزة التي بنى عليها العقيدة اللبنانية بالاستقلال ، وفي سبيله حارب الأمير الكبير الدولة «ثلاثاً وثلاثين سنة» (ص ٢٠٧) .

د — التشديد أيضاً على عهد الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير «يجدد في عزّته عهد فخر الدين (ص ٢١٤) .

هـ — التشديد على يوسف كرم (١٨٢٣ — ١٨٨٩) الذي «نشأ على الوطنية الصادقة» ، والذي أظهر «بطولة نادرة كرست استمرار الشوق اللبناني الى التحرر» (ص ٢٤٠ — ٢٤١) .

إذن ، في الكتاب الأخير الذي وضعهُ السودا ، في أواخر أيامه ، وقد صدر بعد وفاته ، يعود الى فكرته الاولى التي بثّها في كتابه «في سبيل لبنان» عام ١٩١٩ ، وقد كتبهُ في غضون السنتين ١٩١٧ — ١٩١٨ . يعود هو نفسه ، بعد زهاء خمسين عاماً من رحلته عبر «لبنان الكبير» — وكان قد سلخ حياته من أجل إخراجه الى النور ، ولولا الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ — ١٩١٨ لما كان ، على الأغلب ، من أمل في تحقيق هذا الكيان ولا كانت تفككت الدولة العثمانية التي إنبثق عنها هذا «الكيان» وسواه من الكيانات — يعود السودا بعد مروره بـ «الكيان» الى ما كان عليه قبله من آراء بشأن هوية اللبنانيين وكينونتهم .

ولربما كان لعدم تسنّمه كرسي رئاسة الجمهورية في لبنان كبير الأثر في عدم تحسّسهِ بأساليب التسويات العقائدية والسياسية و«اللعب على الكلمات» و«اللف والدوران» التي لجأ اليها كبار الساسة منذ عام ١٩٤٣ لاحتواء العقائد المتناقضة والتيارات والاهواء القومية المتنافرة ، فعاد الى افكاره القومية الاولى لعام ١٩١٨ التي بذرها في كتابه «في سبيل لبنان» ، بل ربما تجاوزها من حيث التطرّف والذهاب بعيداً في مبادىء سياسية تفصل بين اللبنانيين أكثر مما تجمع . ولا عجب ، وكتابه «تاريخ لبنان الحضاري» ، في الفصل المكرّس للحضارة الفينيقية ، يتضمّن أبحاثاً من أخطر المحاولات التي قام بها

القوميون اللبنانيون إزاء إيديولوجية القومية العربية .

لكن الذين تسنّموا مناصب مصيرية في «دولة لبنان الكبير» ، الذين حكموا بعد نيل هذا الكيان إستقلالهُ التام ، الذين عاصروا الأزمات العصبية التي مزّقت الكيان في عهد ما بعد الاستقلال ، الذين شهدوا ثورة ١٩٥٨ ، وقاسوا حرب ١٩٧٥ — ١٩٧٨ وما تلاها من حوادث دامية ، هؤلاء هل بقوا على مبادئهم بشأن الكيان ، كما كان الحال قبل نشوئه ، وقبيل الاستقلال وبعد نيله ؟؟

والذين اعتمدوا التسويات أساساً للوحدة الوطنية ، ولجأوا الى الشعارات الجوفاء الغامضة أو المطّاطة التي لا لون حقيقي لها ، ولا طعم ، ولا رائحة ، التي تتحمّل الف معنى ومعنى والف تفسير وتفسير ، الذين اقتصرت شعاراتهم على المواقف السلبية (نظير «لا حماية من الغرب ولا وحدة مع الشرق» أو «لن يكون لبنان للاستعمار مقرّاً أو ممرّاً لهُ» أو «لبنان لا لبنانان» والاتفاقات الناقصة والمبتورة والمشوّهة والسطحية ، للتعتيم على الانقسامات الجوهرية والفواصل العقائدية الأساسية التي تمت الى الدين بصلة وثيقة ، كل هؤلاء هل وفّقوا في طرقهم وأساليبهم في توحيد اللبنانيين ، وصهرهم في بوتقة مصيرية واحدة ؟

الخلاصة

آمن السودا قبل الكيان ، واثناءه وقبل الاستقلال ، بالقوة الذاتية للكيان تقوم على صهر أقوامه في بوتقة قومية واحدة ، فهل تحققت أمنيته ؟

آمن باستقرار الكيان بعد ذهاب فرنسا عام ١٩٤٣ ، فهل حصل الاستقرار؟

قال بتوثيق الروابط بين مختلف مذاهب «لبنان الكبير» ، فهل تحققت الاحلام ؟

جاهد في سبيل نقل كل مرافىء الحياة الاقتصادية والاجتماعية الى السيادة الوطنية ، معتبراً اللبنانيين شعباً واحداً مؤمناً بوطن واحد ، وناضل من أجل أن ينهض الفلاح ، والعامل ، والفقير ، والبائس ، والكادح ، فهل أثر كلّ ذلك في طريق تقدّم الكيان

خطوة واحدة نحو الوحدة القومية المصرية ، نحو الايمان به إيماناً غير مشروط ، نحو إرادة الإبقاء عليه الى أبد الدهر ، كما تمنّى هو ورفاقه في الجهاد ؟

إن الخضّات الكيانية التي شهدها لبنان ١٩٢٠ خلال عهد الانتداب وحتى قبيل الاستقلال ، والأبعاد التي أفضت اليها ثورة ١٩٥٨ ، والحدود التي بلغتها حرب ١٩٧٥ — ١٩٧٧ وملاحقها وذيولها وامتداداتها ، كل هذه كفيلة بتوفير الجواب على هذه الاسئلة .

السودا مع فرقة السباقة في مصر

الحواشي

(١) أنظر منشورات «الراية» لهذين العامين ، ١ و٢ ، التي اشرنا إليها سابقاً .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩ — ٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٠ — ٥٣ .

(٤) الموضع نفسه .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦٦ و١٦٧ و١٦٨ .

(٦) خلال هذه الفترة تعاقب على الحكم في «دولة لبنان الكبير» ، بموجب نظامها المؤقت ، أربعة حكام فرنسيين عيّنهم المفوض السامي والقائد الأعلى للجيش الفرنسي في سوريا ولبنان ، الجنرال غورو ، وهم الكابيتان جورج ترابو (١٩٢٠ — ١٩٢٣) ، وبريفا اوبوار (١٩٢٣ — ١٩٢٤) ، والجنرال فاندنبرغ (١٩٢٤ — ١٩٢٥) ، وليون كايلا (١٩٢٥ — ١٩٢٦) (راجع كمال الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث » ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٠٩) .

أما الفرنسيون الذين تعاقبوا في منصب المفوض السامي لتلك الفترة فهم الجنرال غورو (١٩١٩) ، الجنرال ويغان (١٩٢٣) ، الجنرال ساراي (١٩٢٥) ، وهنري دي جوفنيل (١٩٢٥ أيضاً) .

في ٨ آذار خطا الكيان الجديد خطوة أولى انتقالية من الحكم الأجنبي المطلق الى الحكم الوطني الرمزي أو النسبي ، إذ أصدر المفوض السامي بالوكالة روبر دي كي Robert de Caix، بإيعاز من الجنرال غورو ، قراراً بإنشاء مجلس تمثيلي للبنان الكبير (القرار رقم ١٣٠٤ و١٣٠٤ مكرّر) يحلّ محل «اللجنة الادارية للبنان الكبير» السابقة ، وينتخب اعضاؤه بالاقتراع الشعبي ، ويكون موزعاً حسب الطوائف ، ليعاون الحاكم الفرنسي ، لكن دون أن يمنح السلطة التشريعية بالمقدار نفسه الذي كان لسلطة الحاكم التنفيذية . أما الذين تعاقبوا على رئاسة هذا المجلس فهم : حبيب باشا السعد (١٩٢٢) ، نعوم اللبكي (١٩٢٣) ، واميل إده (١٩٢٤) (نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة ؛ إدمون رباط ، المرجع نفسه ، ص ٣٥٤ — ٣٥٥) .

(٧) كان السودا قد شهد في الاسكندرية فرق الكشافة المصرية التس أسّسها البرنس عمر طوسون ، فراعه ما رآه عند افرادها من الاهتمام بتربية النشء على الانتظام ، والتضحية ، والاعتماد على النفس بحيث «ينشأ منهم جيل تزهر به الأمة» : فما أن عاد الى لبنان حتى انشأ في بكفيا ، مسقط رأسه ، (آب ١٩٢١) ، وبمؤازرة الشباب الوطني المتحمّس لبلاده ، فرقة ضمّت بضعة عشر فتىً لا يزيد عمر كبيرهم عن إثني عشر ربيعاً . فكانت الفرقة الكشفية اللبنانية الاولى في التاريخ . وقد قدّم السودا لها ، في حفلة خاصة ، علماً خاصاً بها ، رسمت فيه الأرزة على قماش أبيض . وكان العلم اللبناني الرسمي آنئذ هو العلم الفرنسي ، وفي إطاره الأرزة . ودشّن السودا ، أيضاً ، في ١٥ من شهر آب نفسه ، في ميتم بحرصاف ، وهي بلدة تابعة لبلدية بكفيا الكبرى ، فرقة ثانية للكشافة ، يتخصص اعضاؤها من التلاميذ لبعض الحرف اليدوية .

اما اسم «السبّاقة» الذي اطلقه السودا على فرقهِ الكشفية في لبنان فتبرّك بذكرى الامير فخر الدين الثاني العني الكبير الذي كانت طلائع جيشه تدعى «السبّاقة» (انظر السودا ، «في سبيل الاستقلال» ، المصدر نفسه ، ص ٣٤١ — ٣٤٢) .

(٨) «رسالة الشباب» ، لجنة مؤلفات السودا ، ١ ، (لا ذكر لتاريخ أو لدار نشر أو مطبعة) . (٨٠ ص) ، ص ٣٨ .

(٩) «في سبيل الاستقلال» ، ص ٢٧ .
(١٠) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
(١١) أعاد السودا نشر هذه الخاتمة في كتابه «في سبيل الاستقلال» ، ص ١٩١ — ١٩٢ .
(١٢) «رسالة الشباب» ، طبعة ١٩٥٦ ، ص ٣٩ — ٤٠ .
(١٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١
(١٤) المصدر السابق ، ص ٣٧ .
(١٥) أنظر دراستنا بشأن الأمير المذكور والوحدة المزعومة ، في النشرة رقم ١٩ من منشورات «القضية اللبنانية» ، تحت عنوان «هل توحّد لبنان مع فخر الدين الثاني المعني ؟» ؛ راجع أيضاً ، كما الصليبي ، «تاريخ لبنان الحديث» ، الطبعة نفسها ، ص ١١ — ٢٩ .
(١٦) السودا ، «تاريخ لبنان الحضاري» ، الطبعة نفسها ، ص ٢٠١ .
(١٧) الموضع نفسه .
(١٨) أنظر «اخبار الأعيان في جبل لبنان» (نشر المعلم بطرس البستاني ؟)، ص ٥٥١ .
(١٩) «الحركات في لبنان» ، بيروت ، ١٩٥٢ ، ص ٧ — ٨ و٢٦ — ٣٣ .
(٢٠) «أخبار الأعيان» ، الطبعة نفسها ، ص ٥٧١ ، ٥٧٨ و٥٨٢ — ٥٨٧ ؛ أنظر أيضاً أسد رستم ، «المحفوظات الملكية المصرية» ، بيروت ، المطبعة الأميركية ، ١٩٤٠ ، ١ ، ص ٥٨٤ ؛ فيليب وفريد الخازن ، «مجموعات المحرّرات السياسية والمفاوضات الدولية» ، جونيه ، ١٩١٠ ، ١ ، ص ٥ ؛ يوسف مزهر ، «تاريخ لبنان العام» ، (بيروت ؟) ، ١ ، ص ٥١٢ .
(٢١) أنظر فيليب حتي ، «لبنان في التاريخ» ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، بيروت — نيويورك ، ١٩٥٩ ، ص ٥٣١ .
(٢٢) أنظر في ذلك اسكندر ابكاريوس ، «كتاب نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان سنة ١٨٦٠ » (مخطوطة مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت) ، ص ٧٨ — ٨٥ ؛ كمال الصليبي ، «تاريخ لبنان الحديث» ، الطبعة نفسها ، ص ١٣٩ — ١٤١ .
(٢٣) «منشورات الراية» ، ١ ، ص ٤٤ — ٤٧
(٢٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ — ٣٢ .
(٢٥) بعد أن ذكرنا سابقاً الحكام الفرنسيين والوطنيين الذين تسلّموا مقاليد الحكم والادارة ، من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ ، عام ولادة «الجمهورية اللبنانية» أي الحكم الوطني الدستوري ، من المفيد أن نذكر هنا وضع البلاد ، من حيث ادارة دفّتها ، خلال فترة الانتداب الفرنسي ، على أساس الحكم الجمهوري والدستوري ، من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٤٣ .
فمن المفوضين السامين الفرنسيين حكم ، خلال هذه المدة :
هنري بونسو ، ١٢ تشرين الاول ، ١٩٢٦
دميان دي مارتل ، ١٢ تشرين الأول ١٩٣٣
غبريال بيو ، ١٢ كانون الثاني ، ١٩٣٨
أما الذين تسنّموا منصب رئاسة الدولة فهم :
١ — شارل دباس (٢٦ أيار ١٩٢٦ — ١ كانون الثاني ١٩٢٣) .

٢ — بريفا أوبوار/(٢ كانون الثاني ١٩٣٣ — ٣١ كانون الثاني ١٩٣٣)
٣ — حبيب باشا السعد (٣١ كانون الثاني ١٩٤٤ — ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦)
٤ — اميل اده (٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ — ٤ نيسان ١٩٤١)
اميل اده رئيس دولة (١٠ تشرين الثاني الى ٢١ منه ، سنة ١٩٤٣)
٥ — الفرد نقاش (٢٤ تشرين الثاني ١٩٤١ — ١٨ اذار ١٩٤٣)
٦ — أيوب ثابت (١٨ اذار — ٢١ تموز ١٩٤٣)
٧ — بترو طراد (٢٢ تموز — ٢١ ايلول ١٩٤٣) .

(٢٦) أنظر كتيّبه ، بعنوان :
«Publications du Front National», appel aux Libanais, p. 3-5.
(٢٧) المصدر السابق ، ص ٥ — ٣١
(٢٨) المصدر السابق ، ص ٣٣ — ٤٤
(٢٩) أنظر مقالات الرجل في «منشورات الراية» ، المصدر نفسه .
(٣٠) «منشورات الراية» — ١ — ص ٩ — ١٢ .
(٣١) راجع مقالات المصدر السابق ، عامة .
(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣٣) أنظر كتيّب السودا تحت عنوان :
Confessionnalisme et Patriotisme, conférence donnée en date du 25 juin 1956, trad. ar. de Hector Khlat, consul général du Liban, éd. Rihani (35 p. de format moyen), p. 4-5.
(٣٤) المصدر السابق ، ص ٦
(٣٥) «رسالة الشباب» ، المصدر نفسه ، ص ١٨
(٣٦) المصدر السابق ، ص ٩ .
(٣٧) المصدر السابق ، ص ١٠ .
(٣٨) المصدر السابق ، ص ١٨ — ١٩ .
(٣٩) المصدر السابق ، ص ١٨ — ٢٠ .
(٤٠) المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٣ .
(٤١) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

المرتكز التاسع :
لبنان ليس منحة من الانتداب الفرنسي

المرتكزات التسعة الباقية مستوحاة من ردود السودا على مشاريع الوحدات التي من شأنها الإطاحة بالكيان اللبناني ، بعد أن وقف هذا الكيان على قدميه .

فمنذ الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) بدأ صراع السودا ورفاقه من القوميين اللبنانيين ، من مقيمين ومغتربين ، ضد رافضي «لبنان الذاتي» ، ولم يكن هذا الكيان قد أبصر النور بعد . وقام الكيان ولم تنفكّ المشاريع إياها تواصل طريقها ؛ ومضى على الكيان أكثر من عقدين من الزمن ، وبزغ فجر الاستقلال ، ولم تمت بعد الارادات الخارجية والداخلية التي تعتبر لبنان جزءاً من كلّ ، ووطناً مصطنعاً ، عابراً لا بد من إلحاقه بـ «الوطن الأصلي» .

فبعد نيل لبنان الإستقلال ، وأثر عودته من البرازيل ، رأى السودا أن البلاد لا تمزّقها انقسامات طائفية فحسب ، بل صراع صامت بين ايديولوجيتين ، واحدة لا تريد لبنان ، واتباعها من المسلمين والمسيحيين ، وأخرى تريده ، وانصارها من المسيحيين والمسلمين .

العقيدة التي تتنافى ولبنان تتمثل بنظرية «الوحدة السورية» وبمشروعي «الهلال

الخصيب» و«الوحدة العربية» ، وقد فصّلها السودا جميعاً في محاضرته «الطائفية والوطنية[1] ، وردّ عليها رداً كان الاول من نوعهِ حتى السنوات الخمسينات من هذا القرن .

فنلعرض ، أولاً ، مشاريع كل من هذه الوحدات» ، ونورد ، من ثمّ ، ردّ السودا عليها :

«الوحدة السورية»

لمس السودا أن لبنان ، بنظر أتباع هذه «الوحدة» ، ليس سوى «الشاطىء السوري» ، وبالتالي ، فاعلان الدولة اللبنانية كياناً وحدوداً ليس سوى إبتكار من لدن الانتداب الذي قام عام ١٩٢٠ ،

وبناء على هذه النظرية ، رفضت سوريا التبادل الدبلوماسي بينها وبين لبنان ، إسوةً بما بينها وبين سائر بلدان الجامعة العربية ، كما ترفض التوقيع على اتفاق اقتصادي بين البلدين ، على اعتبار أن لبنان ، بنظرها ، ليس سوى جزء من سوريا ، فلا موجب ، بالتالي ، لإقامة اتفاق اقتصادي بينها وبينه .

ويؤكّد السودا بأن فكرة «الوحدة السورية» هذه لها في لبنان أتباعها الذين يستغلّون كل مناسبة تعرض لهم «ليجحدوا هذا البلد»[2] .

مشروع «الهلال الخصيب»

يرمي مشروع «الهلال الخصيب» الى جمع سوريا والأردن والعراق ولبنان في اتّحاد موسّع . وهذا المشروع المدعوم من بعض الدول الكبرى لهُ أيضاً أنصار في لبنان .

إلاّ أنّ السودا لا يوضح من هم اتباع «الهلال الخصيب» ، هل هُم من دين معيّن ، كما هو الحال بالنسبة الى نظرية «الوحدة السورية» ، أم هم أتباع حزب يقول بقومية واحدة ضمن «سوريا الجغرافية» ، أم الفريقان معاً ؟

مشروع «الوحدة العربية»

نظرية الوحدة العربية أصبحت رقعتها الجغرافية امراً شائعاً وتحديدها كلاسيكيا . وفي زعم السودا — كما في زعم القوميين العرب أنفسهم — تمتد هذه الرقعة من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر ، ومن شرقي البحر المتوسط الى خليج العجم أو شط العرب . وتشمل خريطة هذا المشروع مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، ومصر ، والاردن ، ولبنان ، وسوريا ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، والإمارات التي كانت تحت الوصاية الانكليزية[3] .

ولسبب نجهله يغفل السودا عقيدة «القومية السورية» الممثّلة في لبنان بالحزب السوري القومي الاجتماعي وأجنحته وأنصاره ، وهي العقيدة التي تتنافى وعقيدة السودا اللبنانية ، تماماً كعقيدتي «الوحدة العربية» و«الوحدة السورية» ومشروع «الهلال الخصيب» . بل انهُ قَبِلَ المدافعة عن الحزب المذكور في تهمة الانقلاب الموجهّة إليه[4] ، مع أن تعاليم القومية السورية تقول بأن «لبنان الكبير» ، الذي كان السودا من بناته ، هو جزء من سوريا الجغرافية ، وجزء من أمة واحدة تشغل هذا الحيّز من الخريطة الأسيوية ، وبالتالي ، فالعمل لتحقيق هذه الوحدة كيانياً وسياسياً وقومياً ، أو لاعادتها ، واجب ، وينبغي أن يستمر دونما انقطاع . لبنان السودا أزلي أبدي سرمدي ، بينما لبنان القوميين السوريين ظرفي مؤقت ، والادعاء بالحفاظ عليه لوقتٍ معين تحت ضغط عوامل معينة ، مجرد عمل تكتيكي لتحقيق ستراتيجية ضمّهُ الى بيئته الجغرافية «السورية» وتذويبه فيها . وشعارات هذا الحزب وكتابات زعيمه ومفكريه واعلامه ونشاطاته المختلفة ، كل ذلك يسهم دونما هوادة في الوصول الى هدف «الوحدة» المذكورة ، مهما طال الزمن واياً كان الثمن . وبعبارة أخرى ، هل يستطيع السودا أن يفصل «التكتيك» الذي يتبعه الحزب المذكور في تصريحه بالعمل مؤقتاً وآنياً للابقاء على الكيان اللبناني وبين الستراتيجية التي هي عمل بعيد المدى عميق الجذور ، وتبغي تحقيق الوحدة القومية لـ «الأمة السورية» في الكيانات السياسية «المصطنعة» التي احدثها الاستعمار ، خاصةً بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ؟

وماذا لو أقدم السودا على محاولة الدفاع عن محاولة انقلاب سياسية بقصد الاصلاح

قام بها حزب في لبنان يعمل لمشروع الشريف حسين أو مشروع الملك فيصل ، وقد حارب هو نفسه المشروعين ، حتى ما بعد إعلان «دولة لبنان الكبير» ، كما يتبيّن من كتابه «في سبيل الاستقلال» ، مع أن المشروعين منحا لبنان استقلالاً داخلياً ، ورضيا له بوضع خاص ممتاز ومميّز ، ضمن فيدراسيون ، أو كونفيدراسيون ، أو اتحاد ، أو وحدة سورية أو عربية ؟

وماذا قد يكون موقف السودا لو أن الفريق المسلم في لبنان قام ، عام ١٩٣٦ ، بمحاولة انقلاب داخل لبنان ، قصد الاصلاح السياسي ، وهو يفكّر ويشعر ويعمل بوحي من عقيدة عربية تقول بضمّ الأقضية المعادة الى لبنان عام ١٩٢٠ ، الى سوريا ، أو بضم لبنان الى مشروع إتحاد أو وحدة عربية ؟

حجج رافضي لبنان ورد السودا

وبعد ، فإن الحجج الذي يتذرّع بها رافضوا لبنان ، هي ، في رأي السودا ، الآتية(٥) :

أولا : إنّ وجود لبنان كياناً مستقلاً قد يصبح للاستعمار ممرًّا

ثانياً : إن استقلال لبنان قد يضحي عائقاً في طريق «الوحدة» .

ثالثاً : إنّ وجود الأقلية المسيحية في الشرق لا يَتطلّب إنشاء دولة لبنانية ، طالما أن الدول الإسلامية الشرقية تضمن لأقلياتها حرية ممارسة العبادة ، الى جانب ضمان حرية الإقامة والملكية .

تلك هي مبادىء معتنقي المشاريع الوحدوية التي تؤدّي في حال تحقيقها الى زوال كيان واستقلال لبنان . فما هو موقف السودا منها ؟

يردّ السودا بأن معتنقي فكرة «الكيان اللبناني» لهم ذرائعهم أيضاً . فقانون الأيمان الذي يدينون به هو الآتي :

أولا — لبنان ليس منحة من الانتداب :

وهذا المبدأ يشكّل الأقنوم التاسع لعقيدة الرجل القومية ، يروح يشرحهُ بالأدلة

التاريخية ، قديماً وحديثاً .

فقد نعم لبنان ، في رأي السوْدا ، بوجود ذاتي في الشرق ، قبل أن أصبحت فرنسا دولة في الغرب .

وعندما كان معظم الدول الغربية لم ينعم بعد لا بوجود ولا بأمجاد طبّق الكتاب المقدس على العذراء هذه الآية : Gloria Libani data est ci أي بما معناه : مجد لبنان أعطي لها .

ويؤكد السودا أيضاً ، أنّ الذاتية اللبنانية دافعت عن نفسها حتى الفتح العثماني ، عام ١٥١٦ ، وقد اعترف السلطان سليم بهذا الوجود القومي بشخص الأمير فخر الدين الأول ، كما اعترف للسلالة المعنية بالامارة في لبنان . ونما نحو السلطان سليم ، في هذا المجال ، سائر خلفائه من سَلاطين بني عثمان .

حتى اذا ما انطفأت شعلة المعنيين ، عام ١٦٩٧ ، انتقلت الإمارة الى أمير من أم معنية ومن أب شهابي ، هو الأمير بشير (الذي أمه هي بنت ملحم معن وأبوهُ حسين شهاب) . فنادى به اللبنانيون وريثاً للحكم المعني ، كما أسرع الباب العالي في تثبيت هذا الانتخاب .

وفي عام ١٧٠٧ ، أي بعد عشر سنوات تلت تنصيب الأمير بشير ، جدّد اللبنانيون تولية الشهابيين ، لكن بشخص أمير آخر ، معني الأم وشهابي الأب ، ألا وهو الأمير حيدر ، جدّ الشهابيين الحاليين(٦) . ومرةً أخرى يقرّ الباب العالي هذا التنصيب ، ويعترف بالأسرة الشهابية وريثة للامارة المعنية .

ويؤكّد السودا ، كذلك ، أن مناعة لبنان وطمع الأمير أقلق مضاجع السلطنة العثمانية التي حاولت طوال ثلاثمائة سنة الحدّ من سلطان الامارة اللبنانية وضمّها الى السلطنة .

لكن لا لبنان ضُمّ ، ولا الإمارة قوّضت . حينذاك ، ولدت في رأس العثمانيين فكرة التلخّص من لبنان بواسطة الانقسام الديني .

فاستخدمت هذه الواسطة ، طيلة عشرين عاماً ، من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ ، بينما كان الدروز والمسيحيون عائشين ، من قبل ، طيلة سبعة قرون ، عيشة اخوّة وتفاهم لم يفسدَها مفسد .

إلاّ أن السودا لا يدخل في التفصيل ليوضح العهود التاريخية التي تمّ فيها هذا الاتفاق المسيحي الدرزي .

بل ، لا يذكر أن ثمة أقواماً غير الدروز أسهموا في سوريا ، وخاصةً دمشق ، في هذه المجزرة الطائفية .

ويعود السودا الى الدفاع عن استمرارية الوجود اللبناني المميّز ضمن السلطنة العثمانية ، فيؤكد أن سياسة «فرّق تسد» التي اتبعها العثمانيون لم تجدِ نفعاً في الإطاحة بالكيان اللبناني ، بل أن حوادث ١٨٦٠ المؤسفة أدّت الى تثبيت هذا الكيان وضمان استقلاله باتفاق دولي وقّعته الدول العظمى : انكلترا وفرنسا والنمسا — المجر وروسيا وبروسيا ، ثم ايطاليا عام ١٨٦٨ . وكان عهد المتصرفية الذي دام حتى الحرب العالمية الاولى ، التي اجتاح اثناءها الجيش التركي لبنان ، وقضى على استقلاله الداخلي .

إلاّ أن صوت اللبنانيين المغتربين بقي حرّاً . فهبّت الجمعيات اللبنانية في العالم ، وعلى رأسها «الاتحاد اللبناني» في مصر ، و«الجامعة اللبنانية» في أميركا الشمالية ، و«اللجنة اللبنانية» في باريس ، تهزّ الارض والسماء ، وتستصرخ الحلفاء ، وتلوذ بالفاتيكان ، وتثير الرأي العام العالمي في أوروبا وأميركا . فكانت نشاطاتها ، خلال سني الحرب العالمية الاولى والاربع ، بحيث حصلت من انكلترا وفرنسا وايطاليا والفاتيكان على ضمان الاعتراف بلبنان مستقل ، بعد أن تنتهي الحرب[7] .

ومن هنا ، أن اعلان استقلال لبنان ، عام ١٩٢٠ ، ضمن حدوده الطبيعية ليس ، في نظر السودا ، سوى ثمرة الجهود المبذولة ، وتحقيق التعهدات المقطوعة ، والاعتراف بواقع تاريخي[8] .

الحواشي

(١) راجع كتّيبه ، بعنوان *Confessionnalisme et Patriotisme,* المذكور آنفاً .

(٢) لا ريب أن السودا يقصد هنا الفريق المسلم في لبنان . وبالفعل ،فإن من بين المواقف الاسلامية السلبية التي حصلت بشأن «لبنان الكبير» ، و«الجمهورية اللبنانية» ، في عهد الانتداب الفرنسي ، انعقاد ما سمّي بمؤتمر الوحدة السورية في دمشق بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٢٨ ، ومن ممثليه البارزين رياض الصلح . وكان الهدف من المؤتمر العمل لوحدة سوريا الاصلية ، بدون سنجق جبل لبنان القديم لعام ١٩٦١ (راجع *Correspondance d'Orient*, de Paris, numéro d'août 1928, p. 82).

ومن بين المواقف الاسلامية أيضاً نذكر ما سمّي بـ «مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة» ، وقد دوّنت ابحاثه في كرّاس صغير ، ودارت اجتماعاته في دار علي سلام في بيروت ، بتاريخ ١٠ اذار ١٩٣٦ . كما نذكر مؤتمراً آخر ، عقبه ، دُعي بـ «المؤتمر الاسلامي» ، وقد حضرتهُ تقريباً الشخصيات التي أجتمعت في الأول . اما غاية المؤتمرين فقد عبّرت عنها احدى الشخصيات التي حضرتها ، بقولها : «تعلمون ، ايها السادة ، اننا في ظروف خطيرة ... ولما كنتم من مفكري هذه الامة ، ومن مجاهديها المخلصين ، فقد دعوناكم لعقد مؤتمر نقرّر فيه موقفنا نحن ابناء الأقضية والمدن المنسلخة عن أمّنا سورية ....» (راجع كتّيب ، بعنوان «مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة» ، وهو المؤتمر الذي عقد في دار علي سلام في بيروت ، في ١٠ اذار سنة ١٩٣٦(ص ٣ـ٤) .

ويجب الاشارة الى أن الشيخ نجيب سليم الدحداح ردّ على مقررات المؤتمرين هذين ببحث مستفيض ، حاول فيه تبيان «لبنانية» الأقضية المسلوخة عن لبنان عام ١٨٦١ ، على الصعيد التاريخي ، وذلك في مجلة «المشرق » لعام ١٩٣٢ ، وبعنوان «لبنان الكبير في التاريخ» (المجلد ٣٢ ، ص ٥٥٥ — ٥٧٥) .

(٣) أنظر كتيّب السودا *Confessionnalisme et Patriotisme*, p. 7-8.

(٤) تقع المطالعة الخطيّة التي القاها السودا ، بصفته أحد محامي الدفاع عن محاولة الانقلاب التي أُلصقت بالحزب السوري القومي الاجتماعي ، ليل ١٩٦١/٣١/٣٠ ، أمام محكمة التمييز العسكرية ، في واحد وأربعين صفحة .
وكان قد جاء في قرار الاتهام أن المؤامرة تستهدف : تغيير الدستور بطرق غير مشروعة . وإثارة عصيان مسلح ضدّ السلطات القائمة . وإغتصاب السلطات المدنية والعسكرية . وإثارة الحرب الأهلية . وخطف بعض الضباط . وكذلك تأليف فصائل مسلّحة وعصابات بقصد اجتياح املاك الدولة ومهاجمة القوّة العامّة (ص ٤) .

فأكد السودا أنهُ غير صحيح أن المؤامرة تعرضت للدين أو للكيان اللبناني ، وغير صحيح أن علم الارزة ضرب بالرصاص وديس بالأرجل ، وان المؤامرة فكرت باغتيال رئيس الجمهورية ، وان لدولة أجنبية أو أكثر يداً في المؤامرة ، وان مالاً أجنبياً غذّى المؤامرة ، وان القوميين خائنون للبنان (ص ٣٠) .
ويزيد السودا فيزعم أن للحزب القومي شقّين : اجتماعي وسياسي ، وان الاول عمل تبشيري فلسفي ثقافي يبشر أول ما يبشر به ، بالغاء الطائفية والاقطاعية وتعميم المساواة ، في لبنان والبيئة الجغرافية المحيطة به (ص ٣١) .

(٥) راجع كتيّب السودا : *Confessionnalisme et Patriotisme*, p. 8.

(٦) أمه بنت الأمير احمد معن وأبوه الأمير موسى شهاب .

(٧) الوثائق المتعلقة بهذه النشاطات وتلك الاتصالات نشرها السودا في كتابه «استقلال لبنان والاتحاد اللبناني في الاسكندرية» (طبع ١٩٢٢) وفي كتابه «في سبيل الاستقلال» .

(٨) *Confessionnalisme et Patriotisme*, pp. 9-11.

المرتكز العاشر :
لم يكن لبنان ممرّاً يعبر عليه الاستعمار

يواصل السودا الردّ على الحجج التي يتذرّع بها أعداء لبنان لتبرير إزالته ، فيعلن ما يمكن أن نعتبره المرتكز العاشر لعقيدته القومية ، وهو أن **لبنان لم يكن يوماً ممرّاً يعبر عليه الاستعمار** .

ويلجأ الى التاريخ ، أيضاً ، مؤكداً بأنهُ لا يعرف عهداً من عهود التاريخ شكّل فيه لبنان ممرّاً للاستعمار أو للفاتحين . بينما لم يمرّ عهد ، في عرفه ، لم يعرف فيه جوار لبنان قدم فاتح من الفاتحين ، وذلك طيلة خمسة آلاف سنة .

ويقدّم السودا كأدلّة على نظريته هذه ، الحجج التاريخية الآتية :

أ ــ **البابليون** اجتاحوا سوريا نحو العام ٢٨٠٠ق.م. ، وقد دخلوا اليها براً من جهة الشرق .

ب ــ **المصريون** اجتاحوا سوريا في القرن الخامس عشر قبل المسيح ، آتين من الجنوب .

ج ــ **الحثيون** الزاحفون من الشمال دخلوا سوريا في القرن الثالث عشر ، قبل

المسيح ، واقتسموا البلاد مع المصريين .

د ــ **الأشوريون** الذين تغلغلوا من جهة الشرق سادوا سوريا حتى القرن الثامن ، ثم عقبهم الماديون وطُردوا بدورهم في القرن التاسع ، بواسطة الفرس الآتين من الشرق .

هـ ــ **الاسكندر المقدوني** الذي سلك طريق بيزنطية نزل من الشمال ، ودخل سوريا عام ٣٣٣ .

و ــ **الرومان** بعد احتلالهم ارمينيا ، تابعوا سيرهم حتى جبال طوروس التي اجتازوها في العام ٦٤ ق . م . ، ودخلوا سوريا التي امسَت أقليماً رومانياً ، ثم إقليماً بيزنطياً حتى الفتح العربي .

ز ــ **العرب** في فتحهم جاؤوا من الجنوب وبطريق البرّ ، وذلك في القرن السابع للمسيح .

وعقب الفتح العربي ، ظلّت سوريا حتى مجيء الصليبيين ، خاضعة تارةً لبغداد وطوراً للقاهرة .

ح ــ **الصليبيون** الذين اجتازوا كل اوروبا الغربية احتلوا بيزنطا ، ليتابعوا زحفهم حتى سوريا ، حيث دخلوها في القرن الحادي عشر من الشمال ، وداموا فيها حتى نهاية القرن الثالث عشر .

ط ــ **المماليك** بلغوا مصر من الجنوب في القرن الثامن ، واستولوا على سوريا حتى الفتح العثماني .

ك ــ **الأتراك** في عام ١٥١٦ انقضّوا بواسطة السلطان سليم على سوريا من أعالي جبال طوروس ، ليرفعوا على ربوعها العلم العثماني ، ويبقى مرفرفاً خفّاقاً حتى الحرب العالمية الاولى .

ل ــ وأخيراً ، نفذ الحلفاء ، في أعقاب الحرب العالمية الاولى (عام ١٩١٩) ، الى سوريا ، آتين من مصر عن طريق الجنوب ، ولم يدخلوا عن طريق لبنان ، تماماً كما الفاتحين الذين سبقوهم في التاريخ[1] .

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ ــ ١٣ .

المرتكز الحادي عشر :

ليس لبنان وحده حجر العثرة في طريق الوحدة العربية

ثم ينتقل السودا الى الحجة الثانية التي يتذرّع بها «الوحدويون» ، ومفادها ان «استقلال لبنان قد يضحي عائقاً في طريق الوحدة» ، فيردّ بأن معتنقي العقيدة اللبنانية يعتقدون بأن **الاستقلال اللبناني ليس هو حجر العثرة دون الوحدة** ، فالقوميون اللبنانيون مقتنعون بأن ما يعوق توحيد البلدان العربية ، من المحيط الاطلسي الى خليج العجم ، انّما هي عوامل عربية محلية ، وتباينات تاريخية ، واعتبارات جغرافية ، ومصالح دولية .

ويحسَب السودا ، لا العاطفة ولا الاشتراك في الدين أو في الأصل أو في اللغة هي عوامل كافية في مجموعها لتحقيق الوحدة السياسية ، اذا ما واجهتها الوقائع المذكورة.

من هنا ، يستنتج السودا بأن العوامل نفسها حالت دون تحقيق توحيد اوروبا واميركا :

فكرة «الوحدة الاوروبية»

يفصّل السودا حجته ، في ما يتعلق بالقارة الاوروبية ، فيذكر بأن فكرة «ولايات اوروبا المتحدة» تعود الى زمن نابليون الاول ، وقد عادت دوماً الى بساط البحث ، فيما بعد ، حتى عهد بريان (Briand) . وما زالت الفكرة حلماً .

فكرة وحدة اميركا

الولايات المتحدة الاميركية في الشمال تؤلّف مع كندا أكثرية ساحقة من أصل انكلو — سكسوني ، ولغتها الانكليزية .

واميركا الوسطى والجنوبية — ما عدا البرازيل — من أصل اسباني ، ولغتها الاسبانية ، ومذهبها الكثلكة .

وفكرة الوحدة الاميركية أبصرت النور يوم تمّ تحرير أميركا الجنوبية . وأبطال التحرير هذا هم أنفسهم روّاد الوحدة ، وفي طليعتهم بوليفار ، وسان مارتان ، واوهيجينس (O'Higgins)، وارتيغاز (Artigaz) .

ومع هذا ، فلم تجدِ محاولات التوحيد بأنواعها وأشكالها المتعدّدة .

الوحدة العربية مستحيلة

بعد أن يبيّن السودا تعذّر تحقيق الوحدة في اوروبا وفي أميركا ، سواء الشمالية منها ، أو الوسطى ، أو الجنوبية ، وسواء كل أميركا ، أو أكثرية دولها ، يعود الى تحليل تعذّر هذه الوحدة بين الدول العربية منذ عصور الفتح العربي :

فقبل نحو الألف ومئتي سنة خلع آل العباس في بغداد عرش الامويين في دمشق . والضغينة التي تولّدت بين العباسيين والأمويين ، في رأي السودا ، حملت هارون الرشيد العباسي على السعي الى التحالف مع شارلمان ، ركيزة المسيحية في عهده ، ضد خلفاء الأندلس الأمويين المسلمين .

ويستنتج السودا بأنهُ لا وحدة الدين ، ولا وحدة اللغة ، ولا وحدة الأصل ، حالت دون الحروب مع بغداد ودمشق والقاهرة ، طيلة أجيال ، لاحراز السلطة والسيادة ، هذا ، عدا التنازع المتواصل الذي نشأ بين العديد من رؤساء السلالات والإمارات المحلية .

ووحدة الدين لم تمنع ، كذلك ، العثمانيين من تقويض سلالة العباسيين ، بحيث امتدّت سلطة اسطمبول الى القاهرة ، وبغداد ، ودمشق ، طوال أربعة أجيال .

بل ان وحدة الدين لم تمنع ، بنظر السودا أيضاً ، محمد علي من التحالف مع فرنسا المسيحية ضد الدولة العثمانية المسلمة ، التي كانت ، هي بدورها ، حليفة انكلترا المسيحية .

أما في ايامنا ، فيجد السودا بأن احوال مختلف العواصم العربية تقدّم لنا الدليل على أن قوانين الطبيعة والتاريخ والجغرافية لا تتبدّل ، عبر العصور ، وان نتائجها هي نفسها ، سواء في اوروبا ، او في آسيا ، او في افريقيا ، أو في اميركا .

ويختم السودا موضوع تعذّر الوحدة بين العرب بقوله :

«واياً كان الأمر ، فاليوم الذي تهدأ فيه العواصف ، وتسكن العناصر الثائرة ، اليوم الذي تزاح فيه كل العوائق ، وتشاد امبراطورية عربية أو رمزاً لوحدة كلية ، ويخفق علم الاستقلال والسلام على مراكش متحدة بالجزائر ، بتونس ، بليبيا ، بمصر ، بالاردن ، بالعربية السعودية ، باليمن ، بالإمارات العربية المتحدة ، بالعراق وبسوريا ، اليوم الذي تمحى فيه اسرائيل من الخريطة ، وتغادر فرنسا افريقيا الشمالية ؛ وتتخلّى تركيا عن سنجق الاسكندرية وانطاكية ، وتنسحب انكلترا من العراق ، من الاردن ، من قبرص ومن الإمارات ؛ وتترك اميركا آبار بترول شبه الجزيرة العربية ، اليوم الذي لا يبقى فيه انقسامات بين الأسر المالكة ، ولا اختلافات بين العواصم ، اليوم الذي لا يدوم فيه لعرقلة الامبراطورية العربية الكبرى ، سوى وجود لبنان ، هذا اليوم ...، سيكون لنا إليه رجعة ندلي فيها بدلائنا»[١] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣ — ١٩ .

هذا القول فاه به السودا في حزيران ١٩٥٦ . لكن ، بعد ذلك الحين ، تحقّق الكثير مما رآه الرجل ، يومذاك ، مستحيلاً ، أو متعذّراً . فالخريطة العربية لم تتغيّر منذ ما بعد الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) حتى ايامنا ، بل زالوا من المواقع العربية اولئك الذين رسموا الخريطة إياها . اولئك الذين وضعوا الحدود والسدود ، وخاطوا وحاكوا القميص العربية . كاسبو حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، ابطال مؤتمر الصلح لعام ١٩١٩ ؛ هوت من أيديهم مكاسب الحرب في عالم يمتدّ من الخليج الى المحيط ، ما خلا لواء الاسكندرونة .

كانت عقيدة السودا تتنافى والوحدة العربية ، تطيح بكيان «لبنان الكبير» الذي جاهد من أجل خروجه الى النور . فاذا بهِ ضد اية وحدة عربية ، أية كانت ، سواء شملت لبنان أم لم تشمله . فكانت الحجج التي قدّمها تأييداً لفكرة استحالة الوحدة تلك . كانت احدى ذرائعه ان من العوائق القائمة في وجه الوحدة العربية خضوع كثير من البلدان العربية ، في حكمها ، لدول غربية .

وكان شبه مطمئنّ الى أن الرياح الغربية ستظلّ تهبّ لصالح هذه العقيدة . واليوم تراه أسقط هذا السلاح من يديه . فالاستقلال انتزع انتزاعاً من فرنسا في شمالي افريقيا . وانقلبت الدنيا رأساً على عقب في كل من ليبيا ، ومصر ، والاردن ، واليمن ، وإمارات الخليج ، وفي كل من العراق ، وقبرص ، واما البترول فملكية خاصة لدول البترول العربية ؛ ويكفي ان يومىء بيده عاهل عربي ، علامة التهديد بقطع بتروله عن العالم ، ليشلّ حركة السوق الاوروبية المشتركة ، على الأقلّ ، ويهزّ الاقتصاد العالمي هزّة عنيفة ومرعبة .

لكن ، بالرغم من تحرّر بلدان العالم العربي من سلطة الغرب فانّ نبوءة السودا لم تسقط في جوهرها . زال واضعوا الخريطة العربية . والخريطة ما زالت حيث هي . الحدود والسدود ما انفكّت إياها . الأسر المالكة المتنافسة أضيف اليها الحكام المتنافسون على السيادة ، يتنازعون النفوذ . فلم تقم وحدة العالم العربي ، بل لم تبصر النور هذه الوحدة بين بعض اجزاء العالم العربي إلاّ ليخبو نورها ، بعد قليل ، وتعود الامور الى بدايتها . الحكّام العرب هم الحدود والسدود . فهل الحكام في وادٍ والشعوب في وادٍ آخر ؟ لا ، الشعوب العربية نفسها تكاد ، مع عامل الزمن ، تتحوّل الى أمم عربية ،

والوطن الواحد المنشود الى أوطان متعدّدة ، نهائية . لكان النفوذ الغربي في المنطقة وحده كان القاسم المشترك بين الاقطار العربية . ولولا القضية الفلسطينية لربّما تعذّر ان يصافح بلد عربي بلداً آخر .

ذلك ان المصالح التي تؤمنها في عصرنا ما يسمّى بالدولة لا تتوفّر في جمع شتات ما يُدعى بالأمة الواحدة .

الأمر كذلك منذ أول دولة إسلامية في التاريخ ، منذ معاوية . السودا على حقّ في كلامه عن التاريخ العربي وفي كلامه عن المستقبل العربي .

سقطت حجته في ما خصّ سرمدية النفوذ الغربي في المنطقة وبقي سلاح واحد لم يسقط ، وهذا السلاح وحده ، المتمثل بالتنازع على البقاء بين الأسر العربية والحكام العرب ، وحده اقوى من وجود فرنسا في شمالي افريقيا ، وبريطانيا في الاردن والعراق ، وايطاليا في ليبيا ، وحده يقسّم الشعوب الى أمم .

ثم حصل ما لم يذكره السودا على الخريطة العربية . حلّ محلّ النفوذ الغربي تطوّر دولة اسرائيل وانقسام العرب الى يمين ويسار .

في الاولى قامت دولة غربية ، من أحدث دول الأرض ، وتفوق بخطورتها الدول العربية جمعاء . انها في قلب العالم العربي .

وفي الثانية سقط العرب فريسة التجاذب بين الشرق والغرب ؛ ذلك ان التطوّر الذي بلغه الجباران العالميان جعل كليهما أقوى من أن يحتاج الى وجود ذاتي في المنطقة العربية وفي اية منطقة في العالم . فاتباع نظام كليهما في كل منطقة وفي كل زاوية من العالم ؛ والعالم العربي في قائمة الأمم النامية ، وذلك بحكم ما للعملاقين العالميين من قوة عسكرية خيالية تؤثّر في الأمم الصغيرة ، من دون أن تظهر على الشاشة ، وبمجرّد وجودها ، وحضورها ، وسرعة تحركها ، وسهولة تنقّلها المذهلة .

المرتكز الثاني عشر :
لبنان واجب الوجود لكونه قلعة الحريّات

يصل السودا إلى الحجة الرابعة التي يتذرّع بها مناوئو الكيان اللبناني ، ومؤدّاها أن وجود الأقلية المسيحية في الشرق لا يتطلّب إنشاء دولة لبنانية .

القول بأنه لا موجب لوجود لبنان مستقل في الشرق ، إكراماً للمسيحيين ، طالما أن الأمم الإسلامية تتيح للأقليات فيها حرية ممارسة العبادة — دون المساواة في الحقوق المدنية والسياسية والدستورية وبدون الفصل بين الدين والدولة — هذا القول يتحفّظ بشأنه السودا ، ويعلن بأنه ليس من اللائق الخوض في صحته في ذلك العهد ، وهو يعتقد أن عقلاء المسلمين والمسيحيين يؤيدونه في رأيهِ هذا .

لكن وجوب وجود لبنان ، في نظر السودا ، له أسباب أخرى تفرضها رسالته التاريخية في هذه المنطقة من الشرق .

فهو يرى ، وهو ما يقوم مقام المرتكز الثاني عشر لعقيدته القومية ، بأن : **لبنان واجب الوجود ، لأنهُ قلعة الحريّات** .

وهنا أيضاً يسائل السودا التاريخ ، فيؤكّد انه لمن الجهل الأعلان أن لبنان ليس

سوى ملجأ للمسيحية . فمنذ أقدم الأزمان ولبنان في خدمة الاستقلال ، وناشري الاستقلال في الشرقين الأدنى والأوسط :

أ ـــ لبنان ملجأ الوثنيين

في القرن الاول من التاريخ انتشرت المسيحية في سوريا وفلسطين على انقاض عبادة الاصنام . أما من لم يعتنق الدين الجديد فقد كان أول لاجيء الى لبنان ، بحيث انه حتى القرن الثالث كانت عبادة أدونيس وعشتروت ما تزال قائمة على شاطىء جبيل ، وفي معابد أفقا وسواها ، في الوقت الذي كان يعتنق فيه أهالي بيروت الدين الجديد .

ب ـــ لبنان ملجأ الموارنة

مارس اليعقوبيون الاضطهاد بحق الشيع المختلفة عنهم في شمالي سوريا ، في القرن السادس ، تعضدهم ، في ذلك ، بيزنطية نفسها . فرفض أتباع الراهب مارون اعتناق «الهرطقة» ، وآثروا هجر السهول الخصبة التي يرويها نهر العاصي ، ليقيموا في لبنان ، ويحافظوا على إيمانهم وعقيدتهم .

ويضيف السودا بأنهُ قد حذا حذو الموارنة ، في مستهل القرن السابع وما بعده ، عدد من الشيع المسيحية الأخرى في سوريا والأقطار المجاورة .

ج ـــ لبنان ملجأ الدروز

في القرن الحادي عشر هجر الدروز ضفاف النيل ، وقطنوا جنوبي لبنان .

ونحو منتصف القرن التاسع عشر انتقل دروز آخرون من أعالي الجبل السوري الى لبنان ، ملتمسين حماية الامير بشير .

ويضيف السودا ، بأن كل هذه الأقوام المختلفة امتزجت بابناء لبنان الأصليين ، «لتنصهر جميعاً في البوتقة اللبنانية ، دونما تمييز بين دين وآخر ، وبين طائفة وأخرى ،

مسهمةً في «تكوين هذا الشعب اللبناني البطل» . لكأنَ السودا يريد تبريراً تاريخياً للتعايش ضمن الكيان اللبناني لعام ١٩٢٠ ، بأي ثمنٍ كان .

ولا يغفل عن السودا ذكر بقية السلسلة من الطوائف والأثنيات التي لجأت الى لبنان لتتبنّاه وطناً نهائياً ، كالاشوريين والسريان والارمن ، بحيث شبّه لبنان ، على هذا الصعيد ، بسويسرا . مع ان هذه الدولة الأخيرة لم تكن دولة لاجئين خلال العصور ، وليس لها عراقة التاريخ اللبناني ، ولا غناه التراثي القديم ، ولا التعدّد الاثني الذي انتهى إليه[١] .

يشدّد السودا على القومية الواحدة ، كما لوكانت شرطاً للمجتمع السياسي وللدولة ، وكما لوكان هذا الأمر متوفراً في جميع البلدان من شرقية وغربية .

الا أنه لا بد من القول أن كثيراً من الدول تتألف من أكثر من قومية واحدة ، ومع هذا ، فان لها رأيا رسمياً واحداً لجهة الكيان والمصير ، كما لوكانت قائمة على الوحدة القومية ، وليست على التعددية في الاثنيات وحتى اللغات .

ولا بد من الاشارة أيضاً الى أنه غفل عن السودا ـــ وهذا أمر واضح في كتاباته ونشراته ـــ وجوب احترام التعددية في الاثنيات والحضارات ضمن الدولة الواحدة ، وما يتبع ذلك من تدابير ادارية وأوضاع سياسية . ولربما لم تكن هذه القضية مطروحة في ايامه ، على الأقل ، بالنسبة الى لبنان .

إلا أن السودا أصاب في مقارنته لبنان بسويسرا ، لجهة البلد المحايد ، وإن مبدئياً ، وبوصفه ملجأ للسياسيين المبعدين أو اللائذين بأرضه ، لاسيما في حال النزاعات التي قد تقوم في الأقطار المجاورة للبنان .

لكن ، في موضوع الحياد نفسه ، هل باستطاعة لبنان الحفاظ عليه ، وبعض أبنائه سرعان ما يميل الى محاور معينة أو دول معينة في حال قيام صراعات سياسية في قلب العالم العربي ؟

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩ ـــ ٢٢ .

وهل الحياد هو دائماً في مصلحة لبنان ؟

وهل تمكّن لبنان من اتخاذ موقف مصيري واحد ، رسمياً وعلنياً وصراحةً وجهاراً وعملياً ، بعد عام ١٩٤٣ ؟

هل كان موقفه واحداً من مشروع ايزنهاور ، من الموجة الناصرية ، من القضية الفلسطينية على أرض لبنان ، من الصراع اليميني اليساري في المنطقة وفي العالم ؟؟؟..

بل ، هل كان لشعبه ، لا لقادته ، موقف واحد من فكرة الاستقلال عام ١٩٤٣ ، ومن فكرة وجوب إنهاء الوجود الفرنسي بالكلية في لبنان ؟

المرتكز الثالث عشر :
لبنان واجب الوجود بوصفه مركز إشعاع

الى كون لبنان قلعة الحرياتّ في الشرق الأوسط ، وفي معرض ردّه على مناوئي الكيان اللبناني الذين يزعمون أنهُ لا ضرورة لانشاء هذا الكيان من أجل المسيحيين ، وسلامتهم مؤمنة في البلدان العربية الإسلامية المجاورة ، الى ذلك ، يضيف السودا المبدأ الثاني ، وهو أن : **لبنان واجب الوجود بصفته مركز إشعاع في المنطقة** .

وهو المبدأ الذي يحلّ محلّ المرتكز الثالث عشر من عقيدة السودا القومية اللبنانية .

لا يقصد السودا بهذا المبدأ كون هذا البلد أطلع شعراء وخطباء وأدباء . ففي كل البلدان التي تحت الشمس ، وجد ويوجد أدباء وخطباء وشعراء . وانما يرمي الى التشديد على هذه الحضارة التي عرفها لبنان خلال تاريخه العريق ، وذلك من خلال الانجازات الثقافية التي قدّمها اللبنانيون ، شروعاً بالعهد الفينيقي ، هذه الانجازات التي لم تنقطع أو تتوقف إلا خلال العصور العربية ، وعهد المماليك ، واوائل الفتح العثماني لهذه المنطقة ، لتعود الى الظهور ، ابتداءً من القرن السابع عشر والثامن عشر ، وتبلغ أوجها في عصر النهضة اللبنانية الحديثة ، في القرن الماضي ، وتكتمل في زمني الانتداب والاستقلال .

يرمي السودا ، بالأخص إلى الإعلان عن الإنجازات العلمية التالية :

١ — كون حروف الهجاء كانت من صنع اللبنانيين الأولين ، وقد نقلتها سفن صور ، وصيدون ، وبيبلوس ، الى أقاصي العالم القديم المعروف . ومنها اقتبس العالم أبجديته ، من الهند الى منغوليا ، الى بلاد الغول ، الى اسبانيا ، الى بلاد الإغريق ، الى روما .

٢ — كونهُ على اللبنانيين ايضاً درس اليونانيون علوم الفلك ، والهندسة ، والحساب ، والملاحة . ومنهم غرف هوميروس معارف الغرب ، فاستوحيت الألياذة ثم الأوديسية .

٣ — كون بيروت كادت ، في العهد الروماني ، تحجب بمدرستها الحقوقية انطاكية والاسكندرية .

٤ — خطورة وعظمة هذه القافلة الطويلة من العلماء ، والمؤرخين ، والكتّاب اللبنانيين ، الذين ظهروا على ممرّ التاريخ ، بدءاً من تيوفيل الادريسي ، المترجم الأول لهوميروس في القرن الثامن ، وانتهاءً ببيروت منتصف القرن العشرين ، بجامعاتها وطلابها من مختلف بلدان الشرق والغرب[1] .

هذا التأكيد على هوية لبنان الثقافية المميزة ، عبر التاريخ ، وعلى الانجازات العلمية الفينيقية ، يلتقي فيه السودا بالشاعر اللبناني شارل قرم . وكتابات هذا الأخير حافلة بما أعطاه لبنان ، في عصوره الفينيقية والحديثة ، الى الدنيا قاطبة ، والى العرب من نور ووهج وخلق . وعبر هذين المفكرين تبنى القوميون اللبنانيون ، نخبة وشعباً ، المبدأ ، بل قال به الغرب نفسه ، واعترف به غير القوميين اللبنايين في لبنان في دنيا العرب .

بل يلتقي السودا خاصة ، في تأكيده على ميزة لبنان الحضارية في التاريخ ، بالشاعر سعيد عقل الذي جاوز ومدرسته شارل قرم نفسه ، في التعمّق بالحضارة الفينيقية والدور الذي مثّله لبنان ، خلال الفترة الفينيقية ، على صعيد المعرفة والانجازات العقلية والعلمية التي فعلت في تاريخ الانسانية .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٣

المرتكز الرابع عشر :

لبنان واجب الوجود كجسر بين الشرق والغرب

في سياق الردّ على أعداء الكيان اللبناني ، الذين لا يرون ضرورة وجوده ، طالما ان حرية ممارسة الشعائر الدينية المسيحية مضمونة في البلاد العربية ، في سياق الردّ هذا ، يعلن السودا المبدأ الثالث ، الذي يقول بأن : **لبنان واجب الوجود باعتباره جسراً بين الشرق والغرب** .

وهو ما نستطيع أن نصفه بالمرتكز الرابع عشر من عقيدة السودا القومية اللبنانية .

لكن ، في شرح هذا المبدأ يبدو الرجل مقتضباً .

يشير السودا الى موقع لبنان الجغرافي عند مفترق الطرق الدولية ، بين إفريقيا وآسيا ، كما بين آسيا وأوروبا ، الأمر الذي أدّى الى انفتاحه على علوم الغرب وآدابه ، من جهة ، وعلى كنوز العرب الثقافية والشرقية ، من جهة أخرى ، كما أدّى ، هذا الموقع أيضاً ، بواسطة مطاره الدولي ، ومصبات شركاتَ النفط على شواطئه ، والمصارف الاميركية والاوروبية التي انشئت في أرضه ، الى جعله جسراً لا غنىً عنه بين الشرق

والغرب [1] .

إلا أن السودا يكتفي ، لجهة الشرق ، بالثقافة العربية ، ولا يذكر أياً من الثقافات الشرقية الأخرى العريقة ، حتى التي لها صلة باللبنانيين .

فالسريانية ، مثلاً ، وهي لغة المسيح ، والجسر الذي عبرت عليه العلوم اليونانية الى العرب ، في القرون الوسطى ، والى ذلك ، لغة لبنان في حقبة تاريخية طويلة ، ولغة أحد تراثاته وإحدى اثنياته ، السريانية هذه يجهلها طلاّبنا ، كما أساتذتنا .

ثمّ إن لغات الشرق الأقصى ، كالهندية والصينية ، لغات حضارات عريقة ويتكلمها بلدان بحجم القارات مساحةً وسكاناً ، غريبة عن ديارنا .

أمّا اليونانية واللاتينية فقد كانتا جزءاً من تراثنا ، الأولى منذ فتح الاسكندر المقدوني ، وعبر الثقافة الهلينية ، والثانية في العهود الصليبية ، وقد دامت قرابة المئتي عاماً ، شهد خلالها الساحل اللبناني والسوري والفلسطيني ممالك اوروبية في أرض شرقية .

هاتان اللغتان الأخيرتان مقصورتان ، في أيامنا ، على حفنة من مثقفّي ومفكّري الاكليروس ، وهما أقرب الى الإنقراض في مناهجنا التعليمية منهما الى الاستمرار .

كل هذه اللغات لا يشير اليها السودا . وإننا لنسائل الرجل : «ما هي الكنوز الثقافية الشرقية التي يطلع عليها الولد اللبناني ، حتى الآن ، خارج إطار اللغة العربية وآدابها ؟!

(1) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

المرتكز الخامس عشر :
لبنان واجب الوجود كهمزة وصل بين البلدان العربية

في وجه معارضي الكيان اللبناني ، لجهة عدم ضرورته ، وباعتبار أن ممارسة الايمان للأقليات المسيحية متوفّرة في البلاد الإسلامية المجاورة ، يعلن السودا ، أيضاً ، مبدأً رابعاً ، يصحّ بأن يؤلّف المرتكز الخامس عشر من عقيدته في القومية اللبنانية ، وهو أن : **لبنان واجد الوجود لكونه همزة الوصل بين البلدان العربية** [1] .

إن اعتبار لبنان همزة الوصل بين الدول الناطقة بالضاد مبدأ تضّمنتهُ محاضرة السودا في ٢٥ حزيران ١٩٥٦ . حتى ذلك الحين من عهد الاستقلال قد يبدو الأمر على كثير من الصحة . لكن هل يصح هذا القول بعد عام ١٩٥٨ ، أي بعد انتشار نفوذ الناصرية في العالم العربي ؟ وبعبارةٍ أخرى ، هل كان لبنان مرةً متفقاً مع نفسه في إتخاذ موقف واحد من المحاور العربية المتنازعة ، خاصةً في القضايا المصيرية بالنسبة اليه والى المنطقة؟ واذا ما اتخذ موقفاً لا يؤيده أحد الفريقين اللذين يتألف منهما أبناؤه ألا يفقد استقراره الداخلي وتتخلخل موازين القوى المتصارعة سياسياً وعقائدياً على أرضه ؟ وهل يتحمّل بلد صغير مثله لم يمضِ أكثر من عقودٍ ستة على وجوده وأكثر من عقود اربعة

(1) الموضع نفسه .

على استقلاله ، تعرّض خلالها عند نهاية كل ولاية من ولايات رئاسته ، واحياناً ، اثناءها ، لأكثر من هزّة كيانية ، هل يتحمّل الانقسام الداخلي بسبب الانقسام العربي أو الدولي ، لاسيما وان القوى العربية والغربية غالباً ما تتنازع في ربوعه ، مستفيدة من التناقضات التي تمزّقه منذ أشرف على الوجود ؟

ليبرّر السودا تأهيل لبنان القيام بدور همزة الوصل بين الدول العربية يطمئننا ، أولاً ، الى أن هذا البلد ليس له أي مطمع في أرض الجيران ، كما يطمئننا ، ثانياً ، الى أن ليس له مصلحة في التحيّز لهذا أو ذاك من المحاور العربية في صراع كلٍ منها من أجل البقاء[1] .

الشق الاول من هذا التبرير يبدو طريفاً . ان لا يطمع لبنان بشبر في أرض جيرانه أمر بديهي . لكن اذا كان لا بد من ذلك فهل يتفق مع ذاته ؟ وهل بامكانه اتخاذ موقف واحد اذا ما ظهرت للجيران انفسهم أطماع في أرضه ؟

ويضيف السودا ، في تبريره رسالة الوساطة بين الدول العربية التي يؤهّل لبنان لها ، كون «المصلحة العليا لكل من الأمم الشقيقة تقضي بالإبقاء على إستقلال لبنان ليحافظ بذلك على همزة الوصل المذكورة التي ينبغي أن يشكّلها بين العرب »[2] .

لكن متى قضت المصلحة العليا لبعض من الدول أن تجعل لبنان ينحاز اليها ضد البعض الآخر ، أو أن تستخدمه مطية لفريق في الصراع يقوم بينها وبين دول أخرى أو محاور أخرى عربية ، فأي موقف يقف ، وأي معنى يبقى لتأهيله لدور الوسيط ، خاصة اذا ما تعاطف فريق من أهله مع هذه الدولة العربية أو تلك ، أو مع هذا المحور العربي ، أو ذاك ، وهو ما حصل في عام ١٩٥٨ ، وفي عام ١٩٧٨ ؟

---

(١) الموضع نفسه .

(٢) الموضع نفسه .

المرتكز السادس عشر :
لبنان واجب الوجود كنموذج للتعايش

المبدأ الخامس الذي يعلنه السودا في وجه مناوئي الكيان اللبناني ، بحجة عدم ضرورته ، ويكوّن المرتكز السادس عشر من عقيدة القومية اللبنانية التي بها يدين ، يقول بأن : **لبنان واجب الوجود باعتباره نموذج للتعايش بين الأديان والمذاهب** .

يعتقد السودا ، على هذا الصعيد ، أنه ليس من الممكن منع تنوّع الطوائف في بلد نشأت فيه كل الاديان .

ثم «ان تعايش الأديان المتعددة في لبنان ليس وليد بعض السنوات . ففي غضون أجيال عدة كان لبنان انموذجاً للتسامح ، ومثلاً لرحابة الصدر المذهبية .

فالمسلمون عامةً ، والدروز خاصةً ، والمسيحيون من جميع الملل ، عاشوا جنباً الى جنب أكثر من ألف سنة ، يجهلون المسألة الطائفية ، ولا يأبهون البتة للاختلافات الدينية » ، حتى كان تدخل الأيادي الأجنبية «التي اثارت حوادث ملأت عشرين سنة من حياتنا الوطنية ، من عام ١٨٤٠ الى عام ١٨٦٠» . ولم يكن يجهل اللبنانيون انهم كانوا ألعوبة في رياح عصفت من الخارج .

وبرى السودا أنه لم يتبدّل شيء اليوم. فـ«الهدم والتخريب يبدآن ساعة يريد المحرّضون وفي المكان الذي يشاؤون» ، لكن ليعودا على أصحابها بالذات . «ألم ترجع مكيدة ١٨٦٠ على مسبّبيها» ؟! الم تحتّ مذابح الأرمن ، في عهد عبد الحميد ، على تقاسم مناطق النفوذ الأجنبية في الدولة العثمانية ؟ وأمس ، ألم تولّد حرائق القاهرة نتائج غير التي كان يتمنّاها من اشعلوها ؟ والموبقات التي ارتكبتها فئة من أبناء اسطمبول في الأحياء اليونانية ، بمناسبة حوادث قبرص ، ألم ترجع تركيا اربعة قرون الى الوراء ، كما صرّح بذلك وزير تركي مسؤول ؟

إن الفتنة الدينية قنبلة تنفجر فتضرب حاجزاً لترتد على الذين اطلقوها»[1] .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤ — ٢٥ .

المرتكز السابع عشر :
إستحالة زوال لبنان

بعد أن يذكر السودا المبادىء الخمسة التي تجعل من لبنان ضرورة في هذه المنطقة من الشرق ينتقل الى مبدأ أخير فحواه أن : **زوال لبنان أمر مستحيل الوقوع** .

ويروح السودا في تعداد العقبات التي تحول دون زوال الكيان اللبناني . وقد رأينا من المستحسن ذكرها كما عرضها الرجل حرفياً ، وهي الآتية :

العقبة الأولى = اللبنانيون المقيمون

اللبنانيون ، المسلمون او المسيحيون ، المتمسّكون بلبنان سيقاومون حتماً كل ما يمس سلامته أو استقلاله .

العقبة الثانية : لبنانيو ما وراء البحار

هؤلاء لهم وزنهم ولهم نفوذهم ، وسيقفون وقفة رجل واحد ، اذا ما دعت الحاجة ، ضد كل تيار معادٍ لوطنهم ، كما فعلوا في الحرب العالمية الأولى .

العقبة الثالثة = بلدان أميركا

يبلغ عدد هذه البلدان اثنتين وعشرين ، ولها اثنان وعشرون صوتاً في جمعية الامم المتحدة . وتتضمن جميعها ، بنسَب متفاوتة ، جاليات لها أهميتها وتأثيرها على مجالس الحكومات . وهذه البلدان تعير أذناً عطوفة أصوات اللبنانيين المغتربين وتميل الى دعم لبنان .

العقبة الرابعة = الفاتيكان

أنه دولة كاثوليكية لها نفوذها العالمي ، كما يعرف ذلك كل من له أدنى علم بالسياسة الدولية . فالفاتيكان لا يجهل أن الاديان الكبرى الموحّدة ، اليهودية ، والمسيحية ، والاسلامية ، ولدت جميعاً في هذه البقعة من العالم .

ولا يجهل الفاتيكان أيضاً ان الإسلام له عدة دول ذات سيادة في الشرق ،

وان هذه الدول دوّنت في دساتيرها هذا البند : «الإسلام هو دين الدولة ، أو الإسلام هو دين رئيس الدولة» ،

وان اليهود ناضلوا خلال قرون ، ولم ينفكوا عن النضال من أجل الحصول على وطن لهم في الشرق .

وان لبنان — إزاء هذا الوضع المتقدم ذكره — هو البلد الوحيد في الشرق — وحتى في القارتين الاسيوية والافريقية — الذي يعتنق رئيس دولته دين الفاتيكان ، وأن دستوره يقول في مادته الثانية بفصل الكنيسة عن الدولة .

الفاتيكان هذا يكنّ للبنان حبّاً وتفضيلاً خاصّين . من هنا ، ان بيروت هي الوحيدة بين عواصم العالم — ما عدا روما — التي امتازت بوجود أكثر من كاردينال واحد في اراضيها .

لا يخطر ببال أحد أن يأخذ على الامم الإسلامية نصاً رأت من الخير إدراجه في دساتيرها . إنّه الحق المطلق لكلٍ منها يخولها اختيار ما يناسب مصالحها . لكن تفهّم مسلك هذه الأمم يجب أن يحفزها ، على الأقل ، على التفهّم برحابة صدر للوضع

الخاص بلبنان .

إنّ الدول العربية التي يتمثّل معظمها في الفاتيكان يهمّها أن تقيم معه أوثق العلاقات . فعلى الكرسي الرسولي ، بالأخص ، تعتمد هذه الدول من أجل الحلّ الشافي لمعضلة الأماكن المقدسة .

فاذا ما بذل الفاتيكان الجهد الذي يعرف الجميع مقداره لوضع نظام دولي لأورشليم ، فأيّة جهود يوفّرها من أجل تثبيت لبنان كوحدة قائمة ؟

العقبة الخامسة = الدول الاوروبية

إن دول أوروبا جميعاً مسيحية . واذا ما أثيرت القضية اللبنانية على الصعيد الديني ، فلبنان ينال ، دونما أدنى شك ، مساندة هذه الدول ، كما حصل في عام ١٨٦٠ .

العقبة السادسة = السياسة العربية العليا والمصالح الدولية

في عالم اليوم تتشابك مصالح آخذة تشعبّاتها في الإمتداد والإتسّاع أكثر فأكثر . فسياسة العزلة ولّت الى غير رجعة ، حتى عند البلدان التي ولدت فيها .

وفي لبنان توجد مصالح أجنبية متعدّدة ، من أي نوع كان ، اقتصادية ومالية ، وتوجد بعثات ثقافية ، علمانية ودينية ، اختارت لبنان دون سواه من البلدان . أما أسباب هذا الاختيار فليست غريبة عن كون لبنان بلداً مُستقلاً .

فإذا ما هدّدت هذه المصالح بما يمسّ الأمر الواقع في لبنان ، فسرعان ما تطرح مسألة حماية مسيحيي الشرق . وان طلب المساعدة سيتقدم به مع كل ما يؤول اليه من نتائج .

العقبة السابعة = قضية اسرائيل

يكفي الرجال المسؤولين معضلة اسرائيل .

ثم إنّ الدول العربية تضع هذه المسألة أمام الرأي العام العالمي ، كمسألة عدالة صرفة حيث لا دخل للدين بشيء : طرد عرب بالقوة من ديارهم التي احتلّها اليهود الذين جيء بهم من زوايا الارض الأربع . العمل في ذاته اعتداء صارخ . الرأي العام تأثّر بذلك ، بالرغم من كل الجهود المبذولة لخنق صوت الحق .

فاذا ما مسّ ، إذن ، وجود واستقلال لبنان ، فإن الحجة المقدّمة ضد دولة اسرائيل سرعان ما تعود على هذه الاخيرة بالنفع الكبير . ولا شيء يمنع ، حينذاك ، الاعلان بأن ما يواصل من كفاح ضدّ إسرائيل ليس أدنى من محاولة إزالة كل دولة ليست إسلامية في الشرق .

وإلا ، فإن الطريقة الى التدخل الأجنبي مفتوحة ، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بنتائجها .

ويمكن ، أيضاً ، إتهام كل حركة تثار ضد لبنان وإستقلاله ، سواء اكانت باسم الدين أو الوحدة ، صادرة عن مأجورين من الأجنبي ، يحرّضون الجماهير الجاهلة لتمهيد الطريق للتدخل الأجنبي [1] .

تلك هي حقائق ، بنظر السودا ، يدركها كل من هم على صلة بالسياسة الدولية ، ولكن تنقصهم الشجاعة للتصريح بما يدركون .

ويعود السودا الى موضوع الصراع بين الفكرتين القوميتين في لبنان فيقول :

« إذا ما استمرّ اللبنانيون في إنقسامهم فريقين ، الفريق المتمسك بالحفاظ على لبنان والفريق المناوىء له ، فليس بالإمكان بناء وطن ومنع الاصطدام في كل الحقول ، ليبلغ حدّ الانفجار . وهنا ستكون الكارثة .

ثمّة من يتخيّلون بأن نهاية لبنان رهن بإحصاء قد يبدّل فريق الاكثرية أو بإعادة توزيع المناصب العالية التي قد تنتقل الى أيدٍ أخرى .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥ — ٢٨ .

وبناءً على هذه النظرية ، يقوم نقاش حاد حول الوظائف والموظفين ، ويحتدم صراع أهمّ في موضوع الأحصاء ، بغية إقصاء المغتربين اللبنانيين ومضاعفة عدد اللاجئين غير اللبنانيين .

هذا الاعتبار بالذات يثير الجدل حول التعليم ، والسياسة الخارجية ، ونفقات الخزينة ، والادارة ، والقضاء ، والجيش ، والدرك ، وكل شيء مهماً كان أم تافهاً .

فإذا تقلّصت الفكرة التي لا تريد لبنان من النفوس ، ونحا الجميع ناحية الإيمان المطلق بأن لبنان واقع نهائي لا رجوع عنه ، عندئذٍ لا يعود من سبب للاصطدام بين المفهومين المذكورين للبنان ، ولا يبقى من مبرّر لا للتجمّعات الاقليمية ولا للطائفية . وحينئذٍ فقط ، يصبح بمقدور الأشخاص المتجردين العمل ، وباستطاعة المصلحين اجراء الإصلاحات . والدولة اللبنانية قد تمسي ، والحالة هذه ، الدولة المثلى في الشرق » [٢] .

هذا البيان الطويل واضح ولا موجب لتفسيره . فالسودا يعدّد القوى والعوامل التي تحول دون زوال لبنان ، وكأنهُ بذلك ينذر مناوئي هذا البلد بأن كل محاولة للاطاحة بالكيان مكتوب لها الفشل الذريع . وهو ايضاً يلمح الى أن المتمسّكين بلبنان لا يتنازلون عن المناصب الستراتيجية في الدولة ، ولا يسلّمون بإحصاء من دون المغتربين الا اذا آمن الفريق الآخر بلبنان وطناً نهائياً . وعندئذٍ كل اصلاح على أساس الديمقراطية يتاح تحقيقه . فالامتيازات والكيان توأمان . والخوف على «الكيان» هو وراء التمسّك بهذه الامتيازات .

كان هذا كلام السودا ، عام ١٩٥٦ . لكن ، في ثورة ١٩٥٨ ، وفي حرب ١٩٧٥ — ١٩٧٧ ، ثبت أن وجود «الامتيازات» المذكورة نفسها بيد فريق معين من اللبنانية لا تمنع من اندلاع ثورة ولا من إعلان عصيان على الدولة ولا من انقسام الوطن على نفسه ، بل ثبت إمكان إبطال مفعول هذه «الامتيازات» ، وشلّها ، وتعطيلها

---

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ — ٣١ .

بتغليب إرادة الشارع على السلطة الدستورية ، والرضوخ للضغط ، نظراً للاجماع الذي قد يحصل عند إتباع مذاهب الديانة الواحدة إزاء صلاحيات رئاسة الدولة ومقرراتها .

كانت هذه آراء السودا في لبنان وفي النظريات الوحدوية السورية والعربية الرامية الى الإطاحة به في السنوات الخمسينات من هذا القرن ، وبالضبط ، في حدود عام ١٩٥٦ ، أي قبل ثورة ١٩٥٨ بعامين .

الخلاصة

المتغيرات في «دولة لبنان الكبير» حلم السودا المحقق ومدى مسؤولية هذا الأخير

كان هاجس السودا الأكبر : كيان لبنان الخاص الموسَّع في أجزائه «الطبيعية» و«التاريخية» ، مع الحصول على تحرّكهِ بمطلق الحريّة .

فماذا حصل في خطوة مؤتمر الصلح ومنفّذها الجنرال غورو ، على الصعيد السياسي ؟

لبنان ١٩٠٨ أو «جبل لبنان» الذي شكّل أبناؤه أكثرية مسيحية ساحقة ، واقتصر على رقعة من الأرض ، تمتد من جسر بيروت جنوبا الى آخر قضاء بشري شمالا ، مشتملة على جزين وزحلة والشوف ، وأقرته الدول الست ، متمتعا بضمانة دولية ، تحول ، عام ١٩٢٠ ، الى كيان سياسي ، ضم ، بالاضافة الى أبنائه الأصليين ، سكان مقاطعات مفصولة عنه ، منذ عام ١٨٦١ ، وغالبيتهم الساحقة من الطوائف المحمدية .

كان سنجقا مستقلاً ، يحكمه متصرف مسيحي غير لبناني ، ويعاونه مجلس ادارة[1] ، صورياً ، منتخب بدوره بصورةٍ صورية ، ضمن الامبراطورية العثمانية ، وأراضيه المسلوخة عنه هي ذاتها ولايات عثمانية .

فأصبح ما يسمّى بـ «عهد الاحتلال» الفرنسي ، عام ١٩١٨ ، ثم بـ «دولة لبنان الكبير» ، عام ١٩٢٠ ، فـ «الجمهورية اللبنانية » ، عام ١٩٢٦ .

كان دستوره بروتوكول ١٨٦١ الذي أبرمته دول خمس[٢] ، بموافقة الباب العالي العثماني في اسطنبول ، والذي شمل «التنظيمات الدستورية» الصادرة في ٥ حزيران ١٨٦١ ، والتي استعيض عنها بتنظيمات ٦ أيلول ١٨٦٤ ، والمعدّلة بدورها في ٢٨ تموز عام ١٨٦٨[٣] .

فأصبح ، بعد عام ١٩٢٦ ، يحكم بموجب دستور ، مقتبس في إطاره العام من دستور الجمهورية الافرنسية الثالثة ، الذي هو بدوره مستوحى من دستور فرنسا لعام ١٨٧٥[٤] .

كان الهدف من إنشاء متصرفية «جبل لبنان» ، في الأصل ، ضمانة إستقلال لبنان الذاتي الذي تشبّث به مسيحيو لبنان الجبل ، لأنه كان في مصلحتهم ، في ذلك الحين .

وكان الهدف من انشاء «دولة لبنان الكبير» أيضا ، أو «الجمهورية اللبنانية» ، ضمان إستقلال لبنان الذاتي ، وذلك ، تحقيقا لمطلب المسيحيين الأول والأساسي ، لأنهم كانوا يرون في هذا الكيان أيضا ضماناً لوجودهم وبقائهم الى جانب مجموعة دول المنطقة ، وتحقيقا لحاجاتهم الإقتصادية وعقيدتهم التاريخية والجغرافية ، خاصةً بولادة الكيان والانتداب الحافظ له في آنٍ .

لكن ، «الضمانة» في المتصرفية كانت دولية ، بينما هي في «دولة لبنان الكبير» وفي «الجمهورية اللبنانية» حتى عام ١٩٤٣ ، منوطة بدولة فرنسا وحدها .

كانت متصرفية «جبل لبنان» قائمة ، الى حدٍ كبيرٍ ، على التوازن الماروني الدرزي ، بينما قامت «دولة لبنان الكبير» ، من قبل ، و«الجمهورية اللبنانية» ، من بعد ، الى حدٍ كبيرٍ ، على التوازن الماروني السني .

كان شعور أكثرية أبناء «الجبل معادية للحكم التركي ، فأمسى شعور عموم مسلمي «لبنان الكبير» و«الجمهورية اللبنانية» معادياً لوجود الانتداب الفرنسي .

كان المسيحيون في سنجق «الجبل» يشكلون اكثريته الساحقة ، والدروز «أقلية قانعة بنظام ١٨٦١ .

فأصبح «لبنان الكبير» لا يكاد يكون فيه أكثرية وأقلية .

كان عدد سكان المتصرفية اللبنانية ، حسب احصاء ١٩١٣ ، يقدّر بـ ٤١٤,٨٠٠ ، منهم ٣٢٩,٤٨٢ مسيحيون (ومن هذا العدد ٢٤٢,٣٠٨ من الموارنة) ، فاذا به يصبح عام ١٩٢٣ ، بعد إنشاء «دولة لبنان الكبير» ، ٦٢٨,٨٦٣ ، منهم ١٥٠,٠٠٠ يقيمون في بيروت ، و٣٠,٠٠٠ في طرابلس و١٣,٠٠٠ في صيدا ، وهي مدن سنية في غالبيّة ابنائها ، هذا عدا السكان الشيعة في بقية الجنوب وفي منطقة بعلبك والبقاع . وهذه الزيادة في السكان ناتجة عن إلحاق المدن الساحلية والمقاطعات الداخلية بلبنان والتي كانت سابقاً جزءاً منه ، تاريخياً ، وجغرافياً ، ويحكمها تارة المعنيون وطوراً الشهابيون .

وكما ضاعف هذا الضمّ تقريباً عدد السكان ضاعف ، تقريبا ، المساحة نفسها ، ومن بينها مناطق مهملة ومتأخرة اقتصادياً واجتماعياً[٥] .

في موضوع النتائج الاجتماعية والسياسية لإتساع الأرض ، يقول فيليب حتي : «ولكن هذا الكسب في مساحة الارض كان يقابله عدم تجانس في السكان ، ونقص في التمازج والترابط . ذلك ، أن لبنان فقد التوازن الداخلي الذي كان ينعم به سابقاً ..»[٦] .

وفي تقرير أعدّه الكابتن وليم يايل (Yale) ، مندوب وزارة الخارجية الاميركية المكلف بمراقبة الوضع في الشرق الأدنى بالنسبة الى تسويات الصلح العامة ، بتاريخ ٢٦ تموز ١٩١٩ ، يقول : «كان عدد النصارى في جبل لبنان يقرب ، قبل الحرب ، من ٣٤٥ الف نسمة ، وكان عدد سكان لبنان الكبير ٥١٩ الف نسمة . واذا اعتبرنا أن عدد سكان سوريا كان يبلغ المليونين ونصف المليون فإن هذا يعني أن أكثر من الخمس كانوا يطالبون بأن يكون لبنان الكبير دولة مستقلة لا تربطها بداخلية البلاد أية روابط سياسية ».... من جهة ثانية ، أوضح مسلمو بيروت وصور وصيدا ، ومناطق لبنانية أخرى ، للكابتن يايل ، كما جاء في التقرير نفسه ، أنهم «يوافقون على منح سوريا

استقلالها برئاسة الأمير فيصل ، وانهم مصممون على مساندة الحكومة العربية الحديثة العهد ..»[٧] .

ويقول البرت موراني في كتابه «الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨ — ١٩٣٩) » : «وفي ١٩٢٠ ، أعلن لبنان مستقلاً بحدود موسعة . وفي ١٩٢٢ ، اعترف له ضمناً ، في صك الانتداب ، بكيان منفصل .. فلم يعترف معظم القوميين في سوريا بكيان منفصل للبنان الموسع ، كما لم يعترف بهذا الكيان أيضاً معظم المسلمين الذين ألحقوا به عند تعديل الحدود في ١٩٢٠ ..»[٨] .

وكتب محمد جميل بيهم في كتابه «العهد المخضرم في سوريا ولبنان (١٩١٨ — ١٩٢٢)[٩] : «فبينما كانت كثرتهم في ولاية بيروت تطالب بالانضمام الى الدولة السورية في دمشق كانت الكثرة في جبل لبنان ترفض بشدّة هذا الانضمام وتصرّ على الاستقلال ...» .

ثمة قرائن تثبت أيضاً أن لبنان ١٩٢٠ مختلف عن لبنان التاريخي :

لبنان الفينيقيين ، وإن دويلات أو مدناً شاطئية ، مؤلّف من شعب واحد وجنس واحد ، وهو ذو عادات واحدة ، واقتصاد واحد ، قائم على الإبحار والأسفار والتجارة العالمية ، وإن متعدّد الألهة ، لكل دولة مدينة الهها .

وهو ، خاصة ، يربطهُ مصير واحد ، ويتفرّد بخصائص واحدة ، وحضارة واحدة عُرفت به .

بينما يشعر كل فريق في لبنان ١٩٢٠ بأن له مصيراً مختلفاً عن مصير الفريق الآخر ، وكذلك له حضارة غير حضارة الفريق الآخر ، وتراث غير تراثه .

لبنان ١٩٢٠ يمتد من النهر الكبير الى الناقورة .

لبنان القرون الوسطى والعصور الحديثة حتى فخر الدين الثاني المعني ، في القرن السابع عشر ، يكاد ينحصر في شمالي لبنان :

في عصور الفتوحات العربية من أموية وعباسية وفاطمية ، من البترون الى أقصى

الشمال ، جبلاً ، لا ساحلاً .

في عهد الايوبيين والمماليك والاميرين فخر الدين الاول وقرقماز ، يتألف من بلاد كسروان وبلاد جبيل وبلاد البترون وجبة بشري .

ويمكن القول أنهُ حتى في الحقبة التي قامت فيها إمارة فخر الدين الثاني المعني ظلّت مقاطعات جبة بشري والبترون وجبيل وكسروان تشكّل الوحدة السياسية الوحيدة ضمن الإمارة والعمود الفقري لسلطة الأمير وسلطانه .

وقد بقيت المقاطعات نفسها في الوضع نفسه تقريباً أبّان حكم الأمير بشير الثاني الشهابي .

وأضيف في زمن المتصرفيّة الى هذه المقاطعات ، المتن وجزين وزحلة .

وفي مختلف هذه الحقب ظلّ لبنان الحقيقي قائماً على «جبل لبنان» ، تارةً مقتصراً على شمالي لبنان ، كما كان في القرون الوسطى ، وطوراً شاملاً أيضاً المتن وجزين وزحلة ، كما في خلال المتصرفية .

لأنهُ ، في «جبل لبنان» أثبت لبنان وجودهُ القومي خلال التاريخ ، من القرن السابع ، منذ بداية الفتح العربي حتى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ؛ وفي «جبل لبنان» قاوم أهل لبنان الغزاة ، وزادوا عن الحياض ، واستماتوا في سبيل الحرية ، وقدكان ابناء «الجبل» من دين ، والفتوحات من عربية ومصرية وعثمانية من دينٍ آخر .

الواقع ان السودا لم يكن ليأبه لعدد أبناء كل طائفة ضمن الكيان الذي جاهد من أجله ، اذا تجاوز عدد افراد الطائفة الأخرى أو نقص عنها . كان يعتبر الكل لبنانيين .

شكل الحكم ، تحوله من مجلس ادارة الى نظام جمهوري ، لا يعنيه إلاّ بنسبة ما يحقّقه في المزيد من الحريّة .

دستورهُ ايضا لا يهمّه اذا ماكان منقولاً عن دستور الجمهورية الثالثة أم غير منقول عن أي دستور آخر ، بقدر ما يهمّه احتواءه اكبر قدر من الديمقراطية .

الضمانة كان يصرّ عليها السودا دولية حتى لا تتفرّد دولة واحدة في رعاية شؤونه ،

فتتغلّب الاثرة على الصالح العام والهوى على التجرّد .

وجود اراضٍ متقدّمة وأخرى متردّية انتاجاً وعمراناً لا يحرّك أية عاطفة إقليمية أو عنصرية أو طائفية في الرجل . كل أرض لبنان واحدة لديه ، ولوطن واحد .

تطلّع فريق من ابناء الكيان الجديد الى أرضٍ اخرى ووطن آخر ، أمر لم يكن ليجهله السودا ، وهو ادرى بمحاولات «الضمّ» المتعدّدة والمغرية التي قامت اثناء الحرب العالمية الاولى ، ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وقد كان لها دوماً بالمرصاد . إلاّ أنهُ كان يؤمن بلبننة الفريق غير المؤمن .. إيماناً لا يحدّهُ حدّ ، إيمانه بلبنان التاريخ ، ولبنان الواجب الوجود .

ربّما كان ينقصهُ المزيد من الإلمام بالديانات الكبرى ، تلك التي تجمع الأبدي الى الزائل ، وتشبك الديني بالزمنيّ ، وتسبح فوق القوميات والأوطان .

وربّما خطأه في ارادة فصل لبنان فصلاً سرمديّاً عن الجوار ، فاخفقت لبننته اللبنانيين أجمعين .

النتائج التي ترتّبت على الاستقلال التام

اراد السودا أيضاً الاستقلال التام . فجاهد في سبيل ذلك دونما كلل أو ملل ، قولاً وكتابةً ، فكراً وعملاً . وناقش السلطة المنتدبة في أدقّ تشريعاتها أو ممارساتها التي رأى فيها مسّاً بالاستقلال الوطني . وكان مخلصاً في عقيدته هذه ، وحسَن النية ، ومؤمناً بأن الاستقلال أمر ممكن تحقيقه اذا ما سُعي في سَبيله وبُذل لأجله الغالي والرخيص . لكن هل الاستقلال يقوم بمجرّد زوال السلطة المنتدبة ؟ بالطبع ، كان يدرك أن الاستقلال يُصنع ، ولا ينتزع فقط من سالبيه . وكان على يقين أيضاً أن اللبنانيين جديرون به . لكن هل ان الأيمان بالإستقلال يكفي لإمكان ممارستَه ، بل يكفي لحمايته ؟

لا نتوقّف عند الناحية الأولى فنذكر التجاوزات في الادارة اللبنانية بل في الشعب نفسه بعد عام ١٩٤٣ ، ونقول أن الاستقلال يُستحقّ ولا يكفي انتزاعه ، لا يكفي نيله

والاستيلاء عليه بالقوّة ، وهي تجاوزات لم تكن في عصر الانتداب بالقوة نفسَها عند أي من الفريقين .

لا نتوقّف عند ناحية كيفية ممارسة الحكم من الداخل ، وهذا الأمر له سقطاته عند معظم الشعوب في فجر استقلالها ، بل نتساءل : هل استطعنا حماية الاستقلال الذي أقنا الأرض وأقعدناها في سَبيله ؟

هل كنّا مستقلّين فعلاً بعد العام ١٩٤٣ ؟ وهل بقي الاستقلال بعد ثورة ١٩٥٨ واثناءها ؟ وبعد حرب السنتين ١٩٧٥ — ١٩٧٧ واثناءها ؟

الاستقلال يفرض حرص جميع الفرقاء عليه . فهل حصل هذا في ثورة ١٩٥٨ ، وفي حرب ١٩٧٥ — ١٩٧٧ ، وبعدها ؟

الاستقلال يقول بأن لا نخضع لتوجيهات خارج الوطن . فهل تحقق هذا الأمر ؟

إن أولى واجبات الاستقلال الولاء للكيان اللبناني وحدهُ . فهل كان مثل هذا الولاء ؟

أن الاستقلال يدعو الى تفضيل الوطن على المذهب والفصل بينهما . فهل هذا مستطاع في بلد كلبنان ؟

الاَستقلال يحتّم الإلتقاء حول هوية واحدة للكيان الذي دعا اليه السودا . فهل إلتقينا على هويتنا ؟

الاستقلال يقضي بأن نؤمن بأمة واحدة ضمن هذا الكيان ، لكن أمة تامة مستقلة ومميّزة ومنفصلة عن أية أمةٍ أخرى . فهل كان هذا الإيمان من جميع الأطراف ؟

إذن استقلال مَن عن مَن توخّى السودا ؟

الاستقلال الذي دعا اليه الرجل يقول بالعمل للبنان ١٩٢٠ ، كياناً نهائياً غير مشروط ، مطلق الحرية بالنسبة الى جيرانه والى اصدقائه ، فهلاّ استجيب لهذه الدعوة من مختلف اللبنانيين ؟

من السخف أن نرمي السودا بوزر التجاوزات التي لطخت عهود الاستقلال أو أن

نحملهُ تبعة استغلال المنافع العامة وغياب السلطة بعد عام ١٩٤٣ ، ولم يكن من أهل الحكم إلا في ظروف عصيبة استثنائية ولفترة ضئيلة جداً ، ولم يكن لهُ يد في شذوذ الحكم وهناته .

كان للسودا رؤيا بالاستقلال تختلف عن الكثير من رجالاته ؛ آمن بسيادة الأمة التامة على نفسها ، بالحرية المطلقة والكرامة الوطنية ، وهو نفسه معلّم الكرامة ورجل الإباء والعنفوان حتى الصلف . فتوخّاهُ وطناً متفّقاً ومزاجه في الكبر .

وهو ذاته كوي بنار التسلّط الأجنبي ورأى كرامة وطن تكاد تُداس وسط قوم متسكّعين على أعتاب سلاطين الانتداب ، بل ، عفواً ، عملائه وصغار مستخدميه .

السودا غير مسؤول عن عدم حرص كل ابناء لبنان على كيانه ، ولا على توجّههم بتوجيهاتٍ من الخارج ، ولا على عدم ولائهم المطلق للارض ، ولا على عدم اجماعهم على الهويّة ، ولا على تفضيل المذهب على الوطن ، ولم يكن يوماً رئيس طائفة ولا حزب ولا فريق في الحكم وفي تقرير المصائر . لقد قام بواجبه كاملاً كمفكّر ومناضل وموجّه ، من قبل أن يُخلَق الكيان نفسه . ومات مؤمناً بأن لا وطن بدون الحرية ، وأن في دولة ١٩٢٠ أمة واحدة ينبغي أن تكون امةً حرةً ، وان الكيان وُجد ليبقى ، ولا معنى له بدون الحريّة .

ولكن السودا زرع .. ليقطف سواه ثمرة الكيان والاستقلال معاً ؛ وذهب الاستقلال ويكاد يذهب الكيان ويبقى السودا وحدهُ ؛ لأنه ، الى حدٍّ كبيرٍ ، أبُ الاثنين ، أبُ «لبنان الكبير» ، مع القدر المطلق من حريّة تصرّفهِ . وكان هذا شأن الرجال العظام في التاريخ ، يبنون الكيانات وأمجاد أممهم لتلمع اسماء اخرى على رأسها .

الحواشي

(١) كان مجلس الادارة الذي يعاون المتصرف يتألف من أربعة أعضاء موارنة ، وثلاثة من الدروز ، واثنين من الروم الارثوذكس ، وواحد من الروم الكاثوليك ، وواحد من السنة ، وواحد من الشيعة .
وقسمت المتصرفية الى سبعة أقضية . وقام بمهمة الأمن فيها درك وشرطة . وكان لها نظام ضرائبي خاص (راجع :
Great Britain, Admirality, a handbook of Syria (including Palestine), p. 243;
زين زين ، الصراع الدولي ، نفس المصدر ، ص ٨٢ وما يليها) .

(٢) هي انكلترا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا .

(٣) راجع في موضوع البروتوكول و «التنظيمات» ،
C. Young, Corps de droit ottoman (Oxford, 1925, vol. I., pp. 139-159.

(٤) أدمون رباط ، المرجع نفسه (بالفرنسية) ، ص ٣٧٢ — ٣٧٣ .

(٥) Said Himadeh, Ed. Economic Organization of Syria (Beirut, 1936), pp. 6, 11 et 410.

(٦) فيليب حتي : «لبنان في التاريخ» نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، بيروت — نيويورك ١٩٥٩ ، ص ٥٩٨ .

(٧) Washington, *The National Archives, General Records of the American Commission to Negotiate Peace*. Paris, 1918-1919, Record Group 256;
زين نور الدين زين «الصراع الدولي في الشرق الاوسط ...» الطبعة نفسها ص ٨٣ .

(٨) ترجمهُ الى العربية كريم عزقول ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣٨٠ .

(٩) بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٨٦ .

رسم السوَدا بقلم رسّام في باريس

المراجع

المراجع العربية

ابكاريوس ، اسكندر ، «كتاب نوادر الزمان في ملاحم جبل لبنان سنة ١٨٦٠ » (مخطوطة ، مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت) .

أبو شقرا ، يوسف ، «الحركات في لبنان» ، بيروت ، ١٩٥٢ .

أرسلان ، شكيب ، «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ » ، الطبعة الثالثة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ .

أسحق ، أديب ، «الدرر» ، الطبعة الثانية ، المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٩٠٩ .

البستاني ، المعلم بطرس ، «نفير سوريا » ، ١٨٦٠ .

البلاذري ، «فتوح البلدان» ، ليدن ، بريل ، ١٨٦٦ .

بن سعيد الانطاكي ، يحيى ، «تاريخ يحيى بن سعيد » ، باريس ، ١٩٣٢ .

بولس ، جواد ، «تاريخ لبنان » ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

حتي ، فيليب ، «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» ، المطبعة البوليسية ، حريصا ، ١٩٥٠ ، الجزء الأول .

حتي ، فيليب ، «لبنان في التاريخ» ، نشر مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، بيروت ، نيويورك ، ١٩٥٩ .

حسين ، محمد محمد ، «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» ،الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

حوراني ، البرت ، «الفكر العربي في عصر النهضة» ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

الخازن ، فيليب وفريد ، «مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية» ، جونيه ، ١٩١٠ .

الدحداح ، الشيخ نجيب ، «لبنان الكبير في التاريخ» ، مجلة «المشرق» ، المجد ٣٢ ، ١٩٣٢ .

رستم ، أسد ، «لبنان في عهد المتصرفية» ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ .

رستم ، أسد ، «المحفوظات الملكية المصرية» ، بيروت ، الاميركانية ، ١٩٤٠ .

سعيد ، أمين ، «الثورة العربية الكبرى» ، المجلد الاول ، مطبعة عيسى البابلي الحلبي ، القاهرة ، ب . ت .

الشدياق ، طنوس ، «كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان» ، بيروت ، ١٨٥٩ ؛ الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٤ ؛ طبعة ثالثة بإشراف فؤاد افرام البستاني ، جزءان ، بيروت ، ١٩٧٠ .

شيحا ، ميشال ، «لبنان في شخصيته وحضوره» ، نقله الى العربية فؤاد كنعان ، منشورات الندوة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٦٢ .

الصليبي ، كمال ، «تاريخ لبنان الحديث» ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٩ .

الطهطاوي ، رفاعة ، «مناهج الالباب المصرية في مناهج الآداب العصرية» ، الطبعة الثانية ، مطبعة شركة الرغائب ، القاهرة ، ١٩١٢ .

عقل ، هيام ، «بعض المفكرين المسيحيين والمسألة القومية» ١٨٦٠ — ١٩٢٠ ، رسالة الكفاءة في الفلسفة العامة ، كلية التربية (الجامعة اللبنانية) ، ١٩٧٧ .

القلقشندي ، أحمد ، «صبح الأعشى في صناعة الانشاء» (القاهرة ، ١٩١٤) .

لامنس ، هنري «استقلال لبنان الذاتي في اربعين سنة» ، في مجلة (Univers) ، ٢ أيار ١٩٠٢

لامنس ، هنري ، «تشريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» الطبعة الثانية (بيروت ، ١٩١٤ مجلد ٢ .

مزهر ، يوسف ، «تاريخ لبنان العام» ، بيروت .

«المشرق» ، مجلة يسوعية ، السنة ١٢ ، العدد ٢ ، شباط ١٩٠٩ .

مكرزل ، نعوم ، «مختارات الخواطر» ، مجموعة مقالات وطنية ظهرت في مجلة «الهدى» النيويوركية ، بعنوان «خواطر» . مطبعة الهدى ، نيويورك ، ١٩٣٢ .

نور الدين زين ، زين ، «الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان» ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧١ .

هارون ، جورج ، «هل توحّد لبنان مع الامير فخر الدين المعني الثاني ؟» ، منشورات بعنوان «القضية اللبنانية» ، كراس رقم ١٩ ، الكسليك ، ١٩٧٧ .

المراجع الأجنبية

Azoury, Nagib, *Le Réveil de la Nation Arabe*, Libr. Plon, Paris, 1905.

L'Alliance Libanaise d'Egypte et la Question du Liban, Le Caire, 1921.

Bérard, Victor, *Les Phéniciens et l'Odyssée*, T. II, Paris, 1927.

Chiha, Michel, *Liban d'aujourd'hui*, Beyrouth, 1940.

Contenau, Georges, *La Civilisation Phénicienne*, Paris, 1949.

Corm, Charles, *La Montagne Inspirée*, 1re éd. de la Revue Phénicienne, Beyrouth, 1932.

Corm, Charles, *La Revue Phénicienne*, Beyrouth, 1920.

Correspondance d'Orient de Paris, numéro d'août, 1928.

Great Britain, Admirality, *A Handbook of Syria* (including Palestine).

Haroun, Georges, *Sibli Sumayyil et son oeuvre*, thèse de Doctorat ès-Lettres, Université de Strasbourg, 1977.

Herodotus, History, KK. I, VII, 380 in Arnold J. Toynbee, Greek Historical Thought (London, 1924).

Himadeh, Sa'id, éd. *Economic Organization of Syria*, (Beirut, 1936).

Khaïrallah, T. Khaïrallah, *La Syrie*, Paris, Ernest Leroux, 1912.

Lammens, H., *La Syrie, précis historique*, t. II, éd. de l'Imp. Catholique, Beyrouth, 1921.

Lohéac, Lyne, *Daoud Ammoun et la création de l'Etat libanais*, Klincknieck, Paris, 1978.

Moscati, Sabatio, *Histoire et civilisation des peuples sémitiques*, Paris, 1955.

Moscati, Sabatio, *L'épopée des Phéniciens*, trad. de l'italien par C. Saba, revue par Arcelin, Faillard, 1947.

Ministère des Affaires Etrangères: *Rapport à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban*, Paris, 1923.

Nicoley, Edward F., *A Sarvey of Economic Conditions in Syria*, (Urbana, 1923).

Pingaud, A., *Histoire Diplomatique de la France pendant la grande guerre*, V, III.

Rabbath, Edmond, *La formation historique du Liban politique et constitutionnel*, publ. de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1973.

Samné, Georges, *La Syrie*, Paris, Bossard, 1921.

Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon under French mandate*, (London, 1958).

Sorel, Jean-Albert, *Le Mandat français et l'expansion économique de la Syrie et du Liban*, Paris, 1929.

Strabon, *Geography*, KK. XVI.

Young, C., *Corps de Droit Human*, Vol. I, (Oxford, 1925).

فهـــرس

توطئة ٥

المقدمة :

نشأة عقيدة يوسف السودا اللبنانية ٧

تأثيرة انتفاضة مصطفى كامل في نفسه ١١

أثر التسلّط العثماني ١٣

الحواشي ١٧

أركان العقيدة اللبنانية عند السودا ١٩

المرتكز الأول : الأساس الفينيقي للكيان اللبناني ٢٣

نسبة اللبنانيين إلى الفينيقيين ٢٤

من أين جاء الفينيقيون ؟ ٢٦

الحواشي ٢٩

المرتكز الثاني : الأساس التاريخي المدوّن لاسم لبنان وأرزه ٣١

الحواشي ٣٧

المرتكز الثالث : الأساس الحضاري للبنان ٣٩

مقومات الحضارة الفينيقية ٤٠

حضارة جبيل وصيدا وصور ورأس شمرا ٤١

الحواشي ٤٥

المرتكز الرابع : الأساس الجغرافي للبنان ٤٧

الحواشي ٤٩

المرتكز الخامس : الأساس التاريخي لاستقلال لبنان ٥١

الانتفاضات الاستقلالية في عهد العباسيين ٥٤

لبنان والصليبيين ٥٦
استقلال لبنان في العصور الحديثة ٥٨
استقلال لبنان في عهد المتصرفية ٥٩
مآخذ السودا القومية والاستقلالية على معاهدة ١٨٦١ ٦٠
مقاومة السودا فكرة احتلال تركيا لبنان ٦١
موقف السودا من احتلال الجيش التركي للبنان ٦٣
الحواشي ٦٥
المرتكز السادس : فكرة «لبنان الكبير» ٦٩
مقاومة الانضمام الى تركيا ٧٠
الفصل بين «لبنان» و«سوريا» ٧١
في وجه الوحدات المطيحة بلبنان ٧١
أبعاد السياسة الفرنسية والانكليزية ٧٣
عقيدة السودا بشأن لبنان ما بعد الحرب (١٩١٤ — ١٩١٨) ٧٤
السودا يوجّه لبنانياً ٧٥
مواصلته مقاومة المشاريع الوحدوية ٧٧
انتصار فكرة السودا القومية ٧٨
الحواشي ٨١
المرتكز السابع : الحصول على مزيد من السيادة
اللبنانية إزاء تطبيق نظام الانتداب ٨٣
مداميك السيادة اللبنانية بنظر السودا ٨٧
وجوب تحديد مدة البعثة العسكرية الفرنسية ٩٠
وجوب استبدال «القوات الخاصة» الفرنسية بجيش لبناني
يؤلف لتوطيد الأمن والدفاع عن الأرض اللبنانية ٩١
وجوب إلغاء الامتيازات الممنوحة لمؤسسات التعليم
ولبعثات التنقيب عن الآثار ٩١
وجوب لبننة الشركات ذات الامتياز ٩٢
«مصرف سوريا ولبنان الكبير» ٩٢

سكك الحديد ٩٣
وجوب إلغاء حصر التبغ والتنباك ٩٣
وجوب لبننة بقية شركات استثمار المنافع العامة ٩٤
وجوب إلغاء المحاكم المختلطة ٩٤
جعل العربية اللغة الرسمية الوحيدة ٩٥
وجوب إخضاع الموظفين الفرنسيين لسلطة الحكومة اللبنانية ٩٥
وجوب الحفاظ على صلاحيات السلطة التشريعية الوطنية ٩٥
وجوب الحفاظ على دستور لبنان ٩٥
وجوب إعادة الجنسية الى المغتربين اللبنانيين ٩٦
وجوب تحديد مدة المعاهدة الفرنسية اللبنانية
ومدة الاتفاق العسكري الفرنسي اللبناني ٩٦
الخلاصة ٩٨
الحواشي ١٠٣
المرتكز الثامن : الإيمان بالوحدة الوطنية داخل «لبنان الكبير» ١٠٥
مداميك الوحدة الوطنية في رأي السودا ١٠٧
شعارات الوحدة إبان سنوات الاحتلال الفرنسي ١٠٨
على الأرزة ١٠٩
على الحضارة الفينيقية ١١١
على الأمير فخر الدين المعني الثاني والامير بشير
الثاني الشهابي الكبير ويوسف بك كرم ١١٢
أبعاد هذه الشعارات ١١٣
الدعوة الى الوحدة أبّان الانتداب الفرنسي ١١٦
مداميك الوحدة الوطنية كما يراها السودا في عهد الانتداب ١١٨
في الحقل الدستوري ١١٩
في الادارة ١٢٠
في القضاء ١٢٠

في التربية ١٢٠

في شؤون المالية والاقتصاد والصحة العامة ١٢٠

و— في ما يتعلق بالعلاقات بين لبنان وسوريا
وبين لبنان والأقطار الأخرى المجاورة ١٢١

في ما خصّ المغتربين اللبنانيين ١٢١

في موضوع المرأة اللبنانية ١٢١

الشبيبة اللبنانية ١٢١

على صعيد العمال والفلاحين ١٢٢

— في مضمار القوات اللبنانية ١٢٢

شعار السودا بعد إقرار المعاهدة اللبنانية الفرنسية ١٢٣

حق لبنان في الحياة حراً مستقلاً ١٢٣

إحلال التضامن المسيحي الاسلامي في لبنان
محل الانتداب ، في فترة ما بعد الاستقلال ١٢٣

الانتداب ، في فترة ما بعد الاستقلال ١٢٣

تحقيق الحاجات والمطالب المعيشية والاصلاح الداخلي ورفع الأثقال
عن كاهل الفلاح والطبقة المتوسطة ١٢٥

مداميك الوحدة الوطنية في عام ١٩٣٨ ١٢٦

أبعاد هذا الميثاق ١٢٨

اللغة العربية ١٣١

دعوة السودا الى الوحدة الوطنية في الأعوام
الخمسينات من عهد ما بعد الاستقلال ١٣٢

شعارات الأعوام الخمسينات ١٣٤

شعارات السودا للوحدة الوطنية في السنوات
الستينات من هذا القرن ١٣٥

* من عام ١٩٠٦ الى عام ١٩١٠ ١٣٦

* من عام ١٩١٠ الى عام ١٩١٣ ١٣٦

١٩١٤ — ١٩١٨ ١٣٦

من عام ١٩١٨ — ١٩٢٠ ١٣٧

من عام ١٩٢٠ — ١٩٢٢ ١٣٧

في «تاريخ لبنان الحضاري» ١٣٧

الخلاصة ١٣٩

الحواشي ١٤١

المرتكز التاسع : لبنان ليس منحة من الانتداب الفرنسي ١٤٥

«الوحدة السورية» ١٤٦

مشروع «الهلال الخصيب» ١٤٦

مشروع «الوحدة العربية» ١٤٧

حجج رافضي لبنان ورد السودا ١٤٨

أولا — لبنان ليس منحة من الانتداب ١٤٨

الحواشي ١٥١

المرتكز العاشر : لم يكن لبنان ممرّاً يعبر عليه الاستعمار ١٥٣

المرتكز الحادي عشر : ليس لبنان وحده حجر العثرة في طريق الوحدة العربية ١٥٥

فكرة «الوحدة الاوروبية» ١٥٦

فكرة وحدة أميركا ١٥٦

الوحدة العربية مستحيلة ١٥٦

المرتكز الثاني عشر : لبنان واجب الوجود لكونه قلعة الحريّات ١٦١

لبنان ملجأ الوثنيين ١٦٢

لبنان ملجأ الموارنة ١٦٢

لبنان ملجأ الدروز ١٦٢

المرتكز الثالث عشر : لبنان واجب الوجود بوصفه مركز إشعاع ١٦٥

المرتكز الرابع عشر : لبنان واجب الوجود كجسر بين الشرق والغرب ١٦٧

المرتكز الخامس عشر : لبنان واجب الوجود كهمزة وصل بين البلدان العربية ١٦٩

المرتكز السادس عشر : لبنان واجب الوجود كنموذج للتعايش ١٧١

المرتكز السابع عشر : إستحالة زوال لبنان ١٧٣
العقبة الاولى = اللبنانيون المقيمون ١٧٣
العقبة الثانية = لبنانيو ما وراء البحار ١٧٣
العقبة الثالثة = بلدان أميركا ١٧٤
العقبة الرابعة = الفاتيكان ١٧٤
العقبة السادسة = السياسة العربية العليا والمصالح الدولية ١٧٥
العقبة السابعة = قضية اسرائيل ١٧٥

الخلاصة
المتغيّرات في «دولة لبنان الكبير» حلم السودا
المحقق ومدى مسؤولية هذا الأخير ١٧٩
النتائج التي ترتّبت على الاستقلال التام ١٨٤
الحواشي ١٨٧
المراجع ١٨٩
المراجع العربية ١٩١
المراجع الأجنبية ١٩٤

تم صف هذا الكتا
مؤسسة كومبو–
تلفون : ٧/٢٢٨٢٢٠
بيروت — لبنان ٩/

المطبعة العرب
بيروت - لبنا

الثمن : ٢٥ ل.ل.